

جامعة البحرين

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

كلية الآداب



التماسك النصي في سورة طه

أطروحة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير
في برنامج الماجستير في اللغة العربية وآدابها

إعداد

الطالبة

سارة عبد النبي سلمان العويناتي

الرقم الجامعي : ٢٠١١٤٤٢١

إشراف

أ.د. أحمد محمد ويس

أستاذ نظرية الأدب وعلم الأسلوب

جامعة البحرين

مملكة البحرين

يناير ٢٠٢١



قرار لجنة مناقشة أطروحة

اسم الطالب:	سارة عبد النبي سلمان العويناتي	الرقم الجامعي:	20114421
الكلية:	كلية الآداب	القسم:	قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية
اسم البرنامج:	الدبلوم العالي والماجستير في اللغة العربية	المعدل:	3.96
		التراكمي:	
عنوان الأطروحة:			
التماسك النصي في سورة طه			

اجتمعت لجنة المناقشة يوم الخميس الموافق 07-Jan-21 بقاعة رقم
ويعد مناقشة الطالب المذكور أعلاه علناً توصي لجنة المناقشة بالتالي:

يمنح الطالب تقدير: A في مقرر الأطروحة: ARAB 590

م	فون إجراء أية تعديلات على الأطروحة. وقد أوصت اللجنة بطباعة الرسالة على نفقة الجامعة
م	إجراء التعديلات المرفقة مع هذا القرار.

تصديق أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم	التوقيع
1. أ.د. أحمد محمد ويس	المشرف على الأطروحة
2. أ.د. عمر حمدان الكبيسي	المتن الداخلي
3. أ.د. أحمد مصطفى عفيفي	المتن الخارجي

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل وسائل الاتساق والانسجام التي يَتَماشِكُ بها نَصّ "سورة طه"، من خلال تطبيق النُّظرة الكُلِّيَّة للنَّصِّ القرآنيِّ، وتجاوزِ النُّظرة الجزئية القديمة، دافعنا فيه الرُّغبة في خوض مُعتركِ البحث عن جوهرِ السموِّ في القرآنِ علمًا، بعدَ استقرارِهِ في النَّفسِ إيمانًا و يقينًا. وقد اقتضت طبيعة البحث أن يتألف من ثلاثة فصولٍ تسبقها مقدمة وتليها خاتمة، فأما الفصل الأول فهو فصلٌ نظريٌّ درستُ فيه مفهوم النَّصِّ، منطلقًا لمفهوم التَّماشِكِ النَّصِّيِّ، ودرستُ الشَّقَيْنِ اللَّذَيْنِ يدرسهما التَّماشِكُ النَّصِّيُّ وهُما: الانسجام والاتساق، مُبرِزةً الخلط الواقع بينهما ومُنتهيةً إلى محاولة إرساء أدقِّ المُصطلحات، كما درستُ في الجانبِ النظريِّ خصوصيَّة النَّصِّ القرآنيِّ وامتنازه من كافَّة النُّصوص، وأهميَّة العودة للتفسير ومعرفة أسباب النَّزول لفهمه وتحليله، وأما الفصل الثاني فهو فصلٌ تطبيقيٌّ يدرسُ وسائلَ الاتساق. والاتساق يبحثُ الشَّكلَ الخارجيّ فيدرسُ المُستوى الصَّوتيَّ والمُستوى المُعجميَّ والمُستوى التَّركيبيَّ، أما المُستوى الصَّوتيُّ فهو يبحثُ ما يُحدِّثُه الصَّوت من أثرٍ في تماشِكِ النَّصِّ من خلال دراسة الفاصلة القرآنيَّة، والتكرار الصَّوتيِّ، وأما المُستوى المُعجميُّ فهو يبحثُ الحقول الدلاليَّة والألفاظ الدالَّة عليها والعلاقات التي تربط هذه الحقول على مُستوى النَّصِّ بوصفه كلاً، كما يدرسُ التكرار المُعجميَّ والتَّرادف والتضادَّ، وأما المُستوى التَّركيبيُّ فيبحثُ الصَّيغ التَّركيبيَّة، وتكرارها والوسائل التي تربط بينها، ومنها الحذف والإحالة والوصل، وكيف تُسهم جميعًا في اتساق النَّصِّ، وأما الفصل الثالث فهو فصلٌ تطبيقيٌّ يدرسُ وسائل الانسجام، مُستندًا إلى أسباب النَّزول وكفاءة الباحث في فهم وتأويل النَّصِّ، ويُدرسُ الانسجام من خلال وسائل عديدة: منها عنوان النَّصِّ، وموضوع النَّصِّ الكُلِّيِّ والتدرُّج في بناء موضوعاته، وقد درسنا سبب تقديم قصَّة موسى وسبب تأخير قصَّة آدم، وسبب تكرار أهميَّة الذِّكر بعد القصَّتين، كما وقفنا عند ترتيب بُنية داخليَّة من بُنى النَّصِّ، ودراسة الانسجام بين ألفاظ السُّورة عامَّةً مع بيان ما توحيه هذه الألفاظ بما يتناسب مع خصوصيَّة هذه السُّورة ودلالاتها مع إبراز جوانب الاختلاف بين هذه الألفاظ والألفاظ الواردة في سُورٍ أخرى تتناول قصصًا مُشابهة، كما درسنا الاختتام وأثره في تماشِكِ النَّصِّ، والعلاقات الواردة في إطار البُنية النَّصِّيَّة الواحدة مثل علاقة الإجمال والتفصيل، وعلاقة التفسير، وعلاقة السَّبب بالمُسبَّب، وعلاقة الشَّرط بالجواب، وعلاقة السُّؤال بالجواب، وعلاقة الاستلزام، والعلاقات الواردة في إطار البُنية الكُلِّيَّة للنَّصِّ، ومنها علاقة العامِّ والخاصِّ، وكيف أسهمت هذه الوسائل جميعًا في بناء النَّصِّ، وقد انتهينا إلى نتائج تتَّجه في مجملها على صعيد المُستويين النظريِّ والتطبيقيِّ إلى إرساء بعض المُصطلحات، وإبراز أثر وسائل الانسجام والاتساق في تماشِكِ النَّصِّ القرآنيِّ، وإظهار تحقُّق التَّماشِكِ من خلال تآزرِ كُلِّ من الشَّكل والمعنى.

الإهداء:

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُوِّرْ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: 35]

إلى والديّ، شجرتي المباركة،

بِكُما كتبتُ، وهذا من فضلِ ربّي.

الشكر والتقدير:

الشُّكْرُ لله الَّذِي هَيَّأَ لِي الطَّرِيقَ بَأَن جَعَلَهُمْ فِيهِ، مَنْ بِهِمَا أَسْتَضِيءُ، وَمَنْ عَلَيْهِ أَتَكَيُّ، وَمَنْ مِنْهُمْ أَسْتَلْهِمُ، وَالَّذِي، وَزَوْجِي، وَ جَمِيعُ أَسَاتِنَتِي فِي كُلِّيةِ الآدَابِ، وَأَخْصُ أَسَاتِذِي الْمُشْرِفِ الدُّكْتُور أَحْمَدَ مُحَمَّدَ وَيَسَ الَّذِي وَهَبَنِي ثَقَنَهُ وَأَكْرَمَنِي بِصَبْرِهِ وَسَعَةِ صَدْرِهِ فِي طَرِيقِ الْبَحْثِ الطَّوِيلِ، وَشَدَّ عَلَى يَدِي بِكَرَمِهِ وَاحْتِرَامِهِ، حَتَّى خَرَجْتَ الرِّسَالَةَ فِي شَكْلِهَا الْآخِرِ بَعْدَ أَنْ قَوِّمَ مَا اعْوَجَّ فِيهَا، وَسَعَى بِمُلْحُوظَاتِهِ لِإِتْمَامِ نَقْصِهَا لُغَةً وَأَسْلُوبًا وَمَعْرِفَةً بِالْمُنَاقَشَةِ وَالتَّوْجِيهِ وَالتُّصْحِ وَالْإِمْدَادِ بِالْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ الْمُهِمَّةِ، فَلِلَّهِ الْمَنَّةُ وَالْفَضْلُ، وَإِلَيْهِمْ وَافِرُ الشُّكْرِ وَالتَّقْدِيرِ.

قائمة المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
أ	اعتماد لجنة المناقشة
ب	ملخص الدراسة
ج	الإهداء
د	الشكر والتقدير
هـ	الفهرس
1	المقدمة
7	الفصل الأول التَّماسُك النَّصِّي: المصطلح والمفهوم والعناصر.
9	مفهوم النص:
14	مفهوم التَّماسُك النَّصِّي:
17	أولاً: الاتِّساق
19	وسائل الاتِّساق:
19	الاتِّساق في المستوى المعجمي:
19	1. التكرار:
23	2. التَّضام:
24	الاتِّساق في المستوى التركيبي:
24	1. الإحالة:
35	2. الحذف:
38	3. الوصل:
41	4. الاستبدال:
44	ثانياً: الانسجام
46	وسائل الانسجام:

46	1. الموضوع
47	2. العنوان
48	3. التدرُّج في الأحداث
48	4. الاختتام
49	5. العلاقات
55	ثالثًا: خصوصية النصِّ القرآني
61	الفصل الثاني الاتِّساق في سورة طه
63	الاتِّساق في المستوى الصَّوتي:
63	1. التَّكرار الصَّوتي:
63	تكرار الفاصلة القرآنيَّة:
69	- تكرار فاصلة الألف
69	- تكرار فاصلة الياء
72	2. الجناس:
72	- عدد الحروف
73	- ترتيب الحروف
74	- جناس الاشتقاق
76	الاتِّساق في المستوى المُعجمي:
76	1. التَّضام
77	- الارتباط بموضوع معيَّن
86	- التَّضاد
88	- التَّقابُل

89	- الطَّباق
90	2. التَّكرار:
90	أولاً: التَّكرار الثَّام:
92	1. تكرر أدوات التَّوكيد:
92	▪ تكرر قد:
93	▪ تكرر لقد:
93	▪ تكرر التَّأكيد بنون التَّوكيد الثَّقيلة والمفعول المُطلق:
94	2. تكرر أداة الشَّرط "من".
94	ثانيًا: التَّكرار الناقص الجزئي:
94	▪ تكرر الاشتقاق.
95	▪ تكرر لفظ القول.
96	▪ تكرر الحروف.
96	▪ تكرر التَّراكيب المتوازنة.
99	ثالثًا: تكرر التَّرادف وشبه التَّرادف:
101	الاتِّساق في المستوى التَّركيبي:
101	1. التَّراكيب اللَّفظيَّة
102	- الجُمْل الإسميَّة والفعلية
102	- الصَّيغ التَّركيبيَّة
104	- الاستثناء
106	- البناء الثَّنائي
109	2. الإحالة
114	- الإحالة بالضَّمائر

113	- الإحالة بالإشارة
115	3. الحذف
115	- حذف الاسم
116	- حذف الفعل
118	- حذف الجملة
117	4. الوصل
117	- الوصل الاستدراكي
117	- الوصل السببي
119	- الوصل الإضافي
120	- الوصل الزماني
124	5. الاستبدال
124	- الاستبدال الاسمي
125	- الاستبدال القولي
128	الفصل الثالث الانسجام في سورة طه
130	أسباب النزول
133	خصائص السورة
135	وسائل الانسجام
135	1. العنوان
139	2. موضوع النص
154	3. ترتيب النص
155	■ سبب تقديم قصة موسى

158	▪ سبب تأخير قصّة آدم
159	▪ سبب تكرار أهميّة الذّكر بعد القصّتين
159	▪ سبب ورود آية العجلة في التعقيب على قصّة موسى
163	▪ ترتيب بنية داخلية من بُنى النصّ
165	▪ ترتيب إحدى البنى النصّية
172	▪ الانسجام بين عبارات السّورة عامّة
184	4. الاختتام
185	5. العلاقات:
185	- العلاقات في إطار البنية النصّية الواحدة:
185	• علاقة الإجمال والتّفصيل
188	• علاقة التّفسير
189	• علاقة السّبب بالمُسبّب
191	• علاقة الشّروط بالجواب
194	• علاقة السّؤال بالجواب
199	• علاقة الاستلزام
202	- العلاقات في إطار البنية الكلّية للنّص:
202	• علاقة العام والخاصّ
204	الخاتمة
207	المراجع والمصادر
214	الملاحق
224	ملخص الدّراسة باللّغة الإنجليزيّة

بِمِنْ إعْجَازِ الْقُرْآنِ أَنْ يَظَلَّ مَشْغَلَةُ الدَّارِسِينَ الْعُلَمَاءَ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ،
ثُمَّ يَبْقَى أَبَدًا رَحْبَ الْمَدَى سَخِيٍّ الْمَوْرِدِ، كُلَّمَا حَسِبَ جِيلٌ أَنَّهُ بَلَغَ مِنْهُ الْغَايَةَ،
امْتَدَّ الْأَفْقُ بَعِيدًا وَرَاءَ كُلِّ مَطْمَعٍ، عَالِيًا يَفُوقُ طَاقَةَ الدَّارِسِينَ.
بَنَتْ الشَّاطِئُ

المُقَدِّمَةُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَتَّى يَبْلُغَ الْحَمْدُ مُنْتَهَاهَا، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَبَعْدُ:

فقد عُيِنَتِ الدِّرَاسَاتُ اللُّغَوِيَّةُ سَابِقًا بِدِرَاسَةِ "الْجُمْلَةِ" بِوَصْفِهَا أَكْبَرَ وَحْدَةٍ لُغَوِيَّةٍ، فُدْرِسَتْ النَّصُوصُ مِنْ خِلَالِ الْوَقُوفِ عَلَى الْجُمْلَةِ وَتَحْلِيلِهَا وَدِرَاسَتِهَا دُونَ النَّظَرِ إِلَيْهَا بِوَصْفِهَا جُزْءًا مِنْ بِنَاءٍ كُلِّيٍّ يَتِمَّتْ فِي "النَّصِّ"، أَمَّا عِلْمُ النَّصِّ فَقَدْ اتَّجَهَتْ عَنَائِيهِ إِلَى دِرَاسَةِ النَّصِّ بِاعْتِبَارِهِ أَكْبَرَ وَحْدَةٍ لُغَوِيَّةٍ مُتَجَاوِزًا حُدُودَ الْجُمْلَةِ إِلَى فُضَاءِ النَّصِّ، وَ"تَجَاوُزُ" نَحْوِ النَّصِّ حُدُودَ الْجُمْلَةِ فِي التَّحْلِيلِ يَسْمَحُ بِطَرَحِ إمْكَانَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ لِلْفَهْمِ وَفُضَاءَاتٍ أَرْحَبَ لِلتَّفْسِيرِ¹ مِمَّا يَسْهُمُ فِي خَلْقِ تَحْلِيلٍ شَامِلٍ لَا يَقِفُ عِنْدَ الْجُزْئِيَّاتِ وَإِنَّمَا يَتَجَاوِزُهَا إِلَى دِرَاسَةِ الْكُلِّيَّاتِ، فَيُدْرِسُ النَّصَّ لَا بِأَجْزَائِهِ فَحَسَبَ وَإِنَّمَا بِبِنَائِهِ الْكُلِّيِّ، وَلَا بِبُنْيَانِهِ دُونَ دَلَالَتِهِ وَإِنَّمَا بِتَضَافُرِ الشَّكْلِ وَالذَّلَالَةِ، إِذْ تَتَرَابُطُ الْأَجْزَاءُ وَتَلْتَجِمُ فِيهَا بَيْنَهَا شَكْلًا وَدَلَالَةً عَنْ طَرِيقِ عِلَاقَاتٍ نَامِيَةٍ فِي النَّصِّ، فَالْكَلِمَاتُ مُمْتَدَّةٌ مِنْ كَلِمَاتٍ أُخْرَى وَمُحَرِّضَةٌ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ لِكَلِمَاتٍ أُخْرَى، وَمِثْلُهَا الْجُمْلُ فِي اتِّصَالٍ وَتَشَابُكِ مُسْتَمَرٍّ فِي تَأْدِيَةٍ مَعْنَى، فَالنَّصُّ هُوَ "تَسْيِجٌ مِنْ الْكَلِمَاتِ يَتَرَابُطُ بَعْضُهَا بِبَعْضِهَا الْآخَرِ، وَهَذِهِ الْخِيُوطُ تَجْمَعُ عَنَاصِرَ الْمُخْتَلَفَةِ وَالْمَتَبَاعِدَةِ فِي كَلٍّ وَاحِدٍ"².

وَمِنْ الْمَوْكَّدِ عِنْدَنَا أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَهُوَ النَّصُّ الْإِلَهِيُّ الْمُنَزَّلُ مِنَ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ هُوَ أَسْمَى مَرَاتِبِ الْبَيَانِ، فَدِرَاسَتُهُ دِرَاسَةٌ نَصِيَّةٌ تَعْنِي اسْتِكْشَافَ قِيَمَتِهِ الدَّلَالِيَّةِ وَعِلَاقَاتِهِ الْكُلِّيَّةِ وَالْإِبْحَارَ فِي أَعْمَاقِهِ لاسْتِخْرَاجِ جَوَاهِرِهِ، مِنْ خِلَالِ تَطْبِيقِ النَّظَرِ الْكُلِّيِّ لِلنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ، وَتَجَاوُزِ النَّظَرِ الْجُزْئِيِّ الْقَدِيمَةِ فِي دِرَاسَتِهِ دِرَاسَةً نَحْوِيَّةً أَوْ تَفْسِيرِيَّةً أَوْ جَمَالِيَّةً، فَعِلْمُ النَّصِّ لَهُ نَظَرَةٌ شَمُولِيَّةٌ تَعْنِي بِالنَّظَرِ إِلَى النَّصِّ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهِ مُجْتَمِعَةً بِمَا يَخْدِمُ الدِّرَاسَةَ النَّصِيَّةَ، فَتَتَأَزَّرُ الْعُلُومُ الْمَعْرِفِيَّةُ لِلْوُصُولِ لِلْجَوْهَرِ، فَتُدْرِسُ الظُّوَاهِرَ اللُّغَوِيَّةَ تَرْكِيبِيًّا - نَحْوًا وَمَعْجَمًا وَصَوْتًا-، وَمَعْنَى مِنْ خِلَالِ الْبَحْثِ فِي سِيَاقِ النَّصِّ وَالتَّفَاسِيرِ الْمُخْتَلَفَةِ، فَيَهْبُتُنَا ذَلِكَ كُلُّهُ الْوُصُولُ لِلْجَوْهَرِ الْمُتَمَثِّلِ فِي الْمَعْنَى، وَالْخُصُوصِيَّةِ الَّتِي يَتَفَرَّدُ بِهَا النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ.

وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ نَصٌّ مُكْتَمِلٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ، يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيُؤَدِّي بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، وَمَعَ ذَلِكَ فَكُلُّ سُورَةٍ مِنْهُ هِيَ أَيْضًا نَصٌّ مُكْتَمِلٌ فِي إِطَارِ نَصٍّ أَكْبَرَ، فَالْقُرْآنُ نَصٌّ مُحْكَمٌ بِنِظَامٍ خَاصٍّ، فَهُوَ سِلْسَلَةٌ مِنْ

¹ بحيري، سعيد، دراسات لغوية تطبيقية بين البنية والدلالة، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، 2005، ص93.

² الزُّنَاد، الأَزهَر، نَسِيجُ النَّصِّ؛ بَحْثٌ فِي مَا يَكُونُ بِهِ الْمَلْفُوظُ نَصًّا، الْمَرْكَزُ الثَّقَافِي الْعَرَبِي، بَيْرُوتَ 1993، ص12

النُّصُوصُ تَمَثِّلُ كُلًّا فِي إِطَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَجَذُّ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ مَشْدُودَةٌ مُرْتَبِطَةٌ بِبَعْضِهَا بِبَعْضٍ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا.

وَسُورَةُ طه الَّتِي وَقَعَ اخْتِيَارُنَا عَلَيْهَا لِلتَّطْبِيقِ هِيَ نَصٌّ مُكْتَمَلٌ فِي إِطَارِ نَصِّ أَكْبَرَ هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، فَهِيَ جُزْءٌ مِنْ كُلِّ، فَحِينَ نَدْرُسُ الْجُزْءَ فِي نِظَامِهِ نُدْرِكُ أَنَّ بِنَاءَ بَقِيَّةِ الْأَجْزَاءِ قَائِمٌ ضَمْنِ هَذَا النِّظَامِ وَإِنْ كَانَ لِكُلِّ جُزْءٍ خُصُوصِيَّتُهُ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ.

وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ اعْتَزَمْتُ تَحْلِيلَ سُورَةِ طه وَفَقًا لِعِلْمِ النَّصِّ، وَتَحْلِيلِ النُّصُوصِ وَفَقًا لِهَذَا الْعِلْمِ يَقُومُ مِنْ زَوَايَا مُتَعَدِّدَةٍ اسْتِنَادًا عَلَى مَفَاهِيمَ يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا، وَالتَّمَاثُكُ النَّصِّي أَحَدُ هَذِهِ الْمَفَاهِيمِ الْمُهِّمَةِ، وَقَدْ وَقَعَ اخْتِيَارُنَا عَلَى الدِّرَاسَةِ النَّصِّيَّةِ لِأَنَّ عِلْمَ النَّصِّ مِنَ الْعُلُومِ الْحَدِيثَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى نَظَرَةٍ شُمُولِيَّةٍ جَامِعَةٍ فَهُوَ عِلْمٌ يُعْنَى بِدِرَاسَةِ النَّصِّ لِإثْبَاتِ وَحْدَتِهِ النَّصِّيَّةِ الْمُتَكَامِلَةِ، وَمِنْ خِلَالِهِ يُمَكِّنُ الْوُلُوجَ لِلنَّصِّ مِنْ جَوَانِبٍ كَثِيرَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَالْخَوْضُ فِيهَا خَوْضًا هَادِفًا مَنْظَمًا تُثْبِتُ مِنْ خِلَالِهِ الْوَحْدَةَ النَّصِّيَّةَ الْمُتَكَامِلَةَ لِنَصِّ مَا تَرْكِبًا وَدَلَالَةً، فَهَذَا الْعِلْمُ يَهْبُ الْبَاحِثُ مَسَاحَةً مُتَّسِعَةً لِفَتْحِ الْكَثِيرِ مِنْ أَبْوَابِ عُلُومِ اللُّغَةِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْبَحْثِ فِيهَا، فَفَضَاؤُهُ رَحْبٌ.

أَمَّا اخْتِيَارُ التَّمَاثُكِ النَّصِّي، فَلِأَنَّهُ هُوَ الْمَعْيَارُ الَّذِي يُعْطِي النَّصَّ رُوحَهُ وَاكْتِمَالَهُ وَبِهَاءَهُ، فَالنَّصُّ الَّذِي يَخْلُو مِنَ التَّمَاثُكِ يَفْقَدُ رُوحَهُ وَقُوَّتَهُ بَلْ يَفْقَدُ الْغَايَةَ الَّتِي يُفْتَرَضُ أَنَّهُ وَجَدَ لِأَجْلِهَا! وَلَا يَعْدُو أَكْثَرَ مِنْ كَوْنِهِ كَلِمَاتٍ وَجُمَلٍ غَيْرِ خَاضِعَةٍ لِنِظَامٍ، وَإِنَّمَا هِيَ تَتَابَعٌ خَطِّي فَحَسَبَ، فَالتَّمَاثُكُ النَّصِّي يَدْرُسُ النَّصَّ مِنْ زَوَايَا مُتَعَدِّدَةٍ، شَكْلًا وَمَعْنَى، دَلَالَةً وَتَرْكِبًا، بِمَا يُحَقِّقُ لِلْبَاحِثِ الْخَوْضُ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَيَادِينِ اللُّغَةِ، إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ، مَا يَدْعِمُ اخْتِيَارِي هُوَ أَمَمِيَّةُ هَذَا الْحَقْلِ فِي مَجَالِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ الْحَدِيثِ، فَالدِّرَاسَاتُ النَّصِّيَّةُ مِنَ الدِّرَاسَاتِ الْهَامَّةِ الَّتِي يَعْنَى بِهَا الْبَاحِثُ الْيَوْمَ.

أَمَّا سَبَبُ اخْتِيَارِي لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَمُومًا فَلِأَنَّ الْبَحْثَ الْعِلْمِيَّ يُحَقِّقُ بِدَوْرِهِ تَرْسِيخًا وَتَثْبِيثًا لِلْمُدْرِكِ الْمُحْصَلِ مِنْهُ، فَإِذَا كَانَ الْمُحْصَلُ سَابِقًا فِي وَجُودِهِ فِي ذَاتِ الْإِنْسَانِ قَبْلَ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ لِدَوَاعِ دِينِيَّةٍ نَشَأَتْ مَعَ الْإِنْسَانِ مُنْذُ الْوِلَادَةِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مُقَدَّسٌ وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ الْمَنْزَلِ الْمُتَقَرَّرِ الَّذِي هُوَ أَسْمَى مَرَاتِبِ التَّعْبِيرِ، لَا نَقُولُ هُوَ الشَّكُّ مِنْ دَوَاعِي الْبَحْثِ، وَلَكِنَّهَا الرِّغْبَةُ فِي الْخَوْضِ فِي مُعْتَرِكِ الْبَحْثِ عَنْ جَوْهَرَةِ السَّمَوِّ فِي الْقُرْآنِ عِلْمًا، بَعْدَ اسْتِقْرَارِهِ فِي النَّفْسِ يَقِينًا وَإِيمَانًا، كَمَا أَنَّ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ يُشَكِّلُ نَصًّا لُغَوِيًّا لَهُ تَأْثِيرُهُ الْقَوِيُّ بِمَا يَمْتَلِكُهُ مِنْ جَانِبِ تَوَاصُلِي يَتَجَلَّى فِي نَفُوسِ الْمُتَلَقِّينَ.

كذلك فإنَّ كُتُبَ الحديثِ زاخرةٌ بالمدحِ بمن يتعلَّم القرآنَ ويُعلِّمه، كما أنَّ التدبُّرَ في آياتِ الله يهبُ الإنسانَ ما لا تهبُهُ إياهُ العلومُ مُجتمعةً، والحلاوةُ في لفظِ آيِ القرآنِ تُحرِّضُ الباحثَ على الخوضِ فيه لمعرفةِ وفهمِهِ وتدبرِهِ ولا شكَّ أنَّ الدِّراسةَ العلميَّةَ الدَّقيقةَ كفيلاً بإيصالِ الباحثِ إلى نتائجٍ لا تُوصلها إليه الدِّراسةُ العابرة، كما أنَّ الهدفَ الرئيسَ هو الرِّغبةُ في إبرازِ التماسكِ النصِّي في القرآنِ الكريمِ، بطريقةٍ علميَّةٍ منهجيَّةٍ مُقنعةٍ.

ولكي يدرُسَ الإنسانُ نصًّا فالقبُولُ هو الأساسُ، فلا يُمكنُ أن يدرُسَ الإنسانُ نصًّا لا يقيمُ معه علاقةً، "فلا تتحقَّقَ لحظةُ التفسيرِ إلَّا حين يلتقي تفاعلُ لغةِ النصِّ بتفاعلِ القارئ" ¹ وقد وَجَدْتُ في سورةِ طهٍ ما يُؤثِّرُ في رُوحِيًا ويُسْعِلُ رغبتِي للبحثِ في خصوصيَّةِ هذا النصِّ الَّذي تظهرُ فيه رحمانِيَّةُ الله ورحمتهُ بشكلٍ بارزٍ، فتظهرُ فيه الكثيرُ من المشاهدِ والمواقفِ والألفاظِ الدَّالةِ على هذه الرِّحمةِ، يدعمُ ذلكَ صوتُ الألفِ المُتكرِّرِ في الفاصلةِ القرآنيَّةِ الَّذي يُضفي حالةً من الخشوعِ وحسًّا رُوحِيًّا يتسرَّبُ إلى نفسِ المُتلقي، ما جعلني اختارها دُونَ سواها لُقربها الرُّوحي مَنِّي ولرغبتِي الشَّديدةِ في التوغُّلِ فيها وفهمِها وتحليلِها.

وانطلقتُ في بحثي هذا من سُؤالٍ رئيسيٍّ وهو: كيفَ تحقِّقُ التماسكُ النصِّي بالمستويين الشَّكلي والمعنوي انسجامًا واتِّساقًا في سورةِ طه؟ و ما دورُ المستوى المعنوي في تحقيقِ هذا التماسكِ؟ وما دورُ المستوى الشَّكلي في تحقيقِ هذا التماسكِ من جهةٍ أُخرى؟ وكيفَ تآزرُ المعنى والشَّكلُ في خلقِ نصِّ مُتماسكٍ؟ وللوصولِ للإجابةِ توقَّفتُ عندَ عددٍ من المصطلحاتِ أبرزها مُصطلحُ النصِّ، كما توقَّفتُ عندَ مفهومِ التماسكِ النصِّي في الدِّراساتِ الغربيَّةِ، وقد أُفدْتُ من هذه المفاهيمِ في دراستي لسورةِ طه مُستفيدةً من الدِّراساتِ اللُّغويَّةِ الحديثةِ بما يتناسبُ مع المقامِ، ولدراسةِ التماسكِ النصِّي اتِّساقًا وانسجامًا درستُ مُصطلحي الاتِّساقِ والانسجامِ و الوسائلَ الَّتِي يتحقَّقُ بها التماسكُ في كُلِّ من المُصطلحين.

وتهدفُ هذه الدِّراسةُ إلى نقدِ التعريفاتِ الَّتِي تضعُ معاييرَ للنَّصيَّةِ لا تنطبقُ على كُلِّ النُّصوصِ معَ مُقاربةِ المُصطلحاتِ واختيارِ المُصطلحِ الأشملِ والأدقِّ، كما تهدفُ إلى عرضِ ما توفَّرَ من تعريفاتٍ لـ "التماسكِ النصِّي" اصطلاحًا في علمِ النصِّ، معَ نقدِها واستخلاصِ تعريفٍ للتماسكِ النصِّي، و يدرُسُ التماسكُ النصِّي في شقينِ اثنينِ هما الاتِّساقُ والانسجامُ، وثمةُ خلطٌ كبيرٌ بين هذينِ المُصطلحين في كتبِ

¹ بحيري، سعيد، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، الجيزة، 1997، ص169.

علم النص وفي الأبحاث العلمية التي تدور حول الاتساق والانسجام نتيجة للخطأ في الترجمة، لذا تهدف الدراسة إلى إيضاح هذا الخلط مع محاولة لاختيار المصطلحات من خلال الرجوع إلى المصادر الأساسية والترجمات والمعاجم العربية لتثبيت المصطلحين.

و تكمن أهمية البحث في كونه يدرس نصاً قرآنياً دراسة نصية شاملة، فالدراسة النصية تعني بدراسة التركيب والمعنى، ومن هنا فالبحث يدرس التراكيب نحواً ومعجماً وصوتاً، كما يدرس المعنى من العنوان وحتى دراسة الوحدة المعنوية وتدرج الأحداث وتنتهي بالاختتام، لذلك فما يميز البحث هو شموليته في الدراسة القرآنية.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن أجعله في مقدمة وثلاثة فصول، أما المقدمة فطرح فيها إشكالية البحث، وأهداف الدراسة، وأهمية البحث والمنهج العلمي المستخدم وأهم الصعوبات، وطرح ملخصاً للفصول.

أما الفصل الأول المعنون بـ "التماسك النصي: المصطلح والمفهوم والعناصر" فهو فصل نظري درست فيه مفهوم النص وفقاً للدراسات النصية الحديثة، منطلقاً منه إلى مفهوم التماسك النصي وعرض ما توفر من تعريفات واستخلاص تعريف شامل للتماسك النصي، ودرست الشقين الذين يدرسهما التماسك النصي وهما الانسجام والاتساق والخلط الكبير بينهما في كتب علم النص، كما وأوضح هذا الخلط وانتهيت إلى إرساء المصطلحات بالعودة إلى المصادر الأساسية والترجمات، ووقفنا عند وسائل الانسجام و وسائل الاتساق.

وفي الفصل الثاني المعنون بـ "الاتساق في سورة طه" وهو فصل تطبيقي، فقد حللت فيه نص سورة طه من خلال الوقوف على وسائل الاتساق، وفقاً لمستوياتها الثلاث: الصوتي والمعجمي والتركيب، ودرسنا في المستوى الصوتي التكرار الصوتي، والفاصلة القرآنية بما تفرضه من تقديم أو تأخير واختيار ألفاظ عوضاً عن أخرى، كما وقفنا عند خصائص الفاصلة القرآنية في سورة طه والتي تتمثل في فاصلتين هما الألف المقصورة والياء، وسادت الألف المقصورة في أغلب آيات السورة إلا بعض الآيات التي حملت خصائص أخرى وهي الياء، كما درسنا الجناس وما يحدثه من أثر في اتساق النص.

وفي المستوى المعجمي حللنا المقاطع معجمياً مُنتهين إلى رابط بين المقاطع، وذلك من خلال استخراج حقل دلالي لكل مقطع من خلال البحث في الكلمة المفتاحية والألفاظ الدالة عليها مع دراسة

دلالة الحقل، ثم دراسة العلاقة الرابطة بين هذه الحقول جميعاً في النص وما يؤديه من اتساقٍ معجمي، إضافة لدراسة التضاد والتقابل والتكرار، فدرسنا التكرار التام، والتكرار الناقص، وتكرار التراكيب المتوازنة، كما درسنا الترادف وشبه الترادف، والكلمة الشاملة.

وأما في المستوى التركيبي، فدرسنا التراكيب اللفظية والصيغ التركيبية الخاصة، وترابطها عن طريق وسائل منها الإحالة بنوعها: الإحالة بالضمائر، والإحالة بأسماء الإشارة، ومنها الحذف بأنواعه، حذف الاسم، وحذف الفعل، وحذف الجملة، ومنها الوصل بأنواعه: الوصل السببي، والوصل الاستدراكي، والوصل الإضافي، والوصل الزمني، ومنها الاستبدال بأنواعه: الاستبدال الاسمي، والاستبدال الفعلي، والاستبدال القولي، وما تؤديه كل وسيلة من هذه الوسائل من دورٍ في ربط البنى النصية إذ يبنى هذا التحليل الشكلي استناداً على وسائل الاتساق تبعاً لعلم النص.

أما في الفصل الثالث المعنون بـ "الانسجام في سورة طه" فقد درسنا فيه المقام الذي نزلت فيه السورة، والمقام جزء من السياق و معرفة السياق تؤدي إلى فهم دلالي أدق، فدرست أسباب نزول سورة طه، كما حللنا النص بوسائل الانسجام فدرسنا العنوان بالرجوع إلى كتب التفسير وعلاقة هذا العنوان بالنص باعتباره العتبة الأولى لولوجه، كما درسنا موضوع النص وذلك من خلال الوقوف على البنى الداخلية والبحث عن الرابط بينها للوضوح إلى موضوع النص، و حللنا ترتيب بنى النص وتدرجها في بناء النص وما يلزمه ذلك من تقديم أو تأخير والوقوف على أسباب تقديم بعض الأحداث وتأخير بعضها لما لذلك من دور هام في تكوين الدلالة، فوقفنا عند أسباب تقديم قصة موسى وتأخير قصة آدم، كما حللنا ترتيب بنية داخلية من بنى النص، ووقفنا عند دراسة الانسجام بين عبارات السورة عامة منتهين إلى دراسة العلاقات الواردة في النص في إطار البنية الواحدة، والعلاقات الواردة في إطار البنية الكلية للنص.

وقد تناولت في الخاتمة أهم النتائج التي خلصت إليها من بحثي على المستويين النظري والتطبيقي، من إرساء بعض المصطلحات، وإبراز تحقق التماسك بتأثر المعنى والشكل ليقدّم لنا نصاً يبلغ أوج التماسك النصي، وقد أضفت سورة طه في الملحق، لكي يتسنى رجوع القارئ إلى السورة أولاً بأول في أثناء متابعة الدراسة حين يطالع جزئياتها.

وقد اعتمدت في بحثي على مصادر ومراجع عديدة أثرت البحث وساهمت في تطور التكوين المعرفي لدي في جانب الدراسات النصية والقرآنية أبرزها كتاب لسانيات النص لمحمد خطّابي، وتفسير

في ظلال القرآن، وتفسير التحرير والتأويل، ومن أبرز الدراسات السابقة التي اطلعت عليها دراسة التماسك النصي في نهج البلاغة لعيسى الوداعي.

أما الصعوبات التي واجهتني فهي وعدم وجود ترجمة لكتاب رقية حسن وهالدي "الاتساق في الإنجليزية" وهو من الكتب المهمة في مجال علم النص، مع اللجوء لكتب وسيطة درستة عوضاً عن ذلك، يُضاف إلى ذلك إشكالية المصطلح المرهقة إذ أحدثت الترجمات خلطاً في المصطلحات، مما يسبب ارتباكاً لدى الباحث حتى وصوله إلى المصطلح الأنسب.

كما أنني واجهت ما يواجهه الباحثون في مجال الدراسات القرآنية من ضرورة توخي الحيلة والحذر والدقة خاصة في فصول التحليل والتطبيق، إذ لا بد من العودة إلى التفاسير وعدم الركون إلى التفسير بالرأي، والتنبه إلى الخصائص اللغوية جيداً قبل إصدار حكم أو استخلاص نتيجة.

وأخيراً فإنني وجدت لذة في هذا البحث، وقد خضت غماره بين الكتب باحثاً بما أملكه من أدوات معرفية وإمكانات تحليلية، ساعية إلى إضافة جديد في مجال التطبيق في علم النص الحديث، وأرجو أن أكون قد قدمت شيئاً ذا قيمة، وإن كان من صواب فهو من عند الله وبفضله ومنه وإحسانه، وإن كان من خطأ فمن نفسي، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول

التَّماسكُ النَّصِّيُّ: المَصْطَلَحُ والمَفْهُومُ والعُنَاصِرُ.

توطئة:

تجاوز علم النص حدود "الجملة"، واتّجهت عنايته إلى دراسة "النّص" باعتباره أكبر وحدة لغويّة، واهتمّ بدراسة النصوص دراسةً شاملةً متجاوزًا الدّراسات الجزئية، "وليس محاولة علم النصّ في جوهرها إلاّ السّعي المُستمرّ لضَمّ العمليّات في إطارٍ موحّدٍ بعد أن تبعثرت بين عدّة عُلوم، ركّز كلّ منها على جانبٍ بعينه مُهملاً الجوانب الأخرى"¹ وما يُهمّنا في هذا الفصل هو دراسة المصطلحات الأساسيّة للبحث وما تحمله من مفاهيم، وعليه سنقف عند مفهوم النصّ ومفهوم التماسك النصّي وما يتفرّع عن ذلك من مفهومي الانسجام والاتّساق والاختلاف بينهما في الدّراسات النصّيّة الحديثة باعتبارهما عمودي التماسك النصّي.

¹ بحيري، سعيد، علم لغة النصّ المفاهيم والاتّجاهات، ص169.

المبحث الأول: مفهوم النصّ: (Text)

اشتدّت الحاجة لاتّجاهٍ علميٍّ يدرُسُ النصوصَ من جهاتٍ معرفيّةٍ مختلفةٍ بعد أن ذهبت العلومُ وجهةً تستقلُّ فيها بنفسها عند دراسة أي نصٍّ، ولما كان النصّ الواحدُ يدرسُ دراساتٍ علميّةٍ منفصلةً لاتّجاهاتٍ متعدّدةٍ ظهرت الحاجةُ لعلمٍ شاملٍ يذيبُ هذه الخطوطَ بين المعارفِ والعلومِ المختلفةِ، فظهرَ علمُ النصّ ليسهمَ في تضافرِ العلومِ، فاشتغلَ على بناءِ تحليلٍ تتضافرُ فيه العلومُ مجتمعةً عند دراسة أي نصٍّ، ولما كان النصّ هو المادّة التي يشتغلُ عليها هذا العلمُ وجب أن نقيفَ عند مفهومِ النصّ.

مفهوم النصّ بين اللّغة والاصطلاح:

أولاً: المعاني اللّغويّة للنصّ:

تنطوي مادّة "نصّ" على معنًى أساسيٍّ وهو الارتفاعُ والعلوّ، "النصّ: رفعك الشيء"¹، و "بلغ الشيء نصّه أي منتهاه"² و "نصصتُ ناقتي: إذا رفعتها في السّير (...)" النصّ: أصله منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها"³، و "الماشطة تنصّ العروس فتعدها على المنصة، وهي تنتصّ عليها، أي ترفعها"⁴ وورد في المعجم الوسيط أنّ النصّ "صيغة الكلام الأصلية التي وردت من المؤلّف و النصّ ما لا يحتملُ إلا معنى واحداً، أو لا يحتملُ التأويل، ومنه قولهم: لا اجتهد مع النصّ، وعند الأصوليين الكتاب والسنة، ومن الشيء: منتهاه ومبلغ أقصاه. يقال: بلغ الشيء نصّه. وبلغنا من الأمر نصّه: شدته"⁵. فالنصّ وفقاً لما ورد في المعاجم يحملُ معنًى الرّفعة والاكتمالِ و مِنْ هُنَا فَالنَّصُّ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُكْتَمِلاً وَمَكْتَفِياً بِنَفْسِهِ.

ثانياً: المعاني الاصطلاحية للنصّ:

أمّا اصطلاحاً فقد لقي مفهومُ النصّ Text مثل غيره اختلافاً وتبايناً، منذ ظهوره في النّقافة الغربيّة فاختلّفت زوايا النّظر في تحديده مفهومِ النصّ، ونحن إذ نقفُ عند النصّ اصطلاحاً نقفُ عند ما وقّف عنده النّقاد الغربيّون مع النّقاد العربيّ المحدثين في مُراجعة الاختلافِ الواقعِ حولِ المصطلحِ بِشكْلِ مُبسّطٍ مُنتهينَ إلى دراسةٍ مُبسّطةٍ لما يُقابلُ المصطلحَ في الدّراساتِ العربيّة القديمة.

¹ ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ج6، ص441، مادّة نصص - الأزهرى، محمد بن أحمد معجم تهذيب اللّغة، ط1، تحقيق محمد عوض، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج12، ص82-83 (نصص).

² الزّمخشرى، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل السود، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ج2، ص275، مادّة نصص.

³ الأزهرى، تهذيب اللّغة، ج12، ص82-83 (نصص).

⁴ الزّمخشرى، أساس البلاغة، ص275.

⁵ مجمع اللّغة العربيّة، إبراهيم أنيس، وعبدالحليم منتصر، وعطية الصوالحي، ومحمد خلف الله، المعجم الوسيط، ص926.

اختلفت الاتجاهات في تعريف النص، فنجد من النقاد من نظر إلى النص بوصفه وحدة متكاملة وفي هذا ينقل عفيفي عن هالدي ورقية حسن إلى أن: "كلمة نص Text تستخدم في علم اللغويات لتشير إلى أية فقرة مكتوبة أو منطوقة، مهما كان طولها شريطة أن تكون وحدة متكاملة"¹ وإذا وقفنا عند تعريف هالدي ورقية نجد أنهما جعلتا النص هو الوحدة المتكاملة، ولم يقيدا النص بالكتابة بل جعلاهما يشمل المكتوب والمنطوق، وهذا ما سنتطرق إليه لاحقاً - ، فنجد فكرة الترابط والتماسك والاكتمال حاضرة، وهو الشرط الذي يجعل من النص نصاً.

يؤكد فكرة الاكتمال هذه صلاح فضل حيث يعرف النص بأنه: "القول اللغوي المكثف بذاته، والمكتمل في دلالاته"² كما يؤكد أن "الخاصية الأولى لتحديد النص هي الاكتمال وليس الطول أو الحجم المعين"³ مستشهداً بما قاله "هيلميسليف" من أن أبعاد العلامة لا تمثل منظوراً مناسباً لتخديدها، فكلمة واحدة مثل "نار" يمكن أن تكون علامة، في مقابل عمل روائي ضخم مثلاً، فكل منهما يمكن اعتباره "نصاً"، وذلك بفضل اكتماله واستقلاله بغض النظر عن أبعاده أو مدى طوله⁴.

نجد هذه التعريفات، اتجهت نحو الاكتمال، والاكتمال لا يحده طول أو قصر كما عبر النقاد فالنص يمكن أن يكون جملة صغيرة ويمكن أن يكون رواية، لا ضير ما دام ينصف بالاكتمال، يؤكد ذلك أيضاً أوزوالد ديكر و جان ماري سشايفر حيث يوضحان أنه لا فرق أن يكون المقصود متتالية من الجمل، أو جملة وحيدة، أو جزءاً من الجملة⁵ يستشهدان في ذلك بقول بليت بأن "النص ليس بنية مقطعية ملازمة ولكنه وحدة وظيفية تنتمي إلى نظام تواصلية"⁶.

ويعارض هذه التعريفات ما نقله جينوت عن بيتوفي في تعريفه للنص بأنه "وحدة لغوية مكونة من أكثر من جملة"⁷ فقد اشترط أن يتجاوز النص الجملة الواحدة، وقد اختلف تماماً مع ما ذهب إليه هيلميسليف وبقية النقاد في أن النص يمكن أن يكون كلمة، و إذ تفحصت الاتجاهين وجدنا أن الأرجح هو ما ذهب إليه هيلميسليف في أن النص غير محدد باشتراطات الطول والقصر، فالنص يمكن أن يكون وحدة لغوية مكتملة سواء كان جملة واحدة أو أكثر، فاشتراط وجود أكثر من جملة غير مقبول.

¹ عفيفي، أحمد ، نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة الزهراء، القاهرة 2001 ، ص22

² فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، ط1، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1994، ص232.

³ المصدر السابق، ص232.

⁴ المصدر السابق، ص232.

⁵ ديكر، أوزوالد و سشايفر، جان ماري، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ط1، ترجمة: منذر عياشي، جامعة

البحرين، البحرين 2003، ص 822.

⁶ المصدر السابق، ص 822

⁷ الشاوش، محمد ، أصول تحليل الخطاب، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، 2001، ج1، ص83.

فيما اتَّجَهَتْ تَعْرِيفَاتُ أُخْرَى لِلنَّصِّ نَحْوَ مَفْهُومِ التَّرَابُطِ، فَيُعَرِّفُهُ هَارْفَجُ بِأَنَّهُ "ترابط مستمر للاستبدالات التي تظهر الترابط النحوي في النص"¹، ويعرِّفه الأزهر الزنَاد بِأَنَّهُ "نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض، هذه الخيوط تَجْمَعُ عناصره المختلفة والمتباعدة في كلِّ واحدٍ وهو ما نطلق عليه مصطلح نص"² وَنَجْدُ وَضُوحَ مَفْهُومِ التَّرَابُطِ فِي كِلَا التَّعْرِيفَيْنِ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا التَّرَابُطَ غَيْرَ مُحَدَّدٍ إِنْ كَانَ عَلَى مُسْتَوَى الْمَعْنَى أَوْ عَلَى مُسْتَوَى الشَّكْلِ، وَإِنْ كَانَ هَارْفَجُ أَشَارَ لِلْمُسْتَوَى الشَّكْلِيِّ مِنْ خِلَالِ قَوْلِهِ: "الترابط النحوي"، لَكِنْ مَعَالِمُ هَذَا التَّرَابُطِ لَا تَظْهَرُ بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ وَالْوُضُوحِ.

ويبدو التَّرَابُطُ أَشَدَّ وَضُوحًا عِنْدَ جَمِيلِ عَبْدِ الْمَجِيدِ حَيْثُ يَرَى أَنَّ النَّصَّ "يقتضي من الإجراءات ما يكون به "ظاهر النص" Surface text مبنياً بعضه على بعض نحويًا، وما يكون به "عالم النص Textual world" مبنياً بعضه على بعض دلاليًا"³

وَيُعَبِّرُ سَعِيدُ بَحِيرِي عَنْ ذَلِكَ بِمَا هُوَ أَكْثَرُ تَفْصِيلًا وَبِتَعْرِيفٍ شَامِلٍ لِلنَّصِّ، حَيْثُ يَعْرِفُهُ بِأَنَّهُ "وحدة كبرى شاملة لا تضمها وحدة أكبر منها، وهذه الوحدة الكبرى تتشكّل من أجزاء مختلفة تقع من النّاحية النّحوية على مستوى أفقي ومن النّاحية الدلالية على مستوى رأسي، ويتكوّن المستوى الأول من وحدات نصيّة صغرى تربط بينها علاقات نحويّة، ويتكوّن المستوى الثاني من تصوّرات كلّية تربط بينها علاقات التماسك الدلالية المنطقية"⁴، فَنَجِدُهُ يَتَحَدَّثُ عَنِ النَّصِّ بِوَصْفِهِ وَخِذَةً كُبْرَى قَائِمَةً عَلَى عِلَاقَاتٍ مُتَمَاسِكَةٍ نَحْوِيًّا وَدَلَالِيًّا وَإِنْ كَانَ قَدْ أَلْصَقَ صِفَةَ التَّمَاثُلِ بِالدَّلَالَةِ دُونَ النُّحُو، وَلَكِنَّهُ أَكَّدَ عَلَى صِفَةِ التَّرَابُطِ بَيْنَ النُّحُو وَالدَّلَالَةِ فِي تَعْرِيفِهِ.

إِضَافَةً لِهَذَيْنِ الْإِتْجَاهَيْنِ، نَجِدُ اتِّجَاهًا آخَرَ اقْتَصَرَ عَلَى النّاحِيَةِ الشَّكْلِيَّةِ، مِنْهَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ هَالِيدِي وَرُقِيَّةُ حَسَنَ فَعِنْدَهُمْ "تشكل كلُّ متتالية من الجُمْلِ نصًّا شريطة أن تكون بين هذه الجُمْلِ علاقات، أو على الأصح بين بعض عناصر هذه الجُمْلِ علاقات، تتم هذه العلاقات بين عنصر وآخر وارد في جملة سابقة أو جملة لاحقة، أو بين عنصر وبين متتالية برمتها سابقة أو لاحقة".

وَمِنْهُ أَيْضًا تَعْرِيفُ فَرَانْسُو رَاسْتِي فَقَدْ عَرَّفَ النَّصَّ بِأَنَّهُ "كلمة text من أصل لاتيني textus وتعني النسيج أي نسيج من العلاقات اللغوية المركبة التي تتجاوز حدود الجملة"⁵ فَهُوَ لَمْ يَتَطَرَّقْ

¹ بحيري، سعيد، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، الجيزة، 1997، ص108.

² الزنَاد، الأزهر، نسيج النص، ط1، المركز الثقافي العربي، لبنان، 1993، ص12.

³ مجلة عالم الفكر، العدد2، المجلد 32، أكتوبر - ديسمبر، الكويت، 2003، ص145.

⁴ بحيري، سعيد، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص119.

⁵ رَاسْتِي، فَرَانْسُو، فنون النص وعلومه، ترجمة ادريس الخطّاب، ط1 دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2010، ص32، يُنْتَظَرُ

في هامش الصفحة.

لِلْمَضْمُونِ، وَاقْتَصَرَ حُدُودَ النَّصِّ عَلَى التَّرَاكِبِ اللُّغَوِيَّةِ الشَّكْلِيَّةِ، وَكَذَلِكَ تَعْرِيفُ كُلِّ مِنْ هَارْتَمَان وَ سْتُورِك حَيْثُ عَرَّفَا النَّصَّ بِأَنَّهُ "مُتتَالِيَةٌ مِنَ الْكَلِمَاتِ تَكُونُ مَلْفُوظًا مَنْجَزًا"¹.

وَمِثْلُهُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ تِزْمَانُ مِنْ أَنَّ النَّصَّ يُطْلَقُ عَلَى "مَلْفُوظَاتٍ شَدِيدَةِ التَّنَوُّعِ مُسْتَعْمَلَةٍ فِي مَقَامَاتٍ شَدِيدَةِ التَّنَوُّعِ هِيَ أَيْضًا وَيُمْكِنُ أَنْ تَصْدُرَ عَنْ مُتَكَلِّمٍ وَاحِدٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ مُتَكَلِّمٍ"² وَهُنَاكَ اتِّجَاهَاتٌ وَضَعَتْ اشْتِرَاطَاتٍ وَمُقَوِّمَاتٍ تَفَرِّقُ بَيْنَ النَّصِّ وَاللَّا نَصِّ، مِنْهَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ دِرَايسِلر³ فَهُوَ ذَاتَهُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ دِي بُوْجِرَانْدُ الَّذِي يَقْتَرِحُ مَعَايِيرَ يَفَرِّقُ بَيْنَ النَّصِّ وَاللَّا نَصِّ فِيَقُولُ: "وَأَنَا أَقْتَرِحُ الْمَعَايِيرَ التَّالِيَةَ لِجَعْلِ النَّصِّيَّةِ TEXTUALITY أَسَاسًا مَشْرُوعًا لِإِيجَادِ النُّصُوصِ وَاسْتِعْمَالِهَا"⁴

1. السَّبْكُ COHESION

2. الْإِلْتِحَامُ COHERENCE

3. الْقَصْدُ INTENTIONALITY

4. الْقَبُولُ ACCEPTABILITY

5. رِعَايَةُ الْمَوْقِفِ AITUATIONALITY

6. التَّنَاصُ INTERTEXTUALITY

7. الْإِعْلَامِيَّةُ INFORMATIVIT⁵

وَأَنَا أَخِيرًا إِذْ أَفَاضِلُ بَيْنَ التَّعْرِيفَاتِ السَّابِقَةِ لِلنَّصِّ، أَجِدُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا قَدْ ذَهَبَ مَذْهَبًا وَاتَّجَعَتْ اتِّجَاهًا، غَيْرَ أَنَّنِي يُمَكِّنُ أَنْ أُسْتَخْلَصَ تَعْرِيفًا أَوَائِمُ فِيهِ بَيْنَ مَا ذُكِرَ وَيَكُونُ جَامِعًا، فَحَتَّى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ دِرَايسِر وَدِيْبُوْجِرَانْدُ مِنْ اشْتِرَاطَاتٍ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ رُبَّمَا لَا تَتَّفِقُ مَعَ كُلِّ نَصٍّ فَقَدْ تَسْقُطُ إِخْدَى هَذِهِ الْاِشْتِرَاطَاتِ مِنْ بَعْضِ النُّصُوصِ، وَيَذْكُرُ الشَّوْشُ فِي مِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ "أَنْتَ لَا تَكَادُ تَظْفِرُ بِمَا يَعْتَمِدُ عَلَى صِيَاجَةِ النَّصِّ إِلَّا فِي الشَّرْطِ الْأَوَّلِ الْمَتَمَثِّلِ فِي التَّرَابُطِ وَالِاتِّسَاقِ، وَقَدْ اتَّخَذَ هَالِيدَايَ وَحَسَنُ مِنْ هَذَا الشَّرْطِ مَدْخَلًا لِمَا حَدَّثَا بِهِ عَنِ النَّصِّ"⁶

¹ الشَّوْشُ، مُحَمَّدٌ، أَصُولُ تَحْلِيلِ الْخَطَابِ، ص 82.

² الشَّوْشُ، مُحَمَّدٌ، أَصُولُ تَحْلِيلِ الْخَطَابِ، ص 83.

³ نَفْسُهُ، 105

⁴ دِيْبُوْجِرَانْدُ، رُوبِرْتُ، النَّصُّ وَالْخَطَابُ وَالْإِجْرَاءُ، ط 1، تَرْجُمَةُ تَمَّامِ حَسَّانَ، عَالَمُ الْكُتُبِ، الْقَاهِرَةُ، 1998، ص 103.

⁵ دِيْبُوْجِرَانْدُ، النَّصُّ وَالْخَطَابُ وَالْإِجْرَاءُ، ص 103-105

⁶ أَصُولُ تَحْلِيلِ الْخَطَابِ، 106

أما أنا في دراستي فأجدُ أَنَّ الاتِّساقَ وَخِذَهُ لَيْسَ كافِياً، فَالشَّكْلُ وَخِذَهُ لَا يَخْلُقُ نَصًّا، وَأَضِيفُ الشَّرْطُ الْآخَرُ وَهُوَ الانْسِجَامُ، إِذْ لَا جَدْوَى مِنْ نَصٍّ مُتَّسِقٍ -مُتْرَابِطٍ شَكْلِيًّا- إِذَا كَانَتْ الْمَعَانِي فِيهِ غَيْرَ مُنْسَجِمَةٍ، أَوْ إِذَا انْعَدَمَ الْمَعْنَى فِيهِ، فَيُمْكِنُنِي الْقَوْلُ إِنَّ أَهَمَّ شَرْطَيْنِ فِي النَّصِّ هُمَا الاتِّساقُ وَالانسِجَامُ، وَإِذَا انْتَقَى وَجُودُهُمَا انْتَقَتِ النَّصِّيَّةُ، وَإِذَا تَحَقَّقَ وَجُودُهُمَا تَحَقَّقَتِ النَّصِّيَّةُ، وَفِي مِثْلِ هَذَا يُعَبَّرُ سَعِيدٌ بِحِيرِي فِي تَعْرِيفِهِ لِلنَّصِّ بِأَنَّهُ "بُنْيَةُ مُرَكَّبَةٌ مَتَمَاسِكَةٌ ذَاتُ وَحْدَةٍ كُلِّيَّةٍ شَامِلَةٍ، يَسْتَلْزِمُ وَصْفُهَا تَعَقُّبَ تِلْكَ الْعِلَاقَاتِ الْمَمْتَدَّةِ أَفْقِيًّا، وَالْبَحْثُ عَنْ وَسَائِلِ الرِّبْطِ النَحْوِيِّ بَيْنَهُمَا وَتَتَابُعِ الْقَضَايَا وَالْمَعْلُومَاتِ دَاخِلَ النَّصِّ، وَالتَّمَاشُكِ الدَّلَالِيِّ وَوَسَائِلِهِ، وَإِمْكَانَاتِ الرِّبْطِ الدَّاخِلِيِّ بَيْنِ الْأَجْزَاءِ الصُّغْرَى وَتَحْدِيدِ الْمَدَى الَّذِي يَحْتَاجُهُ النَّصُّ مِنَ الْعُنَاصِرِ غَيْرِ اللُّغَوِيَّةِ لَتَحَقِّقَ لَهُ الْوَحْدَةَ وَالانسِجَامَ وَالاستِمْرَارَ"¹

وَمِنْ هُنَا أَسْتَخْلِصُ أَنَّ النَّصَّ هُوَ الْوَحْدَةُ الْكُلِّيَّةُ الَّتِي يُحَقِّقُهَا التَّرَابُطُ الدَّلَالِيُّ -الانسِجَام- بَيْنَ الْمَعَانِي وَالتَّرَابُطُ الشَّكْلِيُّ -الاتِّساق- بَيْنَ الْأَلْفَاظِ سَوَاءً فِي جُمْلَةٍ أَوْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْجُمَلِ، أَوْ بِصِغَةٍ أُخْرَى هُوَ كُلُّ وَحْدَةٍ دَلَالِيَّةٍ -تَتَّصِلُ مَعَانِيهَا وَتَنْسَجِمُ- مُتْرَابِطَةٌ شَكْلِيًّا جُمْلَةً كَانَتْ أَوْ مَجْمُوعَةً مِنَ الْجُمَلِ، وَعَلَيْهِ فَكُلُّ نَصٍّ يَتِمُّو وَيَنْشَأُ فِي ظِلِّ عِلَاقَاتٍ قَائِمَةٍ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ وَجُمْلِهِ، عِلَاقَاتٍ شَكْلِيَّةٍ وَدَلَالِيَّةٍ مُشْكَلًا "وحدة دلالية، وليست الجمل إلا الوسيلة التي يتحقق بها النص"² فَخُذْ إِذَا أَمَامَ أَمْرَيْنِ هَامَيْنِ هُمَا: الدَّلَالَةُ وَالشَّكْلُ.

- النَّصُّ وَالْخِطَابُ:

ثَمَّةُ تَدَاخُلٍ بَيْنَ مُصْطَلَحِي النَّصِّ وَالْخِطَابِ، وَثَمَّةُ اخْتِلَافٍ كَبِيرٍ بَيْنَ النُّقَادِ حَوْلَهُمَا وَقَدْ أَسْهَمَتْ كُتُبٌ كَثِيرَةٌ فِي ذِكْرِ هَذَا الْخِلَافِ وَتَفْصِيلِهِ، غَيْرَ أَنَّنِي أَتَبَنَّى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ رُولَان بَارْت فِي نَظَرْتِهِ لِلْفَرْقِ بَيْنَ الْخِطَابِ وَالنَّصِّ بِشَكْلِ مُقْتَضِبٍ وَبِالْقَدْرِ الَّذِي يَغْنِينِي فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ، فَقَدْ عَرَفَ النَّصَّ بِأَنَّهُ "كُلُّ خِطَابٍ تَشَبَهَ الْكِتَابَةُ"³ وَيُوضِحُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ "تَبَعًا لِهَذَا التَّعْرِيفِ يَكُونُ التَّثْبِيتُ بِالْكِتَابَةِ مُؤَسَّسًا لِلنَّصِّ نَفْسِهِ"⁴ فَإِنَّ مَا يُحَوِّلُ الْخِطَابَ إِلَى نَصٍّ هُوَ الْكِتَابَةُ، وَعَلَيْهِ فِدِرَاسَتُنَا هِيَ دِرَاسَةٌ تَعْنَى بِالنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ، وَالنَّصُّ الْقُرْآنِيُّ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ كِلَا الْمُصْطَلَحَيْنِ _ النَّصِّ وَالْخِطَابِ _ ، فَالْقُرْآنُ نَصٌّ وَخِطَابٌ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، فَلَا يَنْفَكُ أَنْ يَكُونَ خِطَابًا أَوْ نَصًّا، فَالْقُرْآنُ خِطَابٌ دَائِمٌ وَمُتَجَدِّدٌ تَتَجَلَّى صِفَةُ الْخِطَابِ فِيهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ الْكِتَابُ السَّمَائِيُّ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ كَافَّةً فَهُوَ خِطَابٌ إِذْ نُقِلَ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

¹ بحيري، سعيد، دراسات لغوية تطبيقية بين البنية والدلالة، ص94.

² محمد خطابي، لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991، ص13.

³ ريكور، بول، من النص إلى الفعل، ط1، ترجمة محمد بريدة و حسان بورقية، عين للدراسات والبحوث الانسانية

والاجتماعية، 2001 ص105.

⁴ المصدر السابق، ص105.

وآله سلم- وخطاب حين كان شفاهياً يُحفظ في الصدور، وهو خطاب متجدد عام، للمسلم وغيره، فهو خطاب لكل إنسان يتلقاه، فهو غير مختص بفترة محددة وقوم محددين، وهو الكتاب الأوحد للبشرية عامة، يستمع إليه الناس، وفي ذلك يقول محمد إقبال أكثر نصيحة أثرت في حياتي هي نصيحة أبي، كنت أقرأ القرآن في عَجالة، فأخذ بيدي، وقال لي: يا بني: اقرأ القرآن وكأنه ينزل عليك¹، ولذا فالقرآن خطاب من الله لكل إنسان.²

وهو أيضاً نص إذ ثبت في السطور، "فقد نزل من السماء منطوقاً على لسان ملك كريم، وتلقاه الرسول سماعاً، وبلغه للناس شفاهاً، إذ لم يكن مدوناً في بداية الدعوة الإسلامية، ثم دُون بعد ذلك، وصار الناس يتلقونه قراءة وسماعاً، فاكتمت صفتي النصية والخطابية عند علماء العربية المتقدمين منهم والمتأخرين"³

ثانياً: مفهوم التماسك النصي:

لا يخفى أن في معنى التماسك معنى الترابط، ورد في لسان العرب أنه يُقال: "بادن متماسك، أراد أنه مع بدائنه متماسك اللحم ليس بمسترخيه ولا مُنفصجه، أي أنه معتدل الخلق كأن أعضائه يُمسك بعضها بعضاً"⁴ يراد به ترابط بعضها ببعض، فتكون مشدودة لبعضها ومتينة بترابطها "والتمسك: استمسائك بالشيء. تقول مسكت به وتمسكت به واستمسكت به"⁵ وكأن المراد به شدة الترابط، ومن خلال وقوفنا على معاني التماسك لغة نجد أن التماسك قد جاء بمعنى الترابط والتعلق، وعليه فالتماسك في أي شيء هو ترابط أجزائه وتعلقها ببعضها ببعض لتكون كلاً واحداً.

وقد فرق العلماء بين مصطلحات تدل على التماسك الشكلي كالاتساق والتماسك، ومصطلحات تدل على التماسك الدلالي كالانسجام والحبك⁶ غير أن هذه المصطلحات ما زالت مشتتة وغيروا وضحة إذ فيها اختلاف كبير بين العلماء والمسميات من مختلف مصادر علم النص الحديث، ولم نجد تعريفاً واضحاً للتماسك النصي في الدراسات النصية الحديثة، إذ نجد أن جملة من عرّف التماسك عرّفه وفق ترجمته

¹ al-watan.com/Writer/id/11097.

² تكوّنت هذه المعرفة في الفروقات بين النص والخطاب، من نقاشات مع أستاذي المشرف د. أحمد ويس.

³ الجنابي، سيروان، و مزعل، خالد، القرآن بين مصطلحي النص والخطاب، "قراءة في ضوء التراث والدرس الحديث"، جامعة الكوفة كلية الآداب، ص226.

⁴ ابن منظور، لسان العرب، ص4204.

⁵ الأزهري، تهذيب اللغة، ج10، ص52 مادة مسك.

⁶ بشرى حمدي ووسن عبد الغني، في مفهوم النص ومعايير نصية القرآن الكريم دراسة نظرية، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، الموصل، المجلد 11، العدد 1، 184.

"COHESION" والتي تعني التماسك الشكلي، فعُرف التماسك اصطلاحاً عند كثير من النقاد وفقاً لهذه الرؤية، لذا فقد اتجه النقاد إلى غير ما اتجه إليه بحثنا هذا - إلا في النزر القليل - من استخلاصي إلى أن ما يُقابل COHESION في العربية هو التماسك الشكلي وما يُرادفه، لا بمعنى التماسك النصي بعمومه.

إن ما يسوغ اختيارنا هو عدة أسباب، أولها أن كتاب COHESION IN ENGLISH لهاليداي ورقية حسن، يدور حول التماسك الشكلي، ما يؤكد ذلك فصول الكتاب الثمانية، إذ يدور الفصل الأول على مفاهيم أساسية أما الفصول التي تليه فتعنوانها مرتبة كالتالي (الإحالة، الاستبدال، الحذف، الوصل، الاتساق المعجمي، معنى الاتساق، تحليل الاتساق)¹ وكما هو واضح فإن هذه العناوين إنما تتطوي حول معنى التماسك الشكلي، وثانياً فإن كل من عد التماسك هو COHESION يعود ليعيد المصطلح نفسه في باب التماسك الشكلي.

ويؤكد هذه الفكرة ديوجراندي الذي يجد أن COHESION هي تعبير عن الترابط الرصفي² و COHERENCE تعبير عن الترابط المفهومي³، إذاً يمكننا أن ننهي الخلط في المصطلحات في كتب علم النص بمصطلحين ثابتين هما:

COHESION = الاتساق

COHERENCE = الانسجام

وهما معاً يشكلان التماسك النصي، وقد أشرنا سابقاً أن نزرًا يسيراً من الدارسين قد عرفوا التماسك النصي وفقاً لهذه الرؤية التي اخترناها ومنهم أحمد عفيفي الذي عرفه بأنه: "وجود علاقة بين أجزاء النص أو جمل النص أو فقراته، لفظية أو معنوية، وكلاهما يؤدي دوراً تفسيريًا، لأن هذه العلاقة مفيدة في تفسير النص"⁴ فيركز عفيفي على وجود علاقة تربط أجزاء النص، ويشير للعلاقات بنوعيتها اللفظية والمعنوية.

أما عيسى الوداعي فيعرف التماسك النصي بأنه: "تعلق وحدات النص بعضها ببعض، بواسطة علاقات أو أدوات شكلية و دلالية، تسهم في الربط بين عناصر النص الداخلية، وبين النص والبيئة

¹ شريفة، بلحوت، الإحالة دراسة نظرية مع ترجمة الفصلين الأول والثاني من كتاب Cohesion in English، هاليداي ورقية حسن، الجزائر، 2005، ص 64-68، قبل الترجمة وجد تعريف بمؤلفي الكتاب ومقدمة لما يحتوي وأبرز ما تضمنته فصوله، كما أن ترجمة الكتاب أيضاً في الصفحات من ص 55، وحتى ص 219 تظهر أقسام الكتاب التي تحوي جميعها الجانب الشكلي للتماسك.

² النص والخطاب والإجراء، ص 103.

³ المصدر السابق، ص 103.

⁴ نحو النص، ص 98.

المحيطة من ناحية أخرى، لتكوّن في النهاية رسالة يتلقاها متلقٍ يفهمها ويتفاعل معها سلبًا أو إيجابًا¹ وَقَدْ شَمَلَ تَعْرِيفُهُ التَّرَابُطَ الشَّكْلِيَّ وَالْمَعْنَوِيَّ، وَالسَّبَاقَ، مَعَ وَعْيٍ تَامٍّ بِأَهْمِيَّةِ الْمُرْسِلِ وَالْمُتَلَقِّيِّ، مُؤَكِّدًا عَلَى كُلِّ عَوَامِلِ التَّوَاصُلِ عِنْدَ جَاكَبْسُون، أَمَّا صُنْجِي إِبراهيمُ الْفَقِي فَيَنْقُلُ عَنْ دِيْفِيدِ كَارْتِيرِ تَعْرِيفَهُ لِلتَّمَاسُكِ النَّصِّيِّ بِأَنَّهُ "العلاقات أو الأدوات الشكلية والدلالية التي تسهم في الربط بين عناصر النص الداخلية، وبين النص والبيئة المحيطة من ناحية أخرى، ومن بين هذه الأدوات المرجعية"²

وَمِنْ هَذَا كُلِّهِ نَسْتَخْلِصُ تَعْرِيفًا لِلتَّمَاسُكِ النَّصِّيِّ نَبِّئِهِ عَلَى تَعْرِيفِنَا السَّابِقِ لِلنَّصِّ حَيْثُ عَرَّفْنَاهُ بِأَنَّهُ "كُلُّ وَحْدَةٍ دَلَالِيَّةٍ مُتَرَابِطَةٍ شَكْلِيًّا جُمْلَةً كَانَتْ أَوْ مَجْمُوعَةً مِنَ الْجُمْلِ"³ ، فَتُعَرَّفُ التَّمَاسُكِ النَّصِّيُّ بِأَنَّهُ : الكيفية التي تترابط بها أجزاء النص شكليًا ودلاليًا وتعلقها بعضها ببعض لتكوين الوحدة النصية، وبعبارة أخرى هو تضافر الترابط الشكلي والدلالي في النصوص لتشكيل وحدة نصية، وَنُكْنِئُهَا تَبْسِيطُهُ بِنَحْوِ آخَرٍ بِأَنَّهُ: تضافر اتساق النصوص وانسجامها، في تحقيق وحدة نصية، وعليه فإننا أمامَ مُصْطَلَحَيْنِ هَامَيْنِ هُمَا الانسجام والاتساق، ذلك أن "دراسة اتساق النص وانسجامه ، تشكل موضوع اللسانيات النصية التي تدرس الكيفية التي بمقتضاها تشكل سلسلة من الجمل وحدة نصًا، و بوجه عام، يعتقد بأن الاتساق ينتج عن تسلسل الجمل وخطية النص linarite، في حين أن الانسجام يعتمد على الاتساق، غير أنه يقحم قيوداً عامة غير خطية، مرتبطة خاصة بالسياق ونوع الخطاب"⁴ وَمِنْ هُنَا سَنُفَصِّلُ فِي شَرْحِ كُلِّ مِنْهُمَا لِلْوُقُوفِ عَلَى مَفْهُومِهِ وَوَسَائِلِهِ.

¹ الوداعي، عيسى، التماسك النصي في نهج البلاغة، ط1 المركز العلمي للرسائل والأطاريح، 2015 ص38.

² الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، ط1، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 2000، ج1، ص96، نقلًا عن ديفيد كارتير الذي يجد أن النص هو الذي توجد فيه أدوات التماسك بينما الذي يخلو من هذه الأدوات يكون لا نص. * Is not a text.

³ انظر، ص21 من هذه الرسالة.

⁴ مانغوينو، دومينيك المصطلحات المفتاح لتحليل الخطاب، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ص18.

أولاً: الاتساق: (COHESION)

وَقَعَ اخْتِلَافٌ كَبِيرٌ بَيْنَ الْبَاحِثِينَ فِي تَرْجَمَةِ COHESION فَتُرْجِمَتْ لِكَثِيرٍ مِنَ التَّرْجَمَاتِ نَذْكُرُهَا كَمَا وَرَدَتْ فِي كُتُبِهِمْ عَلَى اخْتِلَافِهَا:

الاتساق،¹ التماسك،² الترابط،³ الربط النصي،⁴ السبك،⁵ ومنهم من زوّج بين السبك والربط⁶ وجزّاء الاختلاف في ترجمة المصطلح نتج الاختلاف في التعريف وفقاً لتعدد الرؤى، أمّا أنا فأرجح مصطلح الاتساق، لأنّ معناه يدور لغة حول الضمّ والجمع والانتظام والاجتماع والاستواء، فقد ورد في لسان العرب: "وما وسق أي وما جمع وضمّ. واتساق القمر: امتلاؤه واجتماعه، (...) واستوسقت الإبل: اجتمعت، ووسق الإبل: طردها وجمعها وما انضم، فقد اتسق، والطيف يأتسق ويتسق أي ينضم (...) والوسق ضم الشيء إلى الشيء (...) والاتساق الانتظام"⁷، ورد في المعجم الوسيط وسق الشيء ضمه وجمعه، واتسق الشيء: اجتمع وانضم وانتظم⁸، فنجد المعاني لا تخرج عن معنى الجمع والانتظام.

أمّا اصطلاحاً، فقد وقع الاختلاف وفقاً لاختلاف الترجمة والرؤية، ووجدنا أنّ تخصيص الاتساق بالشكل هو أرجح المذاهب، وممن ذهب هذا المذهب ديوجراند الذي عرّف الاتساق بأنّه ما "يترتب على إجراءات تبدو بها العناصر السطحية SUREFACE على صورة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق - Pro- gressive occurrence بحيث يتحقق لها الترابط الرصفي"⁹ فنجد أنّ ديوجراند يؤكّد على أنّ

¹ الخطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ص16، الشاوش، أصول تحليل الخطاب ص124، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ص151، الصبيحي، محمد الأخضر، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ب.ط. الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ص81.

² الزنّاد، الأزهر، نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصاً ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993، ص15، الفقي، صبحي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، ج1، ص93.

³ خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات ص192.

⁴ بحيري، سعيد، علم لغة النص الاتجاهات والمفاهيم، ص152.

⁵ النص والخطاب والإجراء ص103.

⁶ عفيفي، أحمد، نحو النص ص75.

⁷ ابن منظور، لسان العرب، ص4837.

⁸ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص1032.

⁹ النص والخطاب والإجراء، ص103

الاتساق هُو التَّرابُطُ الرَّصْفِيُّ المتعلّق بالخارج، أي بالشَّكلِ الخارجيّ للجُملة، فالألْفاظُ وانتِظامُها وعلاقتها
وما تُؤدِّيهِ مِنْ تَماسُكِ بَيْنَ مُكوِّناتِ الشَّكلِ الخارجيّ للنَّصِّ.

يُؤيِّد ذلكَ تَعرِيفُ مُحَمَّدٍ خُطابي فَقَدْ عَرَّفَ الاتِّساقَ بِأنَّهُ "التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة
لنص/خطاب ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية (الشكلية) التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من خطاب
أو خطاب برمته"¹ وَيَرى دومينيك مانغونو أنَّ "المقصود بتحليل اتساق النص هو الإحاطة به من حيث
هو تسلسل ونسيج، تسعى الظواهر اللغوية المتنوعة فيه إلى تنامي النص وتناسله وتضمن له استمراره
بواسطة التكرارات"² فنَجِدُ هذه التَّعريفات تُؤكِّد على الجانِبِ الخارجِ السَّطحيِّ الشَّكليِّ للنَّصِّ.

¹ لسانيات النَّصِّ ، ص5.

² المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص19.

وسائل الاتساق:

ينقل محمد خطّابي عن هاليداي ورقية حسن أنّ وسائل الاتساق خمسة هي: "الإحالة و الاستبدال، و الحذف ، و الوصل ، والاتساق المعجمي"¹ في حين يرى ديبوجراند أنّ الترابط الرّصفيّ كما يُسمّى يتحقّق بوجود وسائل هي وسائل التضامّ تشتمل على هيئة نحوية للمركبات والتراكيب والجمال وعلى أمور مثل التكرار والألفاظ الكنائية والأدوات والإحالة المشتركة والحذف والروابط² ، ونقسّم هذه المظاهر إلى مستويين:

أولاً: الاتساق المعجمي (Lexical Cohesion):

يدرس المستوى المعجمي علاقة الألفاظ كما وردت في المعجم فنجد أنّ "عماد الاتساق المعجمي المعجم وما يقوم بين وحداته من علاقات"³، وما تُسهم به العلاقات بين الألفاظ على صعيد المستوى المعجمي في اتساق النصّ، فقد تردّ في النصّ ألفاظاً في بعض أجزائه تلتقي مع ألفاظ أخرى في أجزاء أخرى منه تربط بينها علاقة، هذه العلاقة تُسهم في تشكيل اتساق بين أجزاء النصّ من خلال الربط بين وحداته النصية، ويتم ذلك من خلال نوعين من العلاقات:

أ. التكرار (Reiteration)⁴.

ب. المصاحبة المعجمية⁵ أو التضام⁶ أو الجمع⁷ (Collocation).

أولاً: التكرار (Reiteration):

¹ لسانيات النص، ص16-25.

² النص والخطاب والاجراء، ص103

³ الشاوش، محمد، أصول تحليل الخطاب، ص138.

⁴ خطابي، لسانيات النص، ص24.

⁵ ترجم عدد من الباحثين مصطلح Collocation إلى المصاحبة المعجمية أنظر الوداعي، التماسك النصي في نهج البلاغة،

ص66.

⁶ ترجم عدد من الباحثين مصطلح Collocation إلى التضام، أنظر خطابي، لسانيات النص، ص24.

⁷ الشاوش، محمد، أصول تحليل الخطاب، ص142.

وردَ التَّكَرُّارُ في اللُّغة بمعانٍ عِدَّةٍ تحمِلُ دلالةً مُختلفة أبرزها الإعادة والرُّجوع والبعث وتجديد الخلق والتَّرديد، فقد ورد عند ابن منظور: "الكُرُّ الرُّجوعُ ... وكُرِّرْتُ عَلَيْهِ الحديثَ رَدَّدْتُهُ عَلَيْهِ، والكُرُّ: الرُّجوعُ على الشَّيْءِ ومنهُ التَّكرار، والكُرَّةُ: النُّبْثُ وَتَجْدِيدُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْفَنَاءِ ... والكُرَّةُ صوتٌ يُرَدُّهُ الْإِنْسَانُ فِي جَوْفِهِ"¹ وورد في المعجم الوسيط "وكرر الليل والنهار: عاداً مرّة بعد أخرى. و -على العدو: حمل. و -عنه: رجع. و -عليه الحديث: أعاده"².

وأما اصطلاحاً فقد عدّه الزُّركشي وسيلةً من وسائلِ الفصاحة "لا سيما إذا تعلّق ببعضه ببعض، ذلك أنّ عادة العرب في خطاباتها إذا أبهمت بشيء إرادة لتحقيقه وقربه وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه، كرّرتَه تأكيداً، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه أو الاجتهاد في الدعاء عليه"³

يُقوم التَّكرار على إعادة وحدة نصيّة تتمثّل في كلمةٍ أو أكثر، وقد عرّف الباحثون التَّكرار بقولهم: "هُوَ أَنْ يُكَرَّرَ الْمُتَكَلِّمُ الْكَلِمَةَ أَوِ الْكَلِمَتَيْنِ بِلَفْظِهَا وَمَعْنَاهَا لِتَأْكِيدِ الْوَصْفِ أَوِ الْمَدْحِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَغْرَاضِ"⁴ كما و "يجسّد التَّكرار شكلاً من أشكال التَّرابُطِ المُعْجَمِيِّ على مستوى النَّصِّ، ويتمثّل في تكرار لفظ أو مرادف له في الجملة"⁵، أمّا هاليدي ورقية حسن فقد عرّفا التَّكرار بأنّه "شكل من أشكال الاتساق المعجمي يتطلب إعادة عنصر معجمي أو ورود مرادف له أو شبه مرادف أو عنصراً مطلقاً أو اسماً عاماً"⁶.

ويُسهم التَّكرار إسهاماً واضحاً في تأكيد المعنى وتثبيتته ذلك أنّ "التكرير أبلغ من التأكيد، لأنه وقع في تكرار التأسيس"⁷ ممّا يُسهم في زيادة ترابط النَّصِّ واتِّساقِهِ، أمّا أنواع التَّكرار فعديدة، نذكرها بشيء من التَّفصيل:⁸

1. التَّكرارُ التَّامُّ أو المحض (Full recurrence): وهو أن يتكرّر لفظٌ بعينه دون تغييرٍ فيه، وبعبارةٍ أخرى هو تكرارُ اللفظِ والمعنى واحدٌ.

¹ ابن منظور، لسان العرب، ص3851، مادة كرر.

² مجمع اللغة العربيّة، المعجم الوسيط، ص782. مادة كُرَّ.

³ الزُّركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل، مكتبة دار التّراث، القاهرة، ج3، ص9.

⁴ الحلّي، صفّي الدّين، شرح الكافية، نسيب الشاوي، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة، دمشق، ص134.

⁵ الصّبيحي، مدخل إلى علم النَّصِّ ومجالات تطبيقه، ص90

⁶ خطّابي، لسانيات النَّصِّ، مدخل إلى انسجام الخطّاب، ص24.

⁷ الزُّركشي، البرهان في علوم القرآن، ص11.

⁸ جميل، عبدالمجيد، علم النَّصِّ، أسسه المعرفية وتجلياته النّقدية، ص146.

2. التكرار الجزئي (Partial recurrence): وذلك بالاستخدامات المختلفة للجذر اللغوي.
 3. تكرار المعنى واللفظ مختلف: "وقد يتكرر أكثر من مرة في النص، ولأكثر من كلمة، ومن ثم تتسع المساحة التي يحدث فيها سبكاً"¹ وينقسم هذا النوع إلى قسمين:²
 - الترادف (Synonym): وهو التطابق التام أو المطلق بين كلمتين أو أكثر فيما تشير إليه في الواقع الخارجي والدلالات التي توحىها أيضاً بمعنى الاتفاق بين كلمتين اتفاقاً تاماً وهذا نادر في اللغة.
 - شبه الترادف (Near synonym): وذلك في حالة التشابه الدلالي الواضح بين كلمتين أو أكثر ويكون بينهما اختلاف حيث تستخدم الكلمة في سياق معين ولا تصلح الأخرى في نفس السياق وكلاهما بمعنى واحد.
 4. العبارة الموازية (paraphrase): كقولنا لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.
 5. الكلمة الشاملة (superordinate): وهي كلمة شاملة تدرج تحتها بعض الألفاظ المتكافئة، وهي كما يراها الباحثون "عبارة عن كلمة يندرج تحتها عدد من الكلمات المتكافئة، فكلمة (الفن) على سبيل المثال يقع تحتها كلمات متكافئة كالموسيقى، والشعر، والنحت، والغناء"³
 6. التوازي (Parallelism) وهو تكرار البنية مع ملئها بعناصر جديدة، كأن يقول الشيء نفسه مع بعض الإضافات.
 7. وقد أضاف بعض الباحثين، التكرار القضوي وهو "تكرار قضية ما بجمل وعبارات مختلفة عن بعضها، فتتكرر القضية أكثر من مرة بكلمات مختلفة، وتقيد الزيادة في الموعظة لا سيما في الأمور العظيمة عندها لا يمل التكلم ولا السامع من التكرار"⁴
- ويختلف عيسى الوداعي مع بعض الباحثين فيما يندرج تحت التماسك المعجمي و ذلك في قوله: "(الكلمة الشاملة، وألفاظ العموم) لا يندرجان تحت التماسك المعجمي، إذ هما يمثلان وجهها دلالي هو المعروف بالعموم والخصوص ويرجح دراستهما ضمن مستوى التماسك الدلالي ولذا أرى أن دراستهما

¹الوداعي، التماسك النصي في نهج البلاغة، ص61.

²عزة، شبل علم لغة النص بين النظرية والتطبيق، ص107.

³ التماسك النصي في نهج البلاغة، ص61

⁴ حيال، أحمد حسين، الشبك النصي في القرآن الكريم، دراسة تطبيقية في سورة الأنعام، الجامعة المستنصرية، العراق،

ضمن مستوى التماسك الدلاليّ أُولَى¹ وإذا ذهبنا مذهبه فإنه ينبغي علينا أن ندرس بقية الأقسام أيضًا ضمن المستوى الدلاليّ ذلك أنّ التكرار القضويّ يعتمدُ بشكلٍ أساسيٍّ على الدلالة، كما أنّ التّرادف وشبه التّرادف لا يُمكن إدراكهما بالشكل فهما ينطلقان أساسًا بفهم الدلالة ولن يبقى أمامنا إلاّ التكرار المحض التّام، والتكرار الجزئيّ لدراسة التكرار.

وربما لا أميلُ إلى ما ذهب إليه، لأنّنا إذا قبلنا التّرادف بين لفظين، والذي يُعدّ اختلافًا على مستوى الشكل فلا يدركُ إلاّ بالمعنى، فإنّنا كذلك نقبلُ ما سواه فالكلمة الشّاملة وألفاظ العموم تدخلُ في دائرة التكرار، وهي كما أعتقد أقربُ إلى التكرار منها إلى العلاقات الدلاليّة.

كما يُؤدّي التكرار وظيفةً في تماسك النّص على صعيد الشكل فيُسهّم في اتّساق النّص، ذلك أنّه يعمل على تشكيل علاقات بين الوحدات النّصيّة، وينقل صبحي إبراهيم الفقي فكرة صلاح فضل بقوله: "ويشترط د. صلاح فضل شرطاً أساسياً حتى يقوم التكرار بهذه الوظيفة وهو "أن يكون لهذا الملمح - المكرر - نسبة ورود عالية في النص تجعله يتميز عن نظائره ... وأن يساعدنا رصده - أي التكرار - على فك شفرة النص وإدراك كيفية أدائه لدلالته ..."²

ولا أحسبُ أنّ اشتراطاً كهذا يُمكن أن نولي له أهميّة أثناء تحليل النّص، فلعلّ تكرار وحدة نصيّة مرّة واحدة يُؤسّس لفكرة دلاليّة يُوحى بها هذا التكرار للباحث والمحلّل، ويُمكن أن تُفكّ شفرة النّص وتُدرَك دلالته حتّى وإن كان حضور التكرار وارداً بنسبة بسيطة ولكنّها لافتةً لذهن المتلقّي في حضورها في الوقت ذاته، فإن يتردّد لفظ الرّحمن مثلاً في نصّ قرآنيّ واجِد مرتّين يُوحى بأنّ هذا النّص فيه مقام الرّحمة الشّاملة.

¹ التماسك النّصيّ في نهج البلاغة، ص 62.

² الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللّغة النّصيّ بين النّظرية والتّطبيق، دراسة تطبيقيّة عل السّور المكيّة، ج 2، ص 22، وقد عُذتُ إلى المصدر الأساسيّ الَّذي نقله منه لصلاح فضل وهو مقال ظواهر أسلوبية في شعر شوقي، ولم أجد نصّ الكلام، بل وجدتُ شيئاً مُقارباً ولعلّه فهم على نحوٍ آخر، فوجدتُ صلاح فضل يتحدّث عن الظاهرة في علم الأسلوب، فيقول "ومفهوم الظّاهرة في علم الأسلوب يُشير إلى الملمح التعبيريّ البارز الَّذي يُؤدّي وظيفة دلالية تفوق مجرّد دوره اللّغوي، ويقتضي هذا أن يكون للملمح نسبة ورود عالية في النّص تجعله يتميز عن نظائره في المستوى والموقف، وأن يساعدنا رصده على فكّ شفرة النّص وإدراك كيفية أدائه لدلالته" انتهى.

ولمّا كان الملمح الأسلوبيّ في شعر شوقي هو التكرار فإنه يبدو أنّ لبسنا قد وقع، و أظنّ أنّ دراسة التكرار بوصفها ظاهرة أسلوبية تختلف عن دراسة التكرار كوسيلة من وسائل اتّساق النّص، - عنوان المقالة تجربة نقدية: ظواهر أسلوبية في شعر شوقي، بقلم صلاح فضل، العدد 4، تاريخ الاصدار يوليو 1981، مجلّة فصول.

ولعلّ نوع النصّ ومُرسله ومتلقّيه، وقُدرة المتلقّي على التحليل والمرجعية التي يعود لها، والسّياق الذي قيل فيه النصّ كلّ هذه العوامل هي التي تُحدّد المقدرة على فكّ شفرة النصّ، فإذا كان شِعراً حديثاً مُتّسماً بطبيعة العصر من تشبّث وضبابيّة، ظهرت الوحدات النصّية مُكرّرة بنسبة عالية، تُوحى بما يختلج به نفس الشّاعر وما تجيش به، فنفكّ بذلك شفرة النصّ ونُدركُ معناه، أمّا بعض الأجناس الأخرى التي تقوم على الإيجاز فهي لا تتطلّب تكراراً! إلّا بلفظةٍ أو لفظتين، فإذا كانت كفاءة المتلقّي عالية، كان قادراً على التحليل عارفاً باللّغة استطاع أيضاً أن يفهم النصّ ويفكّ شفرته سواء كانت نسبة ورود التّكرار عالية أو لا، وكذلك بالنسبة للمرسل ومقدرته اللّغويّة وتمكّنه وغايته والكثير من العوامل الأخرى.

إنّ الوقوف عند أنواع النّصوص وما تتطلّبه من تحليل أمرٌ شائكٌ لنا بصدد البحث فيه، وكذلك بقيّة القرائن من وضع المرسل والمتلقّي، وما نفتتح به هو أنّنا لا نميلُ إلى الرّأي القائل بضرورة ورود نسبة عالية للتّكرار لفكّ شفرة النصّ.

ثانياً: المصاحبة المعجميّة أو النّضام (Collocation)

لا يكاد نصّ يخلو من النّضام، ذلك أنّ النّصوص تتطلّب وجوده، إذ يُسهم في إبراز المعاني بطريقةٍ لافتةٍ، والنّضام هو "توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة نظراً لارتباطها بحكم هذه العلاقة أو تلك"¹، وهو ما يُعبّر عنه أيضاً بورود مفردات معا على نحو مطرد مثل: الليل والنهار، الشمس والقمر، النكتة والضحك، القوس والسهم، الشعر والشاعر، الأسلوب والقارئ²، وثمّة علاقات رابطة بين الأزواج من الألفاظ وهي³:

1. الارتباط بموضوع معيّن (association with particular topic): حيث يتمّ الرّبط بين العناصر المعجميّة وفقاً لظهورها في سياقاتٍ مُتشابهةٍ مثل: (المرض-الطبيب) (النكتة-الضحك)
 2. التّباين (complementarist) وهو ارتباط الكلمات بعضها ببعض من خلال أشكال التّقابل بأنواعه المُختلفة ويتمّ الرّبط بينها من خلال توقّع القارئ للكلمة المقابلة وله درجاتٌ عديدةٌ إذ قد يكون اللفظان:
- أ. متضادّين (opposite): مثل ولد - بنت.

¹ خطابي، لسانيات النص، ص25.

² جميل، عبدالمجيد، علم النّص، أسسه المعرفية وتجلياته النّقدية، ص146

³ أنظر، الوداعي، التّماشك النّصّي في نهج البلاغة، ص66، عزّة، شبل، علم لغة النّص النّظريّة والتّطبيق، ص109.

- ب. متخالفين أو متعارضين (Antonyms): مثل أحب - كره.
- ت. متعاكسين (Converse): مثل أَمَرَ - أطاع.
3. الدخول في سلسلة مرتبة (Order Series) مثل: الثلاثاء - الأربعاء.
4. الكل للجزء (Part to Whole): مثل السيارة - المكابح، الحجرة - المنزل.
5. الجزء للجزء (Part to Part) مثل: الفم - الذقن، أنف - عين.
6. الاندراج في صنف عام (General Class): مثل: الكرسي - الطاولة.
7. الكلمات التي تنتمي إلى مجموعة غير منتظمة (membership in unordered set) مثل: مجموعة الكلمات الدالة على الألوان (أحمر، أخضر، أصفر ...).

تُسهم هذه الوسائل في اتساق النصّ إذ تربط الألفاظ بعضها ببعض، وكذلك الجمل، والبنى النصّية، وهي بذلك تُسهم في إيضاح النصّ، فيتمكّن المتلقّي من فهمه ذلك أنّ النصوص التي تفتقد اتساقها تُصبح غير قابلة للفهم، فكلّ وسيلة من وسائل الاتساق لها دورها في بناء النصّ على نحو يتمكّن المتلقّي من استقباله وفهمه، ولذلك فالوقوف على المستوى الشكلي للنصّ ودراسة اتساقه مهمّ لإثبات التماسك النصّي.

ثانيًا: المستوى التركيبي:

1. الإحالة: (REFERENCE)

تُعَدُّ "الإحالة من المعايير المهمة التي تسهم بشكل فعال في الكفاءة النصية"¹، وقد وَرَدَ الجَنْزُ اللُّغَوِيّ أَحَالَ فِي الْمَعَاجِمِ بِمَعْنَى التَّغْيِيرِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي مَادَّةِ (ح و ل) "وَحَالَ الشَّيْءُ نَفْسَهُ يَحُولُ حَوْلًا بِمَعْنَيْنِ: يَكُونُ تَغْيِيرًا، وَيَكُونُ نَحْوًا"²، أمّا اصطلاحًا فقد عرّفها ديبوجراند بأنّها: "العلاقة بين العبارات من جهة، وبين الأشياء والمواقف والعالم الخارجي الذي تشير إليه العبارات"³ أمّا جون لاينز

¹ عفيفي، أحمد، الإحالة في نحو النص، دراسة في الدلالة والوظيفة، كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية، كلية

دار العلوم، جامعة القاهرة، 2005، ص6.

² لسان العرب، ص1056.

³ النص والخطاب والإجراء، ص 172.

فيعرّفها بأنّها "العلاقة بين الكلمات وبين الأشياء والأحداث والأفعال والصفات التي تشير إليها"¹ و يرى محمّد خطابي أنّ الإحالة قد استعملها الباحثان استعمالاً خاصّاً نظراً إلى أنّ "العناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل، إذ لا بد من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها"² في حين يُعرّفها نعمان بوقرة بأنّها "علاقة قائمة بين الأسماء والمسميات، فهي تعني العملية التي بمقتضاها تحيل اللفظة المستعملة على لفظة متقدّمة عليها، فالعناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل"³ فالإحالة لها وظيفة في اتّساق النّصّ فهي تجعل من النّصّ كلّاً واحداً وتُسهم في ربط السّابق باللاحق وتُسهم في "الوصل بين أوامر مقطع ما أو الوصل بين مختلف مقاطع النص"⁴ ويؤكد الأزهري الزّنّاد دور الإحالة في بناء النّصّ وتماشكه: "يكتمل الملفوظ (نصّاً) عندما تترايط أجزاؤه باعتماد الروابط الإحالية، وهذه الروابط تختلف من حيث مداها و مجالها، فبعضها يقف في حدود الجملة الواحدة يربط عناصرها الواحد منها بالآخر وبعضها يتجاوز الجملة الواحدة إلى سائر الجمل في النص فيربط بين عناصر منفصلة ومتباعدة من حيث التركيب النحوي، ولكن الواحد منها متصل بما يناسبه أشدّ الاتصال من حيث الدلالة والمعنى، فالإحالة عامل يحكم النص كاملاً في توازٍ مع العامل التركيبي والعامل الزمني"⁵

ويرى الأزهري الزّنّاد أنّ العناصر الإحالية تطلق على "قسم من الألفاظ لا تملك دلالة مستقلة، بل تعود على عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب، فشرط وجودها هو النص وهي تقوم على مبدأ التماثل بين ما سبق ذكره في مقام ما وبين ما هو مذكور بعد ذلك في مقام آخر"⁶

ولا شك أنّ للكاتب أو المتكلّم دوراً هاماً في الإحالة، فلا يمكن أن نعدّ الإحالة لفظاً دون أن ننتبه لدور القائل والعكس، ومن هنا ينقل براون و يول عن ستروسن أنّ: "الإحالة ليست شيئاً يقوم به تعبير ما،

¹ لاينز جون، علم الدلالة، ترجمة مجيد المشاطة وحبيب حسين وكاظم حسين، جامعة البصرة، د.ط 1980، ص43

² لسانيات النص، ص16-17.

³ المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ص81.

⁴ الصّبيحي، مدخل إلى علم النّص ومجالات تطبيقه، ص89.

⁵ نسيج النص، ص124.

⁶ نفسه، ص118.

ولكنها شيء يمكن أن يحيل عليه شخص باستعماله تعبيراً معيناً¹ ذلك أن "المتكلم أو الكاتب هو الذي يحمل التعبير دلالة تكشف عن وظيفة إحالية"² ومع هذا فلا يمكن أن نُغفل دور اللفظ، ومما نقله عفيفي عن ستروسن أن الإحالة ليست شيئاً يقوم به تعبير ما، ولكنها شيء يمكن أن يحيل عليه شخص ما باستعماله تعبيراً معيناً، ومثله ما نقله عن براون وبول من أن الإحالة عمل يقوم به المتكلم أو الكاتب، ويُعلّق على ذلك بقول مهم وهو أن كلام كل من براون وبول وستروسن وإن كان صواباً إلا أنه لا يمكن إغفال دور اللفظ الذي يحمل المعنى، فحتى وإن كان للكاتب أو المتكلم دور في اختيار لفظ دون آخر فلا يمكن أن نقل من دور اللفظ نفسه³.

وترتبط الإحالة بين أجزاء النص من خلال طريقتين:⁴

1. الطريق المباشر، وهو القصد الدال إلى ما يشير إليه اللفظ مباشرة دون الحاجة إلى تأويل.
2. التأويل، وذلك في حالة عدم وجود المحال إليه بشكل مباشر داخل النص.

وتنقسم الإحالة إلى نوعين رئيسيين:⁵

أولاً: الإحالة المقاميّة: (Exophora): وهي الإحالة التي تكون خارج النص أي في المقام⁶ فتكون مقاميّة "باعتبار أن اللغة تحيل دائماً على أشياء وموجودات خارج النص"⁷ ، فيمكن أن أقول وأنا أشير إلى شجرة أمامي: الشجرة مُثَمِّرة، فأنا أُحِيلُ على شيء خارج النص ، فتكون الإحالة مقاميّة، وهذا النوع من الإحالة "يتوقّف على معرفة سياق الحال، أو الأحداث و المواقف التي تحيط بالنص، حتى يمكن

¹ براون وبول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي، ومنير التريكي، عمادة النشر العلمي، جامعة الملك سعود، الرياض، 1997، ص 36.

² عفيفي، أحمد، الإحالة في نحو النص، ص13.

³ عفيفي، أحمد، الإحالة في نحو النص، ص13.

⁴ عفيفي، أحمد، الإحالة في نحو النص، ص14.

⁵ الخوالدة، فتحي رزق، تحليل الخطاب الشعري، ثنائية الاتساق والانسجام في ديوان "أحد عشر كوكباً"، ط1، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، 2006، ص46 - 58.

⁶ نفسه، ص45.

⁷ الصبيحي، الأخضر، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص89.

معرفة المحال إليه من بين الأشياء والملايسات المحيطة بالنص، وهذا من ثم يبرز أهمية معرفة مناسبات النزول في النص القرآني، إذ كثيراً ما يغمض عود الضمير بسبب عدم معرفة هذه المناسبات¹.

ثانياً: الإحالة النصية (Endophora): الإحالة التي تكون داخل النص، وهي أن تحيل بعض الوحدات اللغوية على وحدات أخرى سابقة أو لاحقة في النص² و تلعب الإحالة النصية دوراً هاماً في الربط بين الوحدات النصية المختلفة في النص، المتباعدة منها والمتقاربة، إذ يمكن أن تحيل بعض الوحدات النصية في آخر النص على وحدات نصية أخرى في أوله فتخلق شكلاً من التماسك "فوجودها يساعد على إضعاف سطوة التشتت"³، بمعنى أن هذا المصطلح "يركز على العلاقات بين الأنماط الموجودة في النص ذاته، ولا تعنى بالعلاقة بين هذه الأنماط والأشياء الخارجية عن النص وقد تكون بين ضمير وكلمة، أو كلمة وكلمة، أو عبارة، أو جملة وجملة أو فقرة وفقرة وغيرها من الأنماط اللغوية"⁴ إن مهمة هذه الإحالات أن تخلق العلاقة بين أجزاء النص، فتحيل الوحدة على أخرى سابقة لها أو تالية، ومن هنا فالإحالة النصية على نوعين:

1. الإحالة القبلية (Anaphora).

2. الإحالة البعيدة (Cataphora)

ونوضح بشكل موجز معنى كل منهما:

الإحالة القبلية: وقد عرفها علماء النص بأنها "استعمال كلمة أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى سابقة، في النص أو المحادثة"⁵ أو بعبارة أخرى هي التي تحيل فيها الوحدة النصية على وحدة نصية سابقة لها في النص الواحد، وهذا النمط من الإحالة القبلية أو السابقة له أمثلة كثيرة في القرآن الكريم.

¹ الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج1، ص41.

² الصبيحي، الأخضر، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص89

³ الخوالدة، فتحي رزق، تحليل الخطاب الشعري، ثنائية الاتساق والانسجام في ديوان "أحد عشر كوكبا"، ص58

⁴ الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج1، ص41.

⁵ الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج1، ص38 ينقل عن علماء علم النص، David carter

– Howard Lenik – Terence arsons – Guy Carden

الإحالة البعدية: وقد عرّفها علماء النَّصِّ بأنها "استعمال كلمة أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى سوف تستعمل لاحقاً في النص أو المحادثة"¹

أمّا عن المدى الإحاليّ فتتقسم الإحالة باعتبار المدى الذي يفصل بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه إلى قسمين: الإحالة ذات المدى القريب وتكون على مستوى الجملة الواحدة حيث تجمع بين العنصر الإحاليّ ومفسّره، والإحالة ذات المدى البعيد: وتكون بين الجمل المتصلة أو الجمل المتباعدة في فضاء النَّصِّ²، وتُسهّم الإحالة في ربط أجزاء النصّ، كما "تعدّ الروابط الإحاليّة قسماً مهماً لتشكيل هذا الإِتِّحاد، درسه الثّعاة من خلال الضّمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وعناصر معجميّة أخرى في مواضع مُتفرّقة"³، إذاً يُمكننا القول أنّ الإحالة تتحقّق بوسائل هي:

أ. الضّمائر.

ب. الإشارة.

ج. الاسم الموصول.

د. أدوات المقارنة مثل التشبيه وكلمات المقارنة مثل: أكثر وأقل⁴.

و يُمكننا القول إنّ "الرّبط الإحالي يمدّ جسور الاتّصال بين الأجزاء المتباعدة في النَّصّ، إذ تقوم شبكة من العلاقات الإحاليّة بين العناصر المتباعدة في فضاء النَّصّ، فتجتمع في كلّ واحد من تلك الأجزاء عناصره متناغمة"⁵ ونقف عند وسائل الإحالة بشيء من التفصيل:

أولاً: النوع الأوّل من وسائل الإحالة هو الضّمائر، و الضّمير "اسم جامد يقوم مقام اسم ظاهر للمتكلّم أو المخاطب أو الغائب، والغرض من الإتيان به الاختصار، وهو أقوى أنواع المعارف، والضمير لا يدل على مسمى كالاسم، ولا على الموصوف بالحدث كالصفة، ولا حدث وزمن كالفعل، فالضمير كلمة جامدة تدل على عموم الحاضر والغائب، دون دلالة على خصوص الغائب أو الحاضر"⁶.

¹ المصدر نفسه، ص40.

² عفيفي، أحمد، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص120.

³ بحيري، سعيد، دراسات لغويّة تطبيقيّة البنية والدلالة، ص96.

⁴ عفيفي، أحمد، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص118.

⁵ بحيري، سعيد، دراسة لغويّة تطبيقيّة بين البنية والدلالة، ص98.

⁶ بوقرة، نعمان، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ص122.

وللضمير دورٌ مهمٌ في تماسك النصّ فهو من أبرز أدوات الاتساق الإحالية التي تربط السابِق باللاحق، وهذه "الضمائر تكتسب أهميتها بصفتها نائبة عن الأسماء والأفعال والعبارات والجمل المتتالية، فقد يحل ضمير محل كلمة أو عبارة أو جملة أو عدة جمل، ولا تقف أهميتها عند هذا الحد بل تتعداه إلى كونها تربط بين أجزاء النص المختلفة شكلاً ودلالة"¹ إنّ للإحالة وظيفة داخل النصّ ذلك "أنها تشير إلى ما سبق، والتعويض عنه بالضمير تجنباً للتكرار فتحقق الاقتصاد في اللغة"²

كذلك فإنّ للضمير دوراً مهماً في توضيح معنى النصّ، فهو يُحيل إلى عناصر أخرى ويُسهّم في إبراز المعنى وإظهاره، كما أنّ الضمير قد يُشير إلى جملة أو أكثر، وقد يُشير إلى وحدة نصية كاملة، وينقل صبحي إبراهيم الفقي عن هالدي رقيقة حسن أنّ الضمائر قد ترجع إلى كلمات أو جمل أو فقرات³، ويذكر عيسى الوداعي أنّ الإحالة الضميرية هي "أداة يلجأ إليها المرسل في سبيل إقامة نصّ متماسك، إذ ترتبط الإحالات بالجملة الأولى، ولا تعدو أن تكون دمجاً واختصاراً لبعض عناصرها، الأمر الذي يسهّل على المتلقّي ربط عناصر النصّ بعضها ببعض وإرجاع كلّ إحالة إلى مرجعها النصّي"⁴ كما أنّ إعادة الضمير إلى مرجعه من "أهم المهام التي يقوم بها مُفسّر النصّ، لأنها تزيل عنه اللبس، وتوضح دلالاته"⁵، وتنقسم الضمائر إلى نوعين:

- أ. وجودية: وهي ضمائر المتكلم التي تدل على ذات مثل أنا أنت نحن، وضمائر المخاطب والغائب.
- ب. ملكية: وهي ضمائر المتكلم التي تدل على ملكية مثل قلبي، قلمنا، و ضمائر المخاطب والغائب.

ويذكر أحمد عفيفي ما مفاده أنّ علماء النصّ لا يعولون في تحليلهم لأدوات التماسك النصّي على ضمائر المتكلم أو المخاطب، سواء للضمائر الوجودية أو الضمائر الملكية، فهي تُحيل على ذات خارج النصّ، في حين يعولون على ضمائر الغياب التي تحيل إلى شيء داخل النصّ، وتكوّن إحالة نصية فتُجبر المتلقّي على البحث في النصّ⁶، إنّ اعتبار ضمائر المتكلم والمخاطب ممّا لا يُمكن الاستناد عليه

¹ الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق، ج 1 ص 137.

² عزة، شبل، علم لغة النصّ النظرية والتطبيق، ص 120.

³ الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق، ج 1 ، 163.

⁴ التماسك النصّي في نهج البلاغة، ص 200.

⁵ إسماعيل، نائل محمّد، الإحالة بالضمائر ودورها في تحقيق الترابط في النصّ القرآني، مجلة جامعة الأزهر، غزة، مجلد 13،

العدد 1، 2011، ص 1069.

⁶ الإحالة في نحو النص، ص 24.

في تحليل أدوات التماسك النصي باعتبارها تحيل إلى خارج النص فهي في نظريهم مقامية، فيه ابتعاد عن معنى النص وقوته، ونستند في كلامنا على فكرة أشمل طرحها عيسى الوداعي الذي رفض فكرة عدم اعتبار الإحالة المقامية من أدوات تماسك النص ذلك في قوله: "والحق أن عدم اعتبار الإحالة المقامية من أدوات تماسك النص فيه ابتعاد عن روح النص ومفهومه، إذ كيف يتمكن المتلقي من ربط أحداث النص ومجرياته إذا لم يعرف ما تحيل إليه العبارات الواردة في النص؟ هب أن المتلقي سمع جملة من لغة لا يعرفها، فهل سيكون بمقدوره تمثيل معنى تلك الجملة، والتفاعل معها؟ إن فشله في ذلك راجع إلى جهله بما تحيل إليه الجملة في العالم الخارجي، وليس إلى تركيبه، فقد تكون على قدر كبير من الفصاحة والوضوح"¹

إن تحليل أي نص يتطلب النظر إلى كل الضمائر الواردة فيه، فلو أحالت ضمائر المتكلم مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه:13] على لفظ ربك في قوله ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:12]، وقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:14] فهل يمكن عزل ضمير المتكلم -أنا- عن التحليل، لأننا نفترض أن كل ضمير متكلم يعود على خارج النص؟ هذا ما ذهب إليه أحمد عفيفي ولم يتضح لنا المغزى على نحو كاف فيما ذهب إليه وذلك في قوله: "والملاحظ أن ضميري المتكلم أو المخاطب لا يحيلان إلى مذكور سابق، أو لاحق، إنما يحيلان إلى خارج النص دائماً، فالضميران أنا ونحن يحيلان إلى متكلم أو متكلمين، والجميع خارج النص دائماً. غير أنها جميعها لا تصنع ترابطاً، إذ هي تحيل دائماً إلى شيء غير نصي، ولهذا لا تسهم في عملية الترابط النصي"² فإذا كان ضمير المتكلم يعود على خارج النص، فهل يمكن فهم النص وإثبات تماسكه إذا كان في النص ما هو مبهمة وعصي على الفهم؟ وإذا عجز عن ربط ذلك بما هو موجود في العالم الخارجي، وماذا لو كان المتكلم هو روح النص وإليه تعود كل عبارات النص خاصة إذا كان النص يتسم بالذاتية مثل: السيرة الذاتية التي يتكلم فيها الكاتب بلسانه وباستخدام ضمائر المتكلم.

¹ التماسك النصي في نهج البلاغة، ص198.

² الإحالة في نحو النص، ص49.

غير أنّ أحمد عفيفي يستدرك فيقول: "لسنا مع من ذهب إلى أن الإحالة المقامية لا تسهم في خلق النص، حيث إن هذه الإحالة تسهم في خلق النص لكونها تربط اللغة بسياق المقام، إلا أنها لا تسهم بشكل مباشر في عملية الربط، بينما تقوم الإحالة النصية بدور فعال في خلق النص واتساقه"¹

فهو يعدّ الإحالة المقاميّة من الأدوات المسهّمة في خلق النّصّ ولكّنها لا تسهم في ترابطه، ولا يُمكن بحالٍ أن ننفي ما للإحالة المقاميّة من قدرّة في عمليّة الرّبط، فلا يُمكن فهم النّصّ من دون العودِ إلى ما يُحيلُ إليه داخل النّصّ أو خارجه، ومن دون فهم النّصّ لا يُمكن إثبات تماسكه.

وأما ضمير الغائب الذي اتفق الباحثون على دوره في الاتساق عن طريق الإحالة فيتقدّم عليه مُفسّره، فـ "يقتضي ضمير الغائب تقدّم المفسّر عليه لأنه وُضع معرفة لا بنفسه بل بسبب ما يعود عليه، فإن ذكرته ولم يتقدمه مفسره بقي مبهما منكرًا لا يُعرف المراد به حتّى يأتي مُفسّره بعده، وتتكيره خلاف وضعه"².

ومن المُهمّ في إطار الإحالة بالضمائر ذكر أمر الجُملة النّوّة التي تمثّل أساس النّصّ والمحور الذي يرتبط به ما في النّصّ كلّ من عناصر، فالنّصّ كما يعبّر الباحثون يتكوّن من جُمليّ أساسيّة وأخرى ثانويّة أمّا الأولى فلا يُمكن الاستغناء عنها لأنّها تمثّل العمود الفقريّ لأيّ نصّ، والذي تقوم عليه دلالة النّصّ الكلية أمّا الجُملة الثّانويّة فإنّها كثيرًا ما يتمّ الاستغناء عن ذكرها في النّصّ لأنّها تستنبط لدى المتلقّي وتعمدّ على كفاءته³

أمّا الجُملة النّوّة وهي الجُملة الثّابتة فغالبًا ما يحتوي النّصّ على كثير من الوحدات النّصيّة الصّغرى أو الكبرى التي تعود على هذه الجُملة الثّابتة التي تُمثّل النّوّة الأساسيّة للنّصّ، ولا شكّ أنّ هذه الإحالات تتشكّل في فضاء النّصّ مُرتبطة جميعًا بأساس واحد هو النّوّة، و"هذه النّوّة قد تكون كلمة واحدة، أو جملة واحدة، وهذه الجملة منها يتطور النص وتُسند جملاً أخرى كثيرة إليها وتتعلق بها من خلال الروابط"⁴

¹ الإحالة في نحو النص، ص 50-51.

² الإحالة بالضمائر ودورها في تحقيق الترابط في النصّ القرآني، إسماعيل، نائل محمّد، مجلة جامعة الأزهر، غرّة، مجلد 13، العدد 1، ص 1069.

³ الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللغة النّصي بين النظرية والتطبيق، ص 166.

⁴ الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللغة النّصي بين النظرية والتطبيق، ص 168.

وأما الجُمْلُ الثَّانَوِيَّةُ فهي تعتمد على كفاءة المتلقِّي، ذلك أنَّ القُدْرَةَ على فهم المقروء أثناء عمليَّة التلقِّي يختلفُ من شخصٍ إلى آخر، فالقُدْرَةُ على إدراكِ الجُمْلِ الثَّانَوِيَّةِ الَّتِي تَمَّ الاستغناء عنها و وجد في النَّصِّ أثرها أو ما يدلُّ عليها، هي مهمَّة المتلقِّي.

إنَّ الضميرَ يعملُ بشكلٍ فعَّالٍ على ربطِ السَّابِقِ باللاحق وهو من أبرز الوسائل الإحاليَّة في النَّصِّ فلا يخلو نصٌّ منه، وله الدَّورُ الأكبرُ في تماسكِ النَّصِّ، ولا تقتصرُ وظيفتهُ في إحالتهِ وإنما يحقِّقُ دورًا بارزًا في بناءِ النَّصِّ وتماسكه.

وأما النَّوعُ الثَّانِي من وسائل الإحالة فهي الإِشَارَةُ، وهي "حدث أو شيء يشير إلى حدث أو شيء آخر"¹ وهي "ألفاظ دالة على عناصر غائبة حاضرة، حصرها ولفنسون في: إشارات شخصية، وإشارات زمنية، وإشارات مكانية، وإشارات اجتماعية، وإشارات خطابية"² ونشرحها بإيجاز:

الإِشَارَاتُ الشَّخْصِيَّةُ: بعضُ الألفاظ الَّتِي تُشير إلى الأشخاص (هذا، هذه، هؤلاء، هذان، هاتان، أولئك) الإِشَارَاتُ الزَّمَانِيَّةُ: كلمات دالَّة على الزَّمانِ المُحدَّدِ بالسِّياقِ قياسًا إلى زمنِ المتكلِّمِ (الآن/ أمس/ غداً)³ الإِشَارَاتُ المَكَانِيَّةُ: عناصرُ إشارية للمكانِ تحدِّدُ مرجعها بالنَّظَرِ إلى مكانِ المتكلِّمِ⁴ (هنا، هناك، هنالك) إِشَارَاتُ اجتماعية: ألفاظٌ تشيرُ إلى علاقاتٍ اجتماعية بين المتكلمين من حيث هي علاقةُ ألفةٍ أو علاقة رسمية.

إِشَارَاتُ الخطاب: عناصرُ إشارية لا تحيلُ إلى ذاتِ المرجعِ الَّذِي تحيلُ إليه الإِحالَاتُ الضَّمِيرِيَّةُ، فإذا روى شخصٌ قصَّةً تذكُّره بأخرى، قال: لكن تلك قصَّةٌ أخرى.

إِشَارَاتُ تَقْسَمُ حسب المسافة:⁵

- للبعيد: ذلك، ذاك، ذلكم، تلك، تلكم.

- القريب: هذا، هذه، هذان، هاتان، هؤلاء، أولئك

إنَّ لهذه الإِحالَاتِ الإِشَارِيَّةِ أهميَّة في تكوينِ وحدةٍ نصيَّةٍ "يلجأ المرسل إليها بغية دمج بعض العناصر في الجملة الأولى، بيدَ أنَّ الغالب في المرجع الإشاري للإحالة الإشارية أن يكون وحدةً نصيَّةً"¹

¹ بوقرة، نعمان، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ص 86.

² المصدر السابق، ص 87.

³ عفيفي، أحمد، الإحالة في نحو النص، ص 24.

⁴ بوقرة، نعمان، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ص 86.

⁵ عفيفي، أحمد، الإحالة في نحو النص، ص 26.

وأما النوع الثالث من وسائل الإحالة فهو الاسم الموصول، والموصول في العربية قسمان:²

1. الاسم الموصول المختص: وهو ما كان نصًا في الدلالة على بعض الأنواع دون بعض، مقصورًا عليه وحده، فللمفرد المذكور ألفاظ خاصة به، وللمفردة المؤنثة ألفاظ خاصة بها وكذلك للمثنى بنوعيه وللجمع بنوعيه (الذي، التي، اللذان، اللتان، الذي، اللواتي، اللاتي)

2. الاسم الموصول العام: وهو ما ليس نصًا في الدلالة على بعض هذه الأنواع دون بعض، أي ليس مقصورًا على بعضها، وإنما يصلح للأنواع كلها وأشهر الألفاظ الخاصة بهذا القسم: (من) للدلالة على العاقل، و(ما) للدلالة على غير العاقل.

أما النوع الرابع من وسائل الإحالة فهي المقارنة، "وتعدّ المقارنة بناءً لغويًا معبرًا عن قيمة عالية لدى المبدع، لتقديم رؤياه وتشكيلها اعتمادًا على عالمين يصنعهما بذاته، ويقدمهما لمتلقيه بعيدا عن لغة المعنى المكشوف، ذاك أنها لعبة لغوية ماهرة وذكية بين طرفين صانع المقارنة وقارئها، على نحو يقدم فيه صانع المقارنة عالما من التقارب الموحى عبر البوابة اللغوية³ كما أنّ المقارنة تنقسم إلى قسمين:⁴

- عامة يتفرّع منها التّطابق والتّشابه والاختلاف.

- خاصة تتفرّع إلى كمية وكيفية وهي تقوم بوظيفة اتّساقية.

نقل الشّاوش عن هاليدي ورقية: "إنّ نفس المبادئ التي تعمل في أنواع الإحالة الأخرى تعمل في المقارنة أيضًا، فتكون ذات إحالة مقالية قبلية وتكون ذات إحالة مقالية بعدية وبالتالي تسهم في الاتساق"⁵ كما ينتقد وجود المقارنة في باب الإحالة بقوله: "إنّ تناول هاليدي وحسن لمسألة المقارنة قام على الخلط بين الإحالة من ناحية والتركيب في علاقته بالدلالة من ناحية أخرى، فما جاء من الكلمات على صيغة التفضيل تقتضي دلاليًا أو قل منطقيًا بنية ثنائية وبالتالي لا يجري استعمالها إلّا في بنية تركيبية تتوفّر

¹ الوداعي، عيسى، لتمامك النصّي في نهج البلاغة، ص228.

² الإعجاز التعبيري في سورة الواقعة (التمامك النصّي أنموذجًا)، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية 2017، المجلد7،

العدد4، ص110، 111.

³ ينقل فتحي رزق الخوالدة عن هاليدي ورقية حسن، تحليل الخطاب الشعري، ص66.

⁴ ينقل محمّد خطابي عن هاليدي ورقية حسن، مدخل إلى علم النص، ص19.

⁵ أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، ص129.

فيها تلك الثنائية وبذلك يدخل في باب الإحالة بالمقارنة جميع البنى الدلالية التركيبية التي تقتضي
عنصرين اثنين"¹

ونجدُ أنَّ المُقارَنَة تدخُلُ ضمنَ الوسائلِ الإحاليَّةِ ذلكَ أنَّها بشكلٍ أو بآخر تعودُ على سابقٍ يتَّصلُ
مَعها بِطَريقَةٍ لُغويَّةٍ، وإذا أردنا أن نستثنيَ المُقارَنَة من الوسائلِ الإحاليَّةِ لأنَّها تدخُلُ في بابِ الدَّلالَةِ
والتَّركيبِ فعلينا إذا أن نستثنيَ الضَّميرَ والإشارةَ أيضًا لأنَّه بحالٍ من الأحوال لا يُمكنُ إدراكُهما إلَّا في
البحثِ في المعنى، فلو قلنا لله المثلُّ الأعلى اقتضى أن مثل الله أشدَّ علوًا، واقتضى وجودَ أطرافٍ وإن
ضمنيًّا تقتضي البحثَ عنها في النَّصِّ، وهذه هي الإحالةُ! فأجدُ أنَّي أميلُ إلى ما ذهب إليه هاليدي ورقية
حسن.

¹ الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النُّظريَّة النُّحويَّة العربيَّة، ص 130.

ثانيًا: الحذف: (Ellipsis)

لَمَّا كَانَ الْإِيجَارُ لِإِبْرَارِ جَمَالِ النَّصِّ وَجْزَالَتِهِ، اسْتَوْجِبَ ذَلِكَ حَذْفَ وَحَدَاتٍ لُغَوِيَّةٍ مِنَ النَّصِّ، وَ "الحذف ظاهرة لغوية عامة تشترك فيها اللغات الإنسانية حيثُ يميل الناطقون إلى حذف بعض العناصر المكررة في الكلام، أو إلى حذف ما قد يمكن للسامع فهمه اعتمادًا على القرائن المصاحبة الحالية كانت أو عقلية أو لفظية"¹ وَ هُوَ حَذْفُ وَحْدَةٍ لُغَوِيَّةٍ مِنَ النَّصِّ مَعَ وَجُودِ مَا يُدَلُّ عَلَيْهَا، وَيُؤَدِّي الحذفُ معنًى لَا يُؤَدِّيهِ بقاء اللَّفْظِ، بَلْ يَكُونُ حَذْفُهُ أَبْلَغَ وَأَتَمَّ لِلْمَعْنَى، بَلْ إِنَّ "المحذوف من الكلام لو بقي، فإِنَّهُ يَشْكَلُ خِلَالَ عَلَى مَسْتَوَى النَّصِّ، يَتِمُّثَلُ فِي حَشْوِ وَزِيَادَاتٍ"²، وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ فَإِنَّ الحذفَ يُؤَدِّي المعنى بطريقةٍ أُخْرَى "وَلَا يَقِلُّ الحذفُ أَهْمِيَّةً عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْوَسَائِلِ فِي تَحْقِيقِ تَمَاسُكِ النَّصِّ لِأَنَّ المحذوفَ يَعْمَلُ مِنْ نَاحِيَةِ الدَّلَالَةِ مَعَامَلَةً الْمَذْكُورِ"³.

وَالْحَذْفُ لُغَةٌ هُوَ الْإِسْقَاطُ وَالْقَطْعُ، وَرَدَ فِي الْمَعْجَمِ الْوَسِيطِ: "حذف الشيء: حَذَفًا: قَطَعَهُ مِنْ طَرَفِهِ. يُقَالُ: حَذَفَ الْحَجَّامُ الشَّعَرَ، وَأَسْقَطَهُ"⁴ وَاصْطِلَاحًا هُوَ "إِسْقَاطُ جُزْءِ الْكَلَامِ، أَوْ كُلِّهِ لِدَلِيلٍ"⁵.

وَهُوَ وَفَقًا لِعِلْمِ النَّصِّ "استبعاد العبارات السطحية التي يُمكن لمحتواها المفهومي أن يقوم في الذهن أو أن يوسَّع أو أن يُعَدَّلَ بواسطة العبارات الناقصة"⁶ وَلَمَّا كَانَ استبعاد هذه العبارات لغاية أرادها المرسل، فَوَجَدَ فِي النَّصِّ مَا يُشِيرُ لَهَا اسْتَطَاعَ الْمُتَلَقِّي أَنْ يَشْعُرَ بِالْمَحْذُوفِ دُونَ أَنْ يَخْلَ ذَلِكَ فِي إِبْصَالِ الْمَقْصُودِ مِنَ الْكَلَامِ، يُؤَثِّرُ فِي ذَلِكَ بَرَاعَةُ الْمُرْسَلِ وَقُدْرَةُ الْمُتَلَقِّي عَلَى الْفَهْمِ وَالتَّأْوِيلِ.

غَيْرَ أَنَّ فَتْحِي رَزَقَ الْخَوْلَادَةَ يَذْكُرُ أَنَّ "الحذف يُشْكَلُ ظَاهِرَةً أَسْلُوبِيَّةً تَزِيدُ مِنَ التَّنَشِثِ وَالانْقِطَاعِ فِي لُغَةِ النَّصِّ ذَلِكَ أَنَّ أَطْرَافًا مِنَ النَّصِّ قَدْ تَغَيَّبَ حَتَّى يَبْدُو مَجْتَرَأً وَغَيْرَ مُكْتَمَلٍ فِي صُورَتِهِ اللَّغَوِيَّةِ الظَّاهِرَةِ، لَكِنَّهَا ضَمْنِيًّا تَعَكِّسُ جَمَالًا عَلَيْهِ فِي حَالِ الْوُصُولِ إِلَى مَقَاصِدِهَا وَبِنَاءِ انْسِجَامِهَا وَسَطُوعِ اِبْدَاعِيَّةِ نَازِمِهَا"⁷ ذَلِكَ أَنَّ الحذفَ هُوَ مِنْ وَسَائِلِ الْإِتْسَاقِ وَالتَّمَاسُكِ فِي النَّصِّ كُتْلًا، فَالْمَحْذُوفُ لَا يُؤَثِّرُ عَلَى الْمَعْنَى وَإِنَّمَا

¹ حمودة، طاهر، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الاسكندرية، مصر، 1998، ص4.

² الصبيحي، محمد الأخضر، مدخل إلى علم النص، ص93

³ عزة، شبل، علم لغة النص النظرية والتطبيق، ص116.

⁴ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص162.

⁵ الزركشي، بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، مكتبة دار التراث، القاهرة، ج3، ص102.

⁶ ديوبجراند، النص والخطاب والإجراء، ص301.

⁷ تحليل الخطاب الشعري ثنائية الاتساق والانسجام في ديوان "أحد عشر كوكبا"، ص76.

يستثير الأذهان ويشغل العقول لبلوغ المعاني والمقاصد، وإنَّ وجودَ حذفٍ لا يعني وجودَ تشبُّتٍ في لغة النصِّ، ذلك أنَّ التشبُّتَ نقيضُ التماسكِ، وإنَّ غايةَ الحذفِ ليست إبرازَ الجمالِ والوصولَ لانسجامِ المعاني والتوصُّلِ لإبداعيةِ النَّاطِمِ وحسب بل إنَّ الحذفَ هو وسيلةٌ من وسائلِ التماسكِ لذا "لا ينبغي لنا أن نفهم الحذف على معنى أن عنصراً كان موجوداً في الكلام ثم حذف بعد وجوده ولكن المعنى الذي يفهم من كلمة الحذف ينبغي أن يكون هو الفارق بين مقررات النظام اللغوي وبين مطالب السياق الكلامي الاستعمالي"¹.

و"تشتملُ عمليَّةُ فهمِ النَّصِّ على إمكانيَّةِ إدراكِ الانقطاعِ على مستوى سطحِ النَّصِّ، حيث نفترض عنصراً سابقاً يعدُّ مصدرًا للمعلومة المفقودة، فيترك العنصرُ المحذوفُ فجوةً يمكنُ ملؤها من مكانٍ آخر في النَّصِّ وهنا يأتي دورُ التفاعلِ بين الإدراكِ والأعرافِ التركيبيَّةِ للغة في فهمِ المحذوفِ"²، إنَّ جُملة ما وردَ يُؤكِّد على كفاءة المتلقِّي اللغويَّة لإدراك هذه الإحالة.

وقد قسِّمَ الحذفُ عند هاليدي ورقيةً حسن إلى ثلاثة أنواع هي:

1. الحذفُ الاسميُّ (Nominal Ellipsis): وهو حذفُ اسمٍ داخلِ المركبِ الاسميِّ، كما يُقرَّرُ الباحثان ذلك فإنَّ الحذفَ الاسميَّ لا يقعُ إلا في الأسماءِ المشتركة (common nouns)³
2. الحذفُ الفعليُّ (Verbal Ellipsis): "أي أنَّ المحذوفَ يكون عنصراً فعلياً"⁴
3. الحذفُ القولِيُّ (Clausal Ellipsis): "الحذفُ داخل ما يُشبه الجُملة"⁵

ولمَّا كان مدارُ بحثنا النَّصَّ القرآنيَّ وجبَ أن نَقِفَ عندَ أغراضِ الحذفِ الَّتِي تعدُّ أساساً لفهمِ النَّصِّ ووسيلةً للتواصلِ بين المرسلِ والمتلقِّي، وما قُدِّمَ من ظاهرةِ الحذفِ في اللغةِ العربيَّةِ في ضوءِ لسانياتِ النَّصِّ من ثلاثِ زوايا كما تذكرُها عزة شبل و طاهر حمودة:⁶

¹ حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، ب.ت، ص298.

² شبل، عزة، علم لغة النص، النظرية والتطبيق، ط2، مكتبة الآداب، القاهرة، 2009، ص115.

³ خطَّابي، محمد، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص، ص22.

⁴ عفيفي، أحمد، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص127

⁵ نفسه، ص127

⁶ علم لغة النص، النظرية والتطبيق، 117، وظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ص31-114.

1. قصد المتكلم، ويندرج تحته أغراض الحذف القائمة على مفهوم القصدية، وهي: التخفيف، والإيجاز، والاختصار في الكلام، والاتساع، والتفخيم، والإعظام لما فيه من الإبهام، و صيانة المحذوف عن الذكر في مقام معين تشريفًا له، وتحقير شأن المحذوف، وقصد البيان بعد الإبهام، وقصد الإبهام، والجهل بالمحذوف، والعلم الواضح بالمحذوف، والخوف منه أو عليه، والإشعار باللهفة وأن الزمن يتقاصر عن ذكر المحذوف، و رعاية الفاصلة، أو المحافظة على السجع، أو المحافظة على الوزن في الشعر¹

2. الأعراف التركيبية للغة، ذلك أن الحذف قد يكون راجعًا إلى الكلام نفسه لا إلى غرض المتكلم وذلك كثير مثل: كثرة الاستعمال، والحذف لطول الكلام، والحذف للضرورة الشعرية والحذف للإعراب، والحذف لأسباب قياسية صرفية أو صوتية² والحذف للمحافظة على السجع أو لرعاية الفاصلة.

3. دور المتلقي المتمثل في العمليات الذهنية التي يقوم بها والنتيجة عن الحذف.

أخيرًا نقف عند علاقة الحذف بالاستبدال فقد تطرقت كتب علم النّصّ إلى هذه العلاقة، فنحن إذا ما قارنا الحذف بالاستبدال وجدنا أن الحذف هو "استبدال بالصّفر لأنّ الحذف لا أثر له إلاّ الدلالة فلا يحل شيء محل المحذوف، أمّا الاستبدال فيترك أثرًا يسترشد به المتلقي وهو كلمة من الكلمات المشار إليها في الاستبدال"³ فالحذف لا أثر له سوى الدلالة التي تكون هي المرشد للمحلل فإذا اتضحت الدلالة ظهر المحذوف، أمّا الاستبدال فهو يترك أثرًا يدل عليه.

¹ حمودة، طاهر سليمان، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ص 95 - ص 114.

² حمودة، طاهر سليمان، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ص 31- ص 94.

³ عفيفي، أحمد، نحو النصّ اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص 126.

ثالثاً: الوصل:

تتَّصِلُ الوحدات النَّصِّيَّةُ في النَّصِّ بروابطٍ لَفْظِيَّةٍ واضِحَّةٍ يُطْلَقُ عَلَيْهَا أَدَوَاتُ الْوَصْلِ، هَذِهِ الْأَدَوَاتُ هِيَ الَّتِي تُحَقِّقُ الاتِّساقَ في النَّصِّ من خلالِ ربطِ اللَّاحِقِ بالسَّابِقِ وفقَ نِظامٍ مُحدَّدٍ، فهذا "النَّصُّ عبارة عن جمل أو متتاليات متتابعة خطياً، ولكي تدرك بوصفها وحدة متماسكة تحتاج إلى عناصر رابطة متنوعة تصل بين أجزاء النص"¹ لذلك فهذه الرَّوابطُ تُسَهِّمُ في ترابطِ النَّصِّ وبنائِهِ وتكوينِهِ، فتربطُ السَّابِقَ بِاللَّاحِقِ، ومن هُنا وردت الإشارةُ لِلْوَصْلِ بوصفها أداة من أدوات التَّماسكِ النَّصِّيِّ لما لها من دورٍ كبيرٍ في تشكيلِ النَّصِّ، فلا يُمكنُ بأيِّ شكلٍ من الأشكالِ أن يخلو النَّصُّ من روابطٍ لَفْظِيَّةٍ تربطُ بينَ أواصرِهِ، ولكي يُفهم النَّصُّ ويُدرَكُ لابد من توقُّر أدوات رابطة ويطلقُ اللُّغويون على هذه الأدوات تسميةً: "الأدوات المنطقيَّة"²

هذه الأدوات المنطقيَّةُ أو الرَّوابطُ مهمَّتُها "اصطناع علاقة سياقية نحوية بين طرفين باستعمال أداة تدل على تلك العلاقة، وقد يكون الغرض من الربط أمَّن لئس فهم الارتباط بين الطرفين المربوطين، وقد يكون أمَّن لئس فهم الانفصال بينهما"³ فمهمَّتُها إيجادُ هذه العلاقة بينَ الطَّرْفَيْنِ لفهم ارتباطهما أو انفصالهما وهذا ما يُحدِّدُه الرَّابِطُ و"يُقصِدُ بأدوات الرِّبْطِ أو الوصل عادة الوحدات اللغوية/المورفيمات التي تقيم علاقة بين جملتين، وقد يتعلق الأمر بالظروف adverb (مع ذلك، رغم ...) والعطف coordination (و، ف ...) والاتباع/ الصلة subordination (لأن، بما أن...)، فهذه الأدوات تؤدي دوراً ذا بال من حيث إنها تضيف الاتساق على النص"⁴ والوصلُ عندَ عُلماءِ النَّصِّ أربعةُ أنواعٍ أساسيَّةٍ: الوصلُ الإِضافيُّ والوصلُ العكسيُّ والوصلُ السَّببيُّ والوصلُ الزَّمَنيُّ⁵، ويُضيفُ بعضُ العُلماءِ نوعاً خامساً وهو التَّخيير أو الفصل⁶، وسنقفُ عندها بشيء من التَّفصيل:

¹ خطابي، محمد، لسانيات النَّصِّ، ص23

² الصَّبِيحِي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص94.

³ حميدة، مصطفى، نظام الارتباط والرِّبْطِ في تركيب الجملة العربيَّة، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية

للنشر لوانجمان، القاهرة، 1997، ص143.

⁴ مانغونو، دومينيك، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص26.

⁵ لسانيات النَّصِّ، ص23.

⁶ شبل، عزَّة، علم لغة النَّصِّ النظرية والتطبيق، نقلاً عن ديوجراند ص111، عفيفي، أحمد، نحو النَّصِّ، ص129.

1. الوصل الإضافي (Additive)

يقوم الوصل الإضافي بمهمة "ربط الأشياء التي لها نفس الحالة"¹ أي أنه يربط بين أمرين بينهما صلة وتشابه فهو يتم بواسطة الأدوات (الواو، أو، الفاء، كذلك، أيضًا) ، كما وتندرج ضمن المقولة العامة للوصل الإضافي علاقات أخرى مثل:²

- الاشتراك: الواو
- الاختيار: أو
- التماثل الدلالي المتحقق في الربط بين الجمل بواسطة تعبير من نوع: بالمثل، على نحو مشابه، مثل هذا، بنفس الطريقة، حيث تتقي الأطراف المرتبوت بينها في الدلالة والأثر.
- علاقة الشرح والتفسير وتتم بواسطة تعابير مثل: أعني، بتعبير آخر، بكلمات أخرى، ما أقوله هو.
- علاقة التمثيل في تعابير مثل: مثلاً، نحو، على سبيل المثال.
- علاقة بمعنى الإضافة من خلال تقديم فكرة تالية مثل: بالمصادفة، بالمناسبة.
- علاقة المقارنة المنفية عندما يكون المعنى غير متشابه مثل: من ناحية أخرى، على العكس، بالمقابل.

2. الوصل العكسي أو ما يُطلق عليه الاستدراكي (Adversative)

هو الوصل الذي يربط بين أمرين، بينهما تعارض واختلاف فهو "علاقة تجمع بين أمور ذات وضع مشترك، ولكنها تبدو متعارضة ومتباينة في عالم النص مثل علة cause ومعها أثر غير متوقع منها، ويشار إليها بألفاظ منها: but و however و never the less³ وهذه الروابط تقوم بمهمة الوصل العكسي "إلا أن الأداة التي تعبّر عن الوصل في نظر الباحثين هي yet⁴ ويقابل هذه الكلمات في العربية (لكن، وبالرغم من، وحتى، ومع ذلك، بل).

¹ شبل، عزة، علم لغة النص النظرية والتطبيق، ص111.

² الخطابي، لسانيات النص، ص23، - وشبل، عزة، علم لغة النص النظرية والتطبيق، ص111.

³ حسان، تائم، اجتهادات لغوية، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 2007، ص368.

⁴ الخطابي، لسانيات النص، ص23

3. الوصل السببي (Causal)

فهو العلاقة بين صورتين بينهما حالة تدرج، أي أن تحقق كل واحدة منهما يتوقف على حدوث الأخرى ويستخدم لذلك: "لأن، ما دام، من حيث، ولهذا، بناء على هذا، وهكذا. إلخ"¹ ويمكننا أن نضيف لهذه الأدوات (فاء السببية، وكي، واللام، و حتى) وتدرج تحت الوصل السببي علاقات كالنتيجة والسبب والشرط فهي علاقات منطقية² فهذه العلاقات تقوم وتبنى على أساس علّة ومعلول، وسبب ونتيجة، وشرط وفعل مترتب عليه.

4. الوصل الزمني (Temporal)

الوصل الزمني يمثل ربطاً بين أمرين بينهما تتابع زمني مع فروق طفيفة في الزمن فهو "يربط بين أشياء يتوقف وضع أحدها على الآخر (مثل اعتماد وقوع الحدث على حدث سابق أو اعتماد وقوع المعلول على العلة)"³ وأدوات الوصل الزمني هي: "من ثم، إذًا، نظراً لـ..."⁴ ويمكن اعتبار قبل، وبعد، وكلما، والفاء أيضاً من أدوات الوصل الزمني فهي أيضاً من الروابط التي تختص بالزمن، فالفاء تُفيد الترتيب والتعقيب مع وجود مهلة، وثم تُفيد الترتيب والتراخي مع وجود المهلة.

ويُضاف إلى هذه الأنواع الأربعة، نوع خامس، وهو:

5. التخيير أو الفصل⁵ (Disjunction)

وهو يربط بين أمرين بينهما تشابه، ويتم التخيير بين أحدهما بأدوات "مثل: أو، إمّا..."⁶ ويجدر الإشارة إلى أن "نسبة توظيف أدوات ذات طبيعة معينة، تحددها طبيعة النص وموضوعه، فالنص الفلسفي -مثلاً- يقتضي توظيف أدوات تختلف عن تلك التي توظف - عادة- في نص أدبي سردي"⁷ فكل نص تتناسب

¹ عفيفي، أحمد، نحو النص، ص129

² الخطابي، محمد، لسانيات النص، ص23

³ حسان، تمام، اجتهادات لغوية، ص368

⁴ جميل عبد المجيد، علم النص، أسسه المعرفية وتجلياته النقدية، مجلة عالم الفكر، العدد2، المجلد 32، أكتوبر- ديسمبر

2003، الكويت، ص147.

⁵ عزة، شبل، علم لغة النص النظرية والتطبيق، نقلاً عن ديوجراند ص111، نحو النص، ص129.

⁶ جميل عبدالمجيد، علم النص، أسسه المعرفية وتجلياته النقدية، ص147.

⁷ الصبيحي، الأخضر، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص95.

أدواته مع طبيعته وحاجته، ولكن النصوص جميعاً تشترك في حاجتها إلى الروابط لتحقيق الاتساق فلا يمكن بأي حال أن يستغني نص ما عنها إلا أن يكون هزياً مُفتقراً إلى التماسك.

رابعاً: الاستبدال (Substitution):

يُسهم الاستبدال في تماسك النص، إذ يعد وسيلة هامة من وسائل الاتساق "إذ تعمل على تمكين الكاتب من عرض أفكاره دون تكرار وإفراط في استعمال الضمائر بما يبعث في نفس القارئ العزوف ويؤثر على مقروئية النص¹، فالاستبدال هو أن يُستبدل لفظاً بآخر بما يكفل إيصال المعنى بطريقة تجعل النص أكثر اتساقاً دون إطالة أو تكرار، و "الاستبدال عملية تتم داخل النص، إنه تعويض عنصر في النص بعنصر آخر"² ويمثل وسيلة هامة للربط بين الجمل، ويعد الاستبدال "وسيلة من وسائل الاقتصاد في الاستخدام حيث تسمح لمستخدمي اللغة بحفظ المعنى مستمراً في الذاكرة النشطة دون الحاجة إلى التصريح به مرة أخرى"³.

علاقة الاستبدال بال حذف:

ويقوم الاستبدال كما ذكرنا سابقاً بالبقاء على أثر فيما لا يترك الحذف أي أثر ولذا نجد الباحثين يسمون "الحذف استبدالاً بالصفر"⁴ نتيجة لعدم وجود أثر يدل على المحذوف إلا القرينة.

علاقة الاستبدال بالإحالة:

أمّا علاقة الاستبدال بالإحالة فيمكن القول أنّ "الفرق بين الاستبدال والإحالة أن الثاني يحيل على شيء غير لغوي في أوقات معينة، في حين أن الاستبدال يكون بوضع لفظ مكان لفظ آخر، لزيادة الصلة بين هذا اللفظ وذلك الذي يجاوره"⁵ أو بعبارة أخرى الاستبدال كما ينقله خطابي عن هالدي ورقية حسن "علاقة تتم في المستوى النحوي - المعجمي بين كلمات أو عبارات، بينما الإحالة علاقة معنوية تقع في المستوى الدلالي"⁶، غير أنّ الشاوش يذهب غير هذا المذهب فالاستبدال كما يرى: "وإن كان ظاهرة تتعلق

¹ الصّبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص92

² خطّابي، لسانيات النص، ص19

³ عزّة شبل، علم اللغة النصي، النظرية والتطبيق، ص114.

⁴ خطّابي، لسانيات النص، ص21.

⁵ الصّبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص91.

⁶ خطّابي، لسانيات النص، ص19.

بالنحو والوحدات المعجمية فهي محكومة أيضا بقواعد دلالية معنوية وبالتالي يصبح التمييز بينهما اعتمادا على كون الأولى نحوية معجمية وكون الثانية دلالية معنوية تصنيفا فاسدا¹ فالعلاقة في الاستبدال علاقة بين الألفاظ، ولا يمكننا بشكلٍ أو بآخر أن ننفي وجود علاقة دلالية وإن كان الاستبدال يقع في السطح ولكن هذا لا ينفي صلته بالدلالة، و ينقسم الاستبدال إلى ثلاثة أنواع: الاستبدال الاسمي، والاستبدال الفعلي، والاستبدال القولي، ندرسها بشيء من التفصيل:

أولاً: الاستبدال الاسمي (Nominal Substitution):²

و يكونُ باستخدام عناصر لغوية اسمية مثل: (آخر-آخرون- نفس) وتحلُّ هذه الكلمات محلَّ كلماتٍ أخرى، وذلك مثلُ قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ [طه:22] فلفظُ أخرى، جاء استبدالاً عن المنة الأولى وهي قلبُ العصا حيّةً الوارد ذكرها في الآيات التي تسبق هذه الآية، فلو تكرر ذكر الآية مرةً أخرى لكانَ في تكرارها ما لا يكونُ في الاستبدال من إيجازٍ واختصارٍ و بلاغةٍ في القول، وربطٍ بين السابق واللاحق فشَدَّ المتلقي للبحث والتدبر.

ثانياً: الاستبدال الفعلي (Verbal Substitution):³

ويمثله استخدام الفعل (يفعل)، ومثاله من القرآن قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات:102]، فالفعل (افعل) استبدالاً عن قولِ ادْبَحْنِي، ذلك أنَّ قول ادْبَحْنِي فيه تأثيرٌ كبيرٌ على نفسِ المتلقي وهو إبراهيم، ولكن قول افعل، أخفُّ وطأةً، وقد استبدل فعل ادْبَحْنِي بفعل (افعل) وقد أفادَ في الوقتِ ذاته إيجازاً وبلاغةً ذلك أنَّ الفعل قد ذُكر سابقاً ولا فائدة من تكراره، كما يربطُ السابق باللاحق ويُسهِم في تماسك النص، ويدفع المتلقي للتدبر فالفهم.

ثالثاً: الاستبدال القولي (Casual Substitution):⁴

و يكون باستخدام (ذلك، لا) مثلُ قوله تعالى: ﴿جَنَّتْ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ [طه:76]، فقوله تعالى ذلك استبدالاً عن القول (جَنَّتْ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

¹ الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، ج1، ص132.

² عفيفي، نحو النص، ص123

³ نفسه، ص124.

⁴ عفيفي، نحو النص، ص124.

الأنهار خالدين فيها وَ جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء مَنْ تَرَكَى) فكلمة واحدة هي كذلك استطاعت أن تُوجز وتحفظ النص من تكرارٍ وتُسهم في اقتصاد اللُغة مما يجعلُ الكلامَ مُوجزًا بليغًا فيه حلاوة وقبولٍ وهذا ما يفعله عمومُ الاستبدال، كما وتربطُ الجزء الأول من الآية بالجزء الثاني فُتسهم في تماسكه، وتشدّ ذهن المتلقّي للنصّ.

ثانيًا: الانسجام (Coherence)

لا يمكن إدراك التماسك من خلال الروابط الشكلية فحسب، فهب أن نصًا تتصل عناصره بعضها ببعض، فتحيل وحدة نصية على أخرى وترتبط واحدة بأخرى عن طريق ضمير تعود عليه، أو من خلال تكرار لفظي فهل يمكن إثبات تماسك النص دون الوقوف على المعنى؟ فلو تحقق التماسك الشكلي وثبت اتساق النص فهل يمكن أن يكون النص متماسكًا إذا كانت المعاني غير متصلة؟ إن هذا تحديدًا ما تهتم به دراسة الانسجام وهو إيجاد الطريقة التي تنتظم بها الوحدات النصية لتؤدي المعنى من المرسل إلى المستقبل، بدءًا من العنوان وانتهاءً بالخاتمة وما بينهما تدرج الأحداث وفقًا لنظام معين يؤسسه المرسل ليصل المعنى للمتلقي، وفي ذلك يقول ستيفن وليستر: "التماسك النصي سمة لا تدرك فقط من خلال البنى النحوية المناسبة ... ولكن تدرك أيضًا من خلال التفاعل مع التغيرات السياقية بهذا لا ينظر إلى النحو باعتباره نقطة النهاية، بل باعتباره وسيلة من وسائل تماسك النص"¹ وقد وقع اختلاف كبير بين الباحثين في ترجمة Coherence فترجمت لكثير من الترجمات نذكرها كما وردت في كتبهم على اختلافها:

الانسجام² والحبك³ والالتحام⁴ والتماسك الدلالي⁵ والتعليق⁶ وقد نتج عن الاختلاف في ترجمة المصطلح اختلاف في التعريف وفقًا لتعدد الرؤى، وأنا أرجح مصطلح الانسجام، أمّا معناه فيدور لغة حول الانسياب والسيلان، فقد ورد في لسان العرب في مادة سجم: "سجمت العين الدمع، والسحابة الماء، تسجمه تسجمه سجمًا وسجومًا وسجمانًا، وهو قطران الدمع وسيلانه، قليلًا كان أو كثيرًا (...) وانسجم

¹ علم لغة النص، النظرية والتطبيق، ص 187.

² انظر لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ص 409، وانظر المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب ص 152، وانظر مدخل إلى علم لغة النص ص 86، وانظر نسج النص فيما يكون به الملفوظ نصًا ص 15.

³ نحو أجرومية النص ص 154.

⁴ النص الخطاب والإجراء، ص 103.

⁵ بحيري، سعيد، علم لغة النص، ص 145.

⁶ اجتهادات لغوية، ص 370.

الماء والدَّمْعُ، فَهُوَ مُنْسَجَمٌ، إِذَا انْسَجَمَ، أَي انْصَبَّ.¹ وَوَرَدَ فِي الْمُعْجَمِ الْوَسِيطِ "(أَسْجَمَتِ) السَّحَابَةُ: دَامَ مَطَرُهَا. وَالْعَيْنُ الدَّمْعُ: سَجَمَتْهُ. وَيُقَالُ: أَسْجَمَتِ السَّحَابَةُ الْمَاءَ. انْسَجَمَ: أَي انْصَبَّ"²

أَمَّا اصطلاحًا، فَقَدْ وَقَعَ الْاِخْتِلَافُ فِيهِ وَفَقًا لِاِخْتِلَافِ التَّرْجُمَةِ وَالرُّؤْيَا، وَوَجَدْنَا أَنَّ تَخْصِيسَ الْاِنْسِجَامِ بِالْمَعْنَى هُوَ أَرْجَحُ الْمَذَاهِبِ، وَمِمَّنْ ذَهَبَ هَذَا الْمَذْهَبُ دِيبُوجَرَانْدُ حَيْثُ رَكَّزَ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَى التَّرَابُطِ الْمَفْهُومِيِّ وَقَدْ تَرَجَّمَ تَمَّامُ حَسَّانِ مُصْطَلَحِ COHERAENCE بِالِاتِّحَامِ، وَيدُلُّ عَلَى التَّمَاثُلِ الْمَعْنَوِيِّ الدَّلَالِيِّ فِي النَّصِّ فَمَعْنَى أَنْ يَكُونَ النَّصُّ مَنْسَجَمًا هُوَ أَنْ يَكُونَ تَمَاسُكًا مِنْ نَاحِيَةِ الْمَعْنَى حَيْثُ تَكُونُ مَعَانِيهِ مُتَّصِلَةً فِيمَا بَيْنَهَا اتِّصَالًا وَثِيقًا، وَ "هُوَ مَا يَتَطَلَّبُ مِنَ الْإِجْرَاءَاتِ مَا تَنْتَشِطُ بِهِ عُنَاصِرُ الْمَعْرِفَةِ لِإِيجَادِ التَّرَابُطِ الْمَفْهُومِيِّ"³.

و يرى مُحَمَّدٌ خَطَّابِي أَنَّ الْاِنْسِجَامَ يَتَطَلَّبُ مِنَ الْمُتَلَقِّي "صَرَفَ الْاهْتِمَامَ جِهَةً الْعِلَاقَاتِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي تَنْظُمُ النَّصَّ وَتَوْلَدُهُ"⁴، وَيَنْقَلُ خَطَّابِي عَنْ بَرَاوِنَ وَيُولَ، فَلَا يَغْتَبِرَانِ اِنْسِجَامَ الْخِطَابِ شَيْئًا مُعْطًى، أَي مَوْجُودًا فِي الْخِطَابِ يَنْبَغِي الْبَحْثُ عَنْهُ لِلْحَصُولِ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يُبْنَى، وَهُمَا بَيْنَانِ فِكْرَتَهُمَا فِي أَنَّ الْخِطَابَ يَسْتَمَدُّ اِنْسِجَامَهُ مِنْ فَهْمِ الْمُتَلَقِّي وَتَأْوِيلِهِ⁵ بِمَعْنَى أَنَّهُمَا يَمْنَحَانِ الْمُتَلَقِّيَ دَوْرًا تَأْوِيلِيًّا فِي الْوَصُولِ إِلَى الْاِنْسِجَامِ، فَلَا يَقْتَصِرُ اِنْسِجَامُ النَّصِّ عَلَى بَنَائِهِ بَلْ عَلَى فَهْمِ الْمُتَلَقِّي وَتَأْوِيلِهِ لِلنَّصِّ، إِذْ لَا شَكَّ أَنَّ الْمُتَلَقِّينَ لِلنَّصِّ بَيْنَهُمْ تَبَايُنٌ وَاِخْتِلَافٌ، وَهَذَا التَّبَايُنُ يُؤَدِّي إِلَى اِخْتِلَافِ الْفَهْمِ فِي بَعْضِ النَّصُوصِ الَّتِي تَقْبَلُ أَكْثَرَ مِنْ مَعْنَى، لِذَلِكَ فَإِنَّ بَعْضَ النَّصُوصِ الدِّينِيَّةِ تَتَطَلَّبُ مَرَجَعًا لِلْفَهْمِ، وَمِثْلُهَا بَعْضُ الْأَعْمَالِ الْأَدَبِيَّةِ الَّتِي يَنْبَغِي النَّظْرَ إِلَى مَرَجَعِيَّاتِهَا لِفَهْمِهَا وَهَذَا لَا يَعْنِي عَدَمَ اِكْتِفَاءِ النَّصُوصِ بِذَاتِهَا وَلَكِنْ وَفَقًا لَخَطَاةِ جَاكِبْسُونِ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وَجُودِ الْمَرَجَعِيَّةِ لِفَهْمِ النَّصُوصِ.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَخْلُصَ مِنْ هَذِهِ الْأَرَاءِ إِلَى تَعْرِيفٍ لِلْاِنْسِجَامِ يُمَكِّنُنَا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْاِنْسِجَامَ هُوَ أَنْ يَكُونَ النَّصُّ تَمَاسُكًا تَمَاسُكًا مَعْنَوِيًّا بِحَيْثُ يَحْمِلُ وَحْدَةً مَوْضُوعِيَّةً لَا تَقْبَلُ التَّنَاقُضَ، وَيَلْزَمُ لِفَهْمِهِ وَإِدْرَاكِهِ مَعْرِفَةُ الْمَقَامِ الَّذِي قِيلَ فِيهِ، وَتَأْوِيلُهُ بِمَا يَتَنَاسَبُ وَالْمَقَامَ، وَيَنْقَسِمُ التَّعْرِيفُ الَّذِي وَصَلْنَا إِلَيْهِ إِلَى ثَلَاثَةِ عُنَاصِرٍ:

¹ لسان العرب، ص 1947

² المعجم الوسيط، ص 418

³ النص والخطاب والاجراء، ص 103

⁴ لسانيات النص، ص 6

⁵ نفسه، ص 52

أولاً: أن يكون النص متماسكاً تماسكاً معنوياً بحيث يحمل وحدة موضوعية لا تقبل التناقض.

ثانياً: يلزم لفهمه وإدراكه معرفة المقام الذي قيل فيه.

ثالثاً: تأويله بما يتناسب والمقام.

أما الفكرة الأولى، فقد اشترطت في التماسك المعنوي الوحدة العضوية التي لا تقبل التناقض، فلا بد أن يحمل النص معنى واحداً شاملاً تظهر ظلاله في كل أنحاء النص، فالأفكار المتناقضة المتضاربة إذا تأسس عليها النص فإنها تجعله مختلاً وتحول دون انسجامه، وأما الفكرة الثانية فيلزم لفهم النص فهماً كاملاً معرفة المقام الذي قيل فيه أو بعبارة أخرى معرفة السياق، فلا يكون فهم النص فهماً كاملاً دقيقاً إلا بمعرفة السياق، ذلك أن للسياق دوراً بارزاً في فهم النص، فكثيرة هي النصوص التي يصعب فهمها دون معرفة سياقها، ومنها عدد غير قليل من آيات القرآن الكريم إذ لا يصلح أحياناً الباحث لفهم دقيق دون العودة إلى السياق، وأما الفكرة الثالثة فتدور حول التأويل ودوره المهم في فهم النص، فبعض النصوص لا تعطي المتلقي معناها منذ القراءة الأولى وإنما تحتاج لفحص دقيق وتدبر للوصول للمعنى ذلك أن التماسك ظاهرة تشتمل على تفاعل القارئ مع النص، ولذلك ربما يقدم الكتاب مفاتيح لغوية ترشد القارئ إلى الفهم والتفسير، ولكن القراء هم الذي يملؤون الفجوات بين المعلومات المقدمة في النص من خلال العلاقات التي تصل بينها¹ ولذلك فدور المتلقي مهم في عملية التلقي والفهم.

وسائل الانسجام:

أولاً: موضوع الخطاب:

إن لكل نص موضوعاً يتشكل به، فهو المعنى الذي لأجله انتظمت الوحدات، وفي سبيل إيصاله ترتبت وفق نظام، فالموضوع هو "بنية دلالية تصب فيها مجموعة من الآيات بتضافر مستمر عبر متواليات قد تطول أو تقصر حسب ما يتطلبه الخطاب من إيجاز أو إطناب، أو شرح أو تمطيط"² ويمثل الموضوع المركز الأساسي لعملية التحليل، فينتظم النص وفقاً لموضوع يدور حوله، وهو أيضاً الطريق للكشف عن المضامين التي ينطوي عليها النص، ولا شك أن الوصول للمعنى والدلالة إنما هو خاضع

¹ عزة، شبل، علم لغة النص، النظرية والتطبيق، ص184.

² خطابي، محمد، لسانيات النص، ص180

لدور المتلقي في الفهم والتأويل، والاقتراب من النصّ والتفاعل معه والتّوغلّ في أعماقه ودراسته للوصول إلى موضوعه وبُنيته الكلّية.

ومع ذلك فإنّ فكرة الموضوع ليست فكرة مُختصّة بعلم اللّغة بل هي فكرة موجودة عند المُفسّرين وإن لم يُصرّحوا بها، وفي ذلك يقولُ محمّد خطّابي: "ينبغي التنبيه إلى أن المفسرين لم يشيروا إلى وجود "موضوع خطّابي" بهذه الصيغة ولكن تحليلاتهم وتفسيراتهم تكشف عن وجود مثل هذا المفهوم في أذهانهم وهم يمارسون التفسير"¹، إذاً فما نُقدّم عليه اليوم في التّحليل، هو فكرة سابقة في أذهان المُفسّرين ولكنّها لم تُكتب بتنظيم كما يكتبها علم النصّ الحديث.

إنّ وجود موضوع واحدٍ أساسيٍّ يُوجدُ حريّة في بناء النصّ، فهو "يُعطي المرسلَ حريّة في إنشاء موضوعاتٍ فرعيةٍ يَرَفُدُ بها الموضوعَ الرئيس في النصّ، كما يعطيه الحريّة في التّقلّب بين تلك الموضوعات، وكثيراً ما يلجأ المرسل إلى إنشاء موضوع جديدٍ مقطوعٍ عن سياقٍ سابقٍ اتّكأً على معرفة المتلقي بالموضوع الرئيس، إذ يتمكّن المتلقي من إيجاد الخيط الرابط لهذا الموضوع بالسياق العامّ للنصّ"²

ثانياً: العنوان:

لكلّ دارٍ بائها، والعنوان هو بابُ الولوج إلى النصّ، فهو العلامة الأولى للفهم والإدراك والدراسة، ومنه يمكن أن يلتقط الباحثُ أولى المعالم الهامّة لنقد النصّ وتحليله، فهو المنطلق وهو "نقطة بداية قول ما"³ وفي هذا يقولُ محمّد الخطّابي "إن عنواناً ما سيؤثر في تأويل النص الذي يليه، كما أن الجملة الأولى من الفقرة الأولى لن تقيد فقط تأويل الفقرة، وإنما بقية النص أيضاً، بمعنى أننا نفترض أن كل جملة تشكل جزءاً من توجيه متدرج متراكم يخبرنا عن كيفية إنشاء تمثيل منسجم"⁴ ومن هنا فالعنوان هو المنطلق الهامّ والعلامة التي يجب أن يُدرك كاتب النصّ أهميّته، كما يجب أن يُدرك متلقي النصّ أهميّته أيضاً، ذلك أنّ "الجملة الأولى في أي نص تمثّل معلماً عليه يقوم اللاحق منها ويعود، وداخل تلك الجملة نفسها يمثّل اللفظ الأول منها معلماً تقوم عليه سائر مكوناتها"⁵

¹ لسانيّات النصّ، ص 180.

² الوداعي، عيسى، التماسك النصّي في نهج البلاغة، ص 239.

³ خطّابي، محمّد، لسانيّات النصّ، ص 59.

⁴ نفسه، ص 59.

⁵ نسيج النصّ، ص 67.

وَيُنْقَلُ الْخُطَّابِيُّ عَنْ بَرَاوَن وَيُولُ أَنَّهُمَا يَدَّانِ الْعُنْوَانِ وَسِيلَةً قَوِيَّةً لِلتَّغْرِيبِ وَيَعْتَبِرَانِهِ كَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَكُونُ لَدَى الْقَارِئِ تَوَقُّعَاتٌ قَوِيَّةٌ حَوْلَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَهُ مَوْضِعُ الْخُطَابِ بَلْ كَثِيرًا مَا يَتَحَكَّمُ الْعُنْوَانُ فِي تَأْوِيلِ الْمُتَلَقِّي¹، إِذِ لِلْعُنْوَانِ تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِي تَشْكِيلِ فِكْرَةٍ أَسَاسِيَّةٍ فِي ذَهْنِ الْمُتَلَقِّي وَإِضْفَاءِ تَوَقُّعَاتٍ لِمَا يَحْتَوِي الْمَوْضِعَ، وَهَذَا سِيُسُهُمْ فِي تَأْوِيلِ النَّصِّ.

ثالثاً: تنظيم النص (التدرج في الأحداث):

لَا شَكَّ أَنَّ لِنَتْنِظِيمِ النَّصِّ وَفَقَّ طَرِيقَةً مُعَيَّنَةً تَأْثِيرًا بَالِغًا فِي بِنَاءِ النَّصِّ، فَتَرْتِيبُ الْأَخْدَاثِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَحْكُومًا بِهَدَفٍ مُحَدَّدٍ يُعَيِّنُهُ الْمُرْسِلُ، فَيَبْنِي نَصَّهُ وَفَقًا لِلْفِكْرَةِ الْمُرَادِ إِصْصَالَهَا، إِذْ أَنَّ أَفْكَارًا مِّنَ الْمُمَكَّنِ أَنْ تَتَبَدَّلَ بِسَبَبِ خَلَلٍ فِي طَرِيقَةِ السَّرْدِ أَوْ عَدَمِ تَنْظِيمِ الْمُعْطِيَّاتِ، فَالْمُرْسِلُ يُقَدِّمُ وَيُؤَخَّرُ وَيَنْظُمُ نَصَّهُ وَفَقًا لِمَا يَتَطَلَّبُهُ الْمَعْنَى الْمُرَادِ إِصْصَالَهُ، وَ يَنْقُلُ مُحَمَّدُ الْأَخْضَرُ عَنْ دَوْمِينِيكٍ مَنْقِينُو أَنَّ سِيرُورَةَ النَّصِّ وَتَقْدَمِهِ فِي الْمَعْلُومَاتِ يَخْضَعَانِ إِلَى ظَاهِرَتَيْنِ هَامَّتَيْنِ هُمَا: التَّكَرُّارُ وَالتَّدرِجُ، ذَلِكَ أَنَّ الْكَاتِبَ يَذْكُرُ أحيانًا أَشْيَاءَ سَبَقَ ذَكَرَهَا مُحَاوَلًا بِذَلِكَ رَبْطَ السَّابِقِ بِاللَّاحِقِ وَمُهِدًا لِلانْتِقَالِ لِمَعْلُومَاتٍ جَدِيدَةٍ².

رابعاً: الاختتام:

إِنَّ النَّصَّ الَّذِي يُتْرَكُ بِلَا خَاتِمَةٍ يَكُونُ نَصًّا نَاقِصًا مَبْثُورًا إِذْ تُؤَدِّي الْخَاتِمَةُ دَوْرًا بِهِ يَكْتَمَلُ النَّصُّ وَ"النص الذي لا يختتم يفقد الكثير من حصافته واتساقه، ولا يستطيع قارئه أن يدرك بوضوح غائيته"³ فلا شكَّ ما للخاتمة من دور فيها يكتمل المعنى ، فلا يمكن أن نُبْقِيَ نَصًّا مَقْطُوعًا دُونَ خَاتِمَةٍ تَنْتَهِي إِلَيْهِ الْبُنْيُ بِمَا تَحْمِلُهُ الْمَعَانِي وَيَحْسُنُ بِهِ الْخَتَامُ وَأَحَدُ مَظَاهِرِ الْكِفَايَةِ النَّصِيَّةِ هِيَ حَسَنُ التَّصَرُّفِ فِي تَنْظِيمِ الْمَعْلُومَاتِ دَاخِلِ النَّصِّ، وَحَسَنَ اخْتِتَامِهَا⁴، إِذَا مَا يُمَكِّنُ أَنْ نَخْلُصَ إِلَيْهِ أَنَّ الْخَاتِمَةَ لَهَا دَوْرٌ فِي تَحْقِيقِ الْكِفَايَةِ النَّصِيَّةِ وَالانْسِجَامِ.

¹ لسانيات النص، ص 60.

² مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص 83

³ مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص 84

⁴ المصدر السابق، ص 84

خامساً: العلاقات: (Relationships)

تُشكِّلُ العلاقاتُ حلقةً هامةً للوصلِ بينَ الوحداتِ النصِّيةِ، فهي تُؤدِّي ما تُؤدِّيهِ أدواتُ الوصلِ ولكنها تعتمدُ على المعنى عوضاً عن اللفظ، ولهذا "قد لا يظهر الرّابطُ السياقي بين الجملتين، بل قد يغيب ويحل محله الرابط المعنوي، فتكون إحدى الجملتين تفسيراً للأخرى، أو تكون تفصيلاً لإجمال سبقه، أو تكون تأكيداً للأخرى وقد يكون سببُ غياب الرابط السياقي بين الجملتين قوة الارتباط الدلالي أو المعنوي بينهما"¹.

ولهذا نجدُ الوحداتِ النصِّيةِ ترتبطُ باختلافِ وسائلها، سواءً بلفظٍ أو بِمعنى، غير أنَّنا في العلاقاتِ القائمةِ على المعنى نجدُ تفسيراتها من خلالِ فهمِ المعاني، فهذه "العلاقات النصِّية ذات الترابط المفهومي مرجعيتها ما فهم من معاني تراكيب جملتين أو أكثر، ربط بينها سياق نصي ما، فقد يكون بعض هذه المعاني مقابلاً لمعنى آخر، أو مسبباً عنه، أو تفسيراً له"² أو غيرها من الروابط والعلاقات، و "ينظر عادةً إلى العلاقات التي تجمع أطراف النص أو تربط بين متوالياته (أو بعضها) دون بدو وسائل شكلية تعتمد في ذلك عادة، ينظر إليها على أنها علاقات دلالية، مثال ذلك علاقات العموم/الخصوص، السبب/المسبب، المجلد/المفصل"³، هذه العلاقات لا صلة لها بالشكل وإنما هي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعنى، وتُسهم في إنشاء تماسكٍ دلالي في النصِّ في البنية النصِّية الواحدة، أو بين البنى النصِّية ككل، والعلاقات النصِّية ذات الترابط المفهومي هي ما أطلقَ عليه الدكتور تمام حسان العلاقات الملحوظة⁴ وينقلُ أحدُ الباحثين عن نايدا أنماطَ العلاقاتِ الدلالية التي يصفها بأنها قابلةٌ للتطبيق على مختلف اللغات، حتّى اللغات غير الشائعة⁵:

1. الرّابطة (Coordinate):

الإضافيّة المتكافئة: (إعادة الصياغة): تشتمل على تعبيرين متماثلين تماماً ولكن بصياغة مختلفة.

¹ يونس، أحمد عزّت، العلاقات النصِّية في لغة القرآن الكريم، دار الآفاق العربيّة، القاهرة، ص 232-233.

² يونس، أحمد عزّت، العلاقات النصِّية في لغة القرآن الكريم، ص232

³ خطابي، محمّد، لسانيات النص، ص 268-269.

⁴ حسان، تمام، العلاقات الملفوظة والعلاقات الملحوظة في النص القرآن مجلة الدراسات القرآنية عدد 4، سنة 2001،

ص187-188

⁵ عبد المجيد، جميل، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصِّية، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1998، ص143

الإضافيّة المُختلفة: (الوصل): في بنيات متوازية أو معكوسة، سواء لمشارك واحد أو لمشاركين ويتحدّد الوصل في بعض الكلمات مثل: الواو، وبالإضافة، وعلاوةً على ذلك، وأيضًا، وفوق ذلك.

الثنائيّة الإبدالِيّة: (أو): تربط بين طرفين أو موقفين أو حدثين أحدهما بديل للآخر.

الثنائيّة التّقابليّة: (لكن): تربط بين طرفين أو موقفين أو حدثين متقابلين.

الثنائيّة المُقارنّة: (أفضل من، ك، مثل): فهي تقارن بين طرفين أو حدثين أو موقفين.

2. التبعيّة (Subordinate):

أ. مؤهّلة: الإجمال والتّفصيل: إيراد معنى على سبيل الإجمال، ثم تفصيله أو تفسيره أو تخصيصه.

ب. منطقيّة: (السبب والأثر / الوسيلة والنتيجة / الشرط والجواب / المفترض والنتيجة / السبب والنتيجة / الوسيلة والغرض / الأساس والتحقق)

3. الوصف (Character):

أ. وصف الكل أو الجزء.

ب. وصف الكيفية.

ت. وصف المحيط أو الإطار (الزمان/المكان/الظرف).

كما أنّني أخصّ بعض العلاقات بشيءٍ من التّفصيل لبروزها وشيوع استخدامها في اللّغة العربيّة عمومًا وفي القرآن خصوصًا بما يتناسب مع مجال البحث أبرزها:

أولًا: علاقة السّؤال والجواب:

تقوم علاقة السّؤال والجواب في تكوين تماسكٍ دلاليّ بين السّؤال وجوابه بشكلٍ جليّ، خاصّةً إذا استلزم النّص وجودَ حواريّة قائمة على الاستفهام، والغايات التي يقوم عليها السّؤال تُسهم في إبراز المقاصد، وتُظهر ولو من طرفٍ خفيّ جوانب تُضيء النّص وتفتح أبوابًا للمتلقّي لفهم النّص، كما وتُسهم في بناء موضوع النّص بشكلٍ عامّ، وتتكوّن هذه العلاقة بأسماء الاستفهام وحروفه، أمّا أسماء الاستفهام فهي: من، وما، ومتى، وكيف، وكم، وأين، وأتى، وأي، وماذا، ولماذا، وأي، وإيان، وأمّا حروفه فهي الهمزة وهل.

ويظهرُ الاستفهامُ في اللغة العربية لأغراض عديدة منها النفي، والإنكار، والتّمني، والتّشويق، والتّوبيخ، والتّعجب، والتّحسّر، والوعيد، والتّعظيم وغيرها، ويُمكن للمتلقّي من خلال السّياق أن يصل لغرض الاستفهام، وهدفه من ذلك تحليل النّصّ وفهمه.

وقد يُستفهم عن شيء مجهول، أو معروف، أمّا المجهول فغايتُه المعرفة وأمّا المعروف فيُستفهم به لغاية أخرى يُظهرها السّياق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:17]، فالعصا معروفة للمستفهم وهو الله -عزّ وجلّ- ولكن جاء الاستفهام لغاية تثبيت المعرفة في قلب موسى لغاية يُظهرها السّياق في آيات تتبّع هذه الآية نشرحها في موضعها، والسؤال عن المعروف عمومًا يترك مجالًا للمتلقّي للبحث عن الغاية من خلال النّصّ والسّياق، فيشكّل ربطًا بين الغاية الواردة في أنحاء النّصّ والحواريّة القائمة على السؤال.

ثانيًا: العلاقة التفسيرية:

لا يحتاج هذا النوع لربط لفظي فيكون المعنى هو الرّابط بين الجملتين إذ تفسّر الجملة الثّانية الجملة التي سبقتها معنى، فتعمل على التّتام النص والتّحاميّة علاقة التفسير التي تربط بين جملتين بحيث تكون الجملة الثّانية مفسرة للجملة السابقة، ويطلق على الجملة الثّالية اسم: الجملة التفسيرية¹.

وعلاوة العلاقة التفسيرية "أن يصح تأويلها بعبارة (أي أن المقصود كذا) فإذا صح هذا التقدير كان ذلك دليلًا على أن الجملة الثّانية تفسير لمضمون الأولى"² فالنّفسير هو إيضاح الشّيء وإزالة المُبهم منه، ذلك أنّ المُرسِل يلجأ إلى "تفسير لفظ أو حكم أوردّه، فيقيم علاقة بين المُفسّر والمفسّر؛ إذ هما في الحقيقة شيء واحد، إلا أنّ المُفسّر يحمل دلالات إضافية، كإزالة إبهام في المُفسّر، أو تحديد المعنى، أو زيادة المُفسّر وضوحًا"³.

¹ يوسف، أحمد عزّت، العلاقات النصية، ص242.

² حسان، تّمام، البيان في روائع القرآن، ص409.

³ التماسك النّصي في نهج البلاغة، ص267.

ثالثاً: علاقة الشرط والجواب (Condition-Result):

الشرط تعليق أمرٍ بامرٍ آخر، فهو علاقة قائمة بين طرفين، الأول شرط لحدوث الثاني، فهي علاقة تقوم بين عنصرين في السياق النصي تجعل العنصر الثاني بمنزلة جواب الشرط للعنصر الأول¹، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ [طه:100] اسم الشرط: مَنْ، وفعله: أَعْرَضَ، وقد وقع جواب الشرط مقترناً بالفاء مؤكّداً بأن: وهذا الأسلوب الشرطي يربط مفاصِل الآيات ويُعَصِّدُ علاقتها ببقية النص، فالإعراض عن ذكر الله هو ممّا تكرر فيه أسلوب الشرط لتأكيد وإبراز حتمية العقوبة، ويكون الشرط بحروف وأسماء، أمّا الحروف فهي: إن، إذما، لو، لولا، لما، أمّا، وأمّا الأسماء فتتقسم إلى:

أسماء ذات: من، ما، مهما.

ظروف زمان: متى، أيّان.

ظروف مكان: أين، أينما، أئى، حيثما.

ظروف فيها معنى الحال: كيفما.

رابعاً: علاقة السبب والنتيجة (Reason – Result):

ثمة علاقة بين السبب والنتيجة وهي ذات حضورٍ واسع في النصوص، وينقل عبدالمجيد جميل عن نايدا أنها علاقة بين حدثين، ويمكن أن تكون قابلةً للتطبيق على بنيات أكثر امتداداً، كما يمكن في حالات أخرى أن تكون قابلةً للتطبيق على أجزاء كاملة من الخطاب، حيث يعرض الجزء الأول السبب، في حين يصف الجزء الثاني النتيجة²، كما أنّ الرّابط بين السبب والنتيجة هو "رابط منطقي"³.

خامساً: علاقة الإجمال والتفصيل:

علاقة الإجمال والتفصيل هي علاقة بين طرفين أحدهما مجمل والآخر مفصّل، "والتفصيل - في ضوء علم اللغة النصي - شديد التماسك بالإجمال، وكلاهما واحد، غير أن التفصيل فيه زيادات وضوابط وتفاصيل تتناسب مع طبيعة الأمر المجمل"⁴ أو بشكلٍ آخر يمكن القول إنّها علاقة بين طرفين "يكون

¹ حنان، تمام، العلاقات الملفوظة والعلاقات الملحوظة، ص178.

² البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص142.

³ الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج2، ص149.

⁴ الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج2، ص180.

أحدهما مُجَمَّلاً، والآخر يُشَكِّلُ تفصيلاً لذلك المُجَمَّل من خلال إيراد عناصر أو أقسام مختلفة تجتمع كلها لتعود بالتالي فتعطي معنى الطرف الأول¹.

سادساً: علاقة التعليل:

تقوم هذه العلاقة على إبراز العلة، كما تُبرز أيضاً التعليل، فالتعليل يحمل بُعداً دلاليًا ولهذا فإنَّ "المرسل يلجأ إلى التعليل زيادةً في توضيح القضية التي يتناولها؛ إذ يجد المتلقون القضية معللةً أمامهم، وهو أمرٌ يحملهم على التفاعل مع الرسالة، فيقتنعون بوجهة نظر المرسل، أو يرفضونها"²

سابعاً: علاقة التذييل:

والتذييل هو أن يردَّ المعنى في وحدة نصية تليها وحدة نصية أخرى تحمل ذات المضمون بمعنى "إذا أتت جملة مستقلة بعد إتمام الكلام، فأفادت معنى الكلام الأول وأكدت وقررت حقيقته فتم التذييل"³، كأن ينتهي الكلام تاماً فيأتي التذييل ليؤكد ما مرَّ بطريقة موجزة.

ثامناً: علاقة الحوار:

والمقصود بعلاقة الحوار هو أن يحتوي النصُّ على حوارية بين طرفين أو أكثر، ولا شك أن توالي القول والرد يُفيد ترابطاً وصلةً بين أجزاء النص⁴، إنَّ النصوص التي تحتوي حواراً في وحداتها النصية تسهم في ترابط المعنى ترابطاً وثيقاً، ذلك أنَّ الحوار يستلزم قولاً ورداً، وتعاقباً بين القول والرد، مما يسهم في انسجام النص.

تاسعاً: علاقة التعليق:

تتطوي علاقة التعليق على المغزى أو الغاية التي جاءت لأجلها هذه القصة، وقد عرّفها الباحثون بأنها: "العلاقة النصية الرابطة بين معاني القصة الواردة وما يليها من كلام هو بمثابة

¹ الوداعي، عيسى، التماسك النصي في نهج البلاغة، ص270.

² نفسه، ص261.

³ يوسف، أحمد عزت، العلاقات النصية، ص234.

⁴ نفسه، ص249.

التعقيب أو التعليق على ما ورد في القصة ويتضمن هذا التعقيب في الغالب التذكير بالغاية التي من أجلها سبقت هذه القصة¹

عاشراً: علاقة التّقابل:

والتّقابل يكون بين الوحدات النصّية، فهذه العلاقة تنشأ بطريقةٍ ونظمٍ يكون فيه "مضمون الوحدة النصية الثانية أو التالية مقابلاً لمضمون الوحدة النصية الأولى أو السابقة"²، وتقوم علاقات التّقابل على ربط الوحدات النصّية، ولهذه الخاصية امتياز شدّ الانتباه ذلك أنّ التّقابل عادةً يُنيرُ انتباه المتلقّي ويحفّزه للوصول للغاية الدلالية أو الفكرية الذي يُريدها المرسل، ولعلّ المراد منها هو المقارنة ولفت الانتباه إلى التناقض بين شيئين.

¹ يوسف، أحمد عزّت، العلاقات النصّية، ص260.

² نفسه، ص255.

"العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظلّ ثلاثة عشر

قرنا كاملا بنصّ هذا مبلغ صفائه ودقته."

سير وليم موير.

خصوصيّة النصّ القرآني:

لما كان مدارُ بحثنا وتحليلنا هو النصّ القرآني "المكتوب بين دفتي المصحف الشريف، والذي نذهب نحن معاصر المسلمين وبالإجماع، إلى أنه كلام الله المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه"¹ فنحن لا نقفُ أمام نصّ من إبداع إنسانيّ، أو اجتهدٍ لشخصيّة لها وجاهتها الأدبيّة أو الاجتماعية أو الدنيّة، وإنّما أمام نصّ له خصوصيّة في الدّراسة والبحث والتحليل، يكتسب هذه الخصوصيّة من مصدر الوحي الذي به نزل، فلا هو من صنيع البشر ولا لهم فيه يد، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:4]، لذلك نُعارض من اعتقد بأنّ الله أوحى بالقرآن لمحمّد بمعناه فقط، وقد ترجم النبي هذه المعاني إلى قومه ليفهموه²، فالقرآن مصدره إلهي لفظاً ومعنى، وإذ نحلّ هذا النصّ نتعامل معه بخصوصيّة أي بوصفه نصّاً إلهيّاً لم تتدخل فيه يد بشريّة قط، وهو محفوظ من الله - عزّ وجلّ - ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:9]، وهذا اليقين المطلق مأخوذ من النصّ باعتباره مصدر إيمان وثقافة.

غير أنّ الاتجاهات الحداثيّة ذهبت إلى تعميم الشكّ على كلّ مستويات النصّ القرآني كما يُعبّر طه عبدالرحمن، فقد استخدمت هذه الاتجاهات آليّة التشكيك، وارتابت في أصل النصّ وقُدسيّته، ونتج عن ذلك اضطراب في تحليلاتهم للنصّ القرآني³ ذلك أنّ الوصول لمعاني القرآن تتطلّب اليقين والإيمان لا الشكّ والارتياب "إذ كلّما زاد الإيمان بالقيمة، زاد انكشافها للمؤمن بها، وكلما نقص إيمانه بها، نقص انكشافها، حتى يضمحل عند تمام الارتياب فيها"⁴، وفي ذلك يقول الرّاعب الأصفهاني: "القرآن وإن كان هداية للبرية فإنهم لن يتساووا في معرفته وإنما يحيطون به بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم فالبلغاء تعرف من فصاحته والفقهاء من إحكامه والمتكلمون من براهينه العقلية وأهل الآثار من قصصه، ما يجله غير المختص وقد علم أن الإنسان بقدر ما يكتسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه"⁵، فالتمسك بالثقافة الدنيّة والمحافظة على قُدسيّة القرآن هو الطريق الذي ينبغي اختياره أثناء تحليل القرآن.

¹ جرادي، شفيق، الوحي ونقد النصّ الدّيني، ط1، دار المعارف الحكميّة، بيروت، 2014، ص29.

² أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النصّ، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2014، ص40-80.

³ عبدالرحمن، طه، روح الحداثة، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006، ص192.

⁴ نفسه، ص192.

⁵ الأصفهاني، أبو القاسم الرّاعب، مقدّمة جامع التّفسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة، تحقيق أحمد فرحات، ط1، دار

الدّعوة، 1984.

والحق أنّ دراسة النصّ القرآنيّ وفهمه وإدراك معانيه يحتاج إلى دراية وموهبة وقدرة مع الأخذ بأسباب النزول ومعرفة سياق السورة ممّا لذلك بالغ الأثر في بناء التحليل، كما أنّ العودة إلى كتب التفسير ضروري، ذلك أنّ آراء المفسرين السابقين قد تكون ضوئاً على الطريق، ولكنها لا يجوز أن تقفل أبواب التفكير أمام الفرد وتصيب دماغه بالتحجر والجمود¹ فلنأخذ منهم أخذ اليقين القاطع، بل نتحصن الآراء ونفاضل بينها فأقولهم قابلة للمفاضلة فنبحث عن أكثرها وجاهة وقوة، ذلك أنّ القرآن هو محلّ القداسة والتّزيه أمّا ما دار حوله من علم فهو مدار للخطأ والنقاش والتحليل والمفاضلة فهو نتاج بشريّ، إلّا ما استند إلى قول الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- ذلك أنّه الموصوف من قبل ربّه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم:3].

إنّ تحليل القرآن ودراسته وتدبره هو وسيلة لفهم معانيه وإدراكه، وما هذه الدراسات الحديثة إلّا وسيلة من وسائل فهم القرآن، لقد أنزل الله -عز وجل- القرآن وبعث نبيّه -صلى الله عليه وآله وسلم- فأوضح معانيه، ودعا العقول لتدبره والتفكر فيه، فهذه المعاني القرآنيّة لم تُخلق لتكون عصيّة على فهم الإنسان فهذا خلاف المنطق، يحتاج الإنسان للخوض والبحث والدراية والتأمّل ولكنه قابل للفهم والدراسة، وإنّ أي محاولة لتضليل هذه الحقيقة هي محاولة لتضليل العقل البشريّ ذلك أنّه من المحال أن ينزل الله القرآن كتاباً فيه التعاليم الإلهيّة التي تُعد مرجعاً للبشريّة وفيه القوانين التي تحفظ الإنسان وتنظّم الحياة ثم يجعلها عصيّة على الفهم! فقد ذهب علي حرب للقول بأنّ: "النص، سواء كان ذا منشأ إلهي أم بشري، إنما هو من حيث فهمه وتدبره وترجماته، عمل بشري دنيوي يخضع للتبدل والتغير، تستوي بذلك جميع النصوص، أكانت دينية أم فلسفية أم أدبية، إذ يستحيل القبض على حقيقتها أو الوقوف على مقاصد أصحابها"² وأنفق معه فيما ذهب إليه في بادئ قوله، في أنّ الفهم بشريّ، ولكنه مدعوم بإيضاح النّبي الذي لا ينطق عن الهوى، ولكنّي أختلف معه في استحالة القبض على حقيقة المقاصد، فالمقاصد لم تُخلق لتكون عصيّة على الفهم، فهذا خلاف المنطق، قد يصدق هذا القول في أنواع أخرى من النصوص كالنصّ الشعري مثلاً خصوصاً بعض أنواع النصوص الشعريّة الحديثة الغارقة بالرمز، ولكن حين يتعلّق الأمر بالنصّ القرآني فالأمر مختلف، فهل ينزل الله كلاماً لنعجز عن فهم معناه؟

يطرح نصر أبو زيد تساؤلاً حول تفسير النصّ القرآنيّ كيف يُمكن الوصول إلى المعنى الموضوعي للنصّ القرآني؟ وهل في طاقة البشر بمخدوبيّتهم ونقصهم الوصول إلى "القصد" الإلهي في كماله

¹ الشيرازي، محمّد رضا، التدبر في القرآن، ط5، دار العلوم، لبنان، 2015، ج1، ص101.

² حرب، علي، هكذا أقرأ ما بعد التفكير، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2005، ص192.

وإطلاقه؟! ويُردف بأنّ هناك مَنْ يتجاهل المفسّر ويُغني وجوده لحساب النصّ وحقائقه التاريخية واللغوية، بينما هناك مَنْ لا يتجاهل هذه العلاقة¹.

أقول لقد أنزل الله القرآن للبشر كافة ليهديهم في مسار الحياة تشريعاً وبناءً وتكويناً، ومن هنا فالعقل والمنطق يوصلنا لحقيقة أنّ القرآن قابل للفهم وإلا لما أنزله الله على عباده، وإنّ أيّ محاولة للاستقصاء من قُدرة الإنسان في فهم القرآن وتحليله ودراسته هي محاولة لتضليل الإنسان عن الحقيقة، فالقرآن كلام الله المرسل الذي أنزله إلى الناس ليهديهم به، فلا بدّ أن تكون الرسالة تتناسب مع إدراك وفهم الإنسان المرسل إليه، فلكل نصّ قرآني مقصد، ولكي يفهمه الإنسان ينبغي أن يكون مُبدعاً و "المؤول المبدع هو الذي يغوص على الروابط الموضوعية والشكلية والذهنية بين النصوص التي تبدو في ظاهرها متنافرة أو مبعثرة وينضح باطنها بخلاف ذلك بعد النظر والتحقيق"².

إننا حين ندرس النصّ القرآني نُحلّله علمياً وفق آيات ومعايير علم النصّ الحديث، وفهم القرآن ليس فوق المستوى الإنساني، بل هو بحاجة للتدبّر «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ» [ص:29]، ومن هنا فدراسة القرآن وتحليله تحليلاً مشروحاً والاختلاف بينه وبين دراسة بقية النصوص هو وجوب الحرص والحدّ في التأويل بما يتناسب مع مقام القول.

ولكن مع ذلك، فإنّ دراسة القرآن لا ينبغي أن يكتفى فيه بالتفسير بالرأي، ذلك أنّ للقرآن خصوصية تتمثّل في كونه نصّاً إلهياً لا يمكن تخطّي مصدره وقُدسيّته، وقد وردت الكثير من الاتجاهات التي تدعو إلى جعل القرآن نصّاً لغوياً مثله مثل أيّ نصّ بشريّ، كما تنقل مواهب الخطيب عن هذه الاتجاهات أنّها ذهبت إلى أنّ القرآن "لا يجوز أن يدرس على أنه كتاب الله بل يجب أن ندرسه بغض النظر عن صاحبه يجب أن ننسى القداسة التي يستمدّها"³ وتترتب على هذه المماثلة اللغوية بين النصّ القرآني والنصوص البشرية النتائج التالية:⁴

¹ أبو زيد، نصر، مجلة فصول، الهرمانيوطيقا ومعضلة تفسير النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1981 ص142

² الزيسوني، قطب، كتاب النصّ القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبّر، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة

المغربية، 2010، ص224.

³ الخطيب، مواهب، تعدد القراءات في فهم النصّ القرآني، دراسة نقدية ص31، وهي تنكّر هذه العبارات تنقّد فيها الاتجاهات

الحداثيّة ومفهوم القراءة، فليس الرأي رأيها وإنما تنقده.

⁴ عبدالرحمن، طه، روح الحداثة، ص180.

أ. السياق الثقافي للنص القرآني: يصبح النص القرآني مجرد نصٍ أنتج وفقاً لمقتضيات الثقافة التي تنتمي إليها لغته، ولا يمكن أن يفهم إلا بالرجوع إلى هذا المجال الثقافي الخاص، بحيث ينزل من رتبة التعليق بالمطلق إلى التعليق بالنسبي.

ب. الوضع الإشكالي للنص القرآني: يصير النص القرآني نصاً يفتح على احتمالات متعددة ويقبل تأويلات لا متناهية.

ولا يغيب عنّا منظور أركان القرآن، فهو كما يرى أنّه " أثر تاريخي تضافرت على تشكيله ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية فصار مشروطاً بمناسبة قوله ومنوطاً بسبب صوغه ومصوراً على طائفة من المؤمنين عاشت ظروف التنزيل الأول، فإن أردنا أن نعتقه من أغلال سياقه التاريخي في العصر الإسلامي الأول، ونستشرف به آفاقاً جديدة، نكون قد انسلخنا من إطاره المرجعي وتعالينا على شروط واقعه وارتكسنا في اللاتاريخ"¹

ولنخرج من إشكاليات الدراسات الحديثة مع تمسكنا بالطريقة الأصلية من العودة للتفسير، وضد التأويلات اللامتناهية حيث أنّ القرآن فيه من البلاغة والفصاحة والإيجاز ما يمكن المتلقي صاحب الكفاءة اللغوية والمطلع على التفسير وأسباب النزول من القبض على معناه وفي هذا الباب نذكر ما نملّيه علينا خصوصية النص القرآني في دراسته.

لدراسة النص القرآني كما يذكر محمد رضا الشيرازي، ينبغي العودة لكتب التفسير، فلا يمكن أن يُفسّر الفرد القرآن وفقاً لآرائه الشخصية فالقرآن نصٌ مقدّس لا يمكن مساواته في التحليل بأي نصٍ بشري، فيحمل اللفظ القرآني على خلاف ظاهره، أو يحمل اللفظ القرآني على أحد احتماليه -دون أي دليل، مثلاً: يحمل "القرء" في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: 228] على الحيض دون الطهر (باعتبار أنّ القرء لفظ مشترك بين الطهر والحيض) من دون أي دليل، أو يتعسف في تأويل آية قرآنية كتأويل آية ﴿أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ [الشورى: 50] فيقوم بتأويل الآية تعسفياً بإباحة الزواج وإباحة الشذوذ، كما لا ينبغي التسرع في تفسير الآيات القرآنية وفق ما يظهر للفرد بادئ الأمر ووفق ظنه الأولي ومن دون الرجوع للآيات والتفسير².

كما أنّه ينبغي لفهم الغامض من القرآن، ينبغي علينا العودة إلى معاجم اللغة، فوجود الغموض ليس سببه القرآن وإنما يعود ذلك إلى "ابتعاد أمتنا عن اللغة العربية الأصلية وليس إلى القرآن ذاته"³ كما ينبغي

¹ الرئيسوني، قطب، النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر، ص 213.

² التدبر في القرآن، ص 35-43.

³ نفسه، ص 51.

العودة إلى السياق العام، والتدبر في أسباب ورود القصص والبحث بين الألفاظ عن لفظة نحل بها هذا الغامض، كما ينبغي علينا للتدبر في آيات القرآن أن نعرف أن "نقطة الالتقاء بين النظام القرآني والنظام الكوني وضع كل شيء في محله الطبيعي المناسب له بحيث يسبب أي تلاعب -ولو كان بسيطاً- خللاً في النظام وفساداً"¹ لذلك ينبغي علينا أثناء تدبرنا القرآن أن نبحث في النظام القرآني، وفي نظام الكلمات فيه، لأننا لا شك سنجد "أن كل كلمة في القرآن وضعت في محلها الطبيعي بحيث لا يمكن أن تسد أية كلمة أخرى مكانها، ولا أن تعطي نفس الأبعاد والظلال التي كانت تعطيتها تلك الكلمة"²، ولا شك أن عظمة المرسل هي التي أعطت هذا التفرّد للنص القرآني ولا يوجد في القرآن ما هو عبيثي، ذلك أن كل جملة وكل كلمة وكل حرف جاء من أجل هدف معين، ولا نجد في القرآن الكريم حرفاً واحداً يمكن الاستغناء عنه"³.

إن خصوصية القرآن تتمثل في كل جانب من جوانبه، فكل شيء فيه بقدر ولهدف وغاية، فحروفه وكلماته وأصواته والشكل الخارجي لآياته، كل ذلك مميزان، لذلك على الباحث أن يتوخى الحذر ويكون دقيقاً في استقصاء ظواهره ورصدها، إذ أن "الشكل الخارجي للآيات لم يأت عبثاً وإنما وضع لحكمة معينة، وللدلالة على فكرة خاصة، من هنا: كان علينا -حين نتدبر في القرآن الكريم- أن نكتشف "الفلسفة الشكلية الخارجية" للآيات القرآنية"⁴

إن دراسة القرآن وتحليله ينبغي أن تكون وفق ضوابط وأطر، فكما أن العودة للتفسير مهمة فكذا ينبغي لفهم بعض الآيات العودة لآيات أخرى من سور أخرى وهذا خاص بالنص القرآني، إذ يمكن فهم آيات نص من نصوصه، بآيات نص آخر إذ يفسر القرآن بعضه بعضاً، وقد عد القدماء هذه الطريقة من أحسن طرق التفسير⁵.

كذلك ينبغي أن ندرك أهمية الربط والعلاقات بين وحدات النصية، فإن "فهم المعنى الحقيقي لكثير من الآيات يتوقف على اكتشاف (الارتباط بين الآيات) ومن هنا نجد أن الذين حاولوا فهم القرآن بشكل تجزيئي أخطأوا في فهم الكثير من الآيات"⁶.

وقد وضع الباحثون شروطاً للتدبر في القرآن منها:¹

¹ التدبر في القرآن ، ص66.

² نفسه، ص66.

³ الشيرازي، محمد رضا، التدبر في القرآن، ص71.

⁴ نفسه، 76

⁵ البرهان في علوم القرآن، ج2، ص175.

⁶ الشيرازي، محمد رضا، التدبر في القرآن، ص85.

1. الملاحظة العلمية الدقيقة: وذلك بطرح أسئلة مختلفة حول مختلف الظواهر القرآنية.
 2. التروي والأناة: فربما لا يصل الإنسان إلى أجوبة للتساؤلات المطروحة حول الظواهر القرآنية وفي هذه الحالة لا ينبغي أن ييأس بل أن يعمل مزيداً من التفكير.
 3. عدم التسرع في تقبل الأفكار: إنَّ للفكرة في بدايتها بريفاً خاصاً لا يقاوم، فعليه ألا يتقبل كلَّ ما يخطر على قلبه بسرعة بل يفكر فيه ويقلبه على وجوهه.
 4. التلمذ على يد القرآن: بأن يُستَـر نفسه وفق ما يريد القرآن لا أن يُستَـر القرآن وفق ما يريد.
 5. الرجوع إلى المصادر وهي اللغة والتفسير والروايات.
 6. الثقة بالنفس فعلى الإنسان -حال تدبره القرآن- ألا يستصغر ذاته وألا يسمح لنفسه بالذوبان في أفكار الآخرين.
 7. الإبداع في استنباط أفكار جديدة ضمن حدود الدين وليس خارجاً عنها لأنَّ ذلك يعني البدعة المنهي عنها.
- ننتهي أخيراً إلى طرح فكرة هامة وهي أنَّ الحداثي كما تتنقل مواهب الخطيب، يرى أنَّ "سور القرآن وآياته وموضوعاته وردت بترتيب يخلو من الاتساق المنطقي"²، كما يعتبر أركون أيضاً عن فكرة مشابهة وذلك بقوله "نحن نعلم أنَّه نادراً ما تشكّل السور القرآنية وحدات نصية منسجمة"³ وإنَّ مهمة بحثنا إثبات تماشك النصِّ القرآني اتساقاً وانسجاماً، دون أن يكون الشكُّ هو الباعث، فإذا كان الحداثي يرى أنَّ سور القرآن تخلو من ترتيب منطقي، فإننا نؤمن بوجود الترتيب ونحاول الاستعانة بآليات علم النص الحديث لإثبات ما نؤمن بوجوده، من اتساق ألفاظ النصِّ القرآني واتصالها، وانسجام معانيه.

¹ ينظر التدبر في القرآن، 97-101.

² مواهب، الخطيب، تعدد القراءات في فهم النص القرآني، ص71.

³ الريسوني، قطب، النصُّ القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر، ص222.

الفصلُ الثَّاني: الاتِّساقُ في سورة طه

"وإنَّ القرآنَ ظاهرةٌ أنيقٌ وباطنةٌ عميقٌ"

علي بن أبي طالب.

يُشكِّلُ الاتِّساقُ وهو المظهرُ الخارجيُّ للنَّصِّ معياراً أساسياً لقياسِ التماسكِ في النَّصِّ، على الرَّغمِ من أنَّه قد ثبت في دراساتٍ متعدِّدةٍ أنَّ مقارنةَ الاتِّساقِ لا تفسِّرُ تماسكَ النُّصوصِ، ذلك أنَّ النَّصَّ قد يحتوي على أدواتِ الاتِّساقِ ولا يكون متماسكاً، وقد يكون خالياً من أدواتِ الاتِّساقِ جملةً، ومع ذلك يكون متماسكاً¹ غير أنَّنا ننطقُ معه في شقِّه الأوَّلِ فقد يكون النَّصُّ متَّسقاً ولكنَّه غير متماسكٍ وهذا يحدث حين يمتلك المرسل الوسائلَ التركيبيَّةَ والمعجميَّةَ والصَّوتيَّةَ ولكنَّه عاجزٌ عن صياغة معانيه في هذا القالبِ، فيكونُ في أبهى خُلِّهِ التركيبيَّةِ ومع ذلك يكونُ خالياً مع الانسجامِ الدَّلالي فيفقد تماسكه، ولكنَّنا نختلفُ معه في شقِّه الآخر، ذلك أنَّ النَّصَّ إذا فقد مقوِّماتِ الاتِّساقِ صارَ صعبَ الفهمِ، عسيرَ الإدراكِ، وعجزَ المتلقِّي عن إدراكِ مقصده ومعناه، فالاتِّساقُ معيارٌ أساسيٌّ لقياسِ التماسكِ في النَّصِّ، إذ به ترتبطُ الألفاظُ والجُمْلُ وفقاً للمُستوى الشَّكلي، وهو يقومُ على مُستوياتٍ ثلاثٍ: المُستوى الصَّوتي، والمُستوى المعجمي، و المُستوى التركيبي، وسنخلِّ اتِّساقِ النَّصِّ القرآني وفقاً لهذه المُستويات.

أما المُستوى الصَّوتي فسندرسُ فيه التكرارَ الصَّوتي، وما يكونُ فيه من تقديمٍ وتأخيرٍ رعايةً للفاصلة، واختيارِ ألفاظٍ عوضاً عن أخرى رعايةً للفاصلة، وخصائصِ الفاصلة القرآنيَّة في سورة طه، والجناسِ بنوعيه، جناسٌ يعتمدُ على عددِ الحروفِ ومنه المُطرَف والمذيل، وجناسٌ يعتمدُ على ترتيبِ الحروفِ وهو جناسُ القلبِ، أما المُستوى المعجمي فسنخلِّ فيه المقاطعَ معجمياً منتهين إلى تلمُّسِ رابطٍ بين المقاطع، وذلك من خلالِ استخراجِ الحقلِ الدَّلالي لكلِّ مقطعٍ من خلالِ البحثِ عن الكلمة المفتاحيَّة والألفاظِ الدَّالة عليها، مع دراسةٍ دلالةِ الحقلِ، ثمَّ دراسةٍ العلاقةِ الرابطةِ بين هذه الحُقُولِ المعجميَّة جميعاً في النَّصِّ وما يؤدِّيهِ هذا الترابطُ بين الحُقُولِ المعجميَّة في إيجادِ صلةٍ بين أجزائه، إضافةً لدراسةِ التَّضادِ، والتَّقابلِ، والتَّكرارِ بأنواعه، التَّامِ والتَّكرارِ النَّاقِصِ، وتكرارِ التَّراكيبِ المُتوازنة، والتَّرادُفِ وشبه التَّرادُفِ والكلمة الشَّاملة، و أما المُستوى التركيبي فيدرسُ التَّراكيبَ اللَّفظيَّةَ والصَّيغَ التركيبيَّةَ، وترابطها عن طريقِ وسائلٍ عديدةٍ منها الإحالةُ والحذفُ والوصلُ والاستبدالُ وما تؤدِّيهِ كُلُّ وسيلةٍ من هذه الوسائلِ من دورٍ في ربطِ البُنى النَّصيَّة، إذ يُبنى هذا التَّحليلُ الشَّكليُّ استناداً على وسائلِ الاتِّساقِ تبعاً لعلمِ النَّصِّ.

¹ البوعناني، شوقي، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، ط1، مؤمنين بلا حدود للنشر، المغرب، 2018،

الموسيقى النصّية نابعة من نسيج القرآن اللغوي
ولولاها ما كان للتغني بالقرآن أن يكون متميزًا.
أحمد ويس.

أولاً: المستوى الصوتي:

يحدث الصوت وقعاً فيسهم في تماسك النصّ إذ تختلف تأثيرات الأصوات باختلافها، 'وقع القرآن على الأذان لا يجري على نمط واحد دائماً، بل هو يتنوّع بتنوّع الموضوع: فحيناً يكون إيقاعه هادئاً، وحيناً يكون هادراً، ولكنه في كلّ الأحيان يظهر متلائماً سواءً في تركيب حروفه أو في رصف كلماته بعضها إلى بعض"¹ ومن أهم مظاهر المستوى الصوتي: التكرار الصوتي، فهو يولّد بأنواعه إيقاعاً، يختلف مستوى انتظامه وفقاً للبعد الدلالي، فينتظم حيناً ويشدّ عن سلسلة الأصوات صوتاً لا يتفق دلاليّاً حيناً آخر، أو يتطلب اختلافه عن انتظام بقيّة النّسق مطلباً لإثارة انتباه المتلقّي أو إبراز جانبٍ مهمّ، ومن أبرز مظاهر التكرار في النصّ القرآنيّ هو:

تكرار حرفٍ في الكلمة الأخيرة من الآية وهو ما يُطلق عليه بالفاصلة القرآنيّة، وسميت كذلك "لأنّه يفصل عنها الكلامان، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها"² وهذه الفاصلة تُشكّل بدورها سلسلة صوتيّة من خلال الكلمة الأخيرة من كلّ آية، وتخلق إيقاعاً يُشكّل حلقة وصلٍ بين المقاطع في النصّ الواحد، لتخلق نوعاً من التماسك الذي يؤسّسه هذا الإيقاع الصوتي، وهي "عنصر من العناصر التي تضفي على النصّ القرآني إيقاعاً ما لا يمكن أن توجد دون معنى، بل إنّ أداء المعنى هو الأساس الذي يقتضيها"³ كما أنّ لها "قيمة صوتية ذات وظيفة مهمة تراعى في كثير من آيات القرآن وربما أدت رعايتها إلى تقديم عنصر أو تأخير من عناصر الجملة"⁴، وفي سورة طه نجد تكرار الألف فاصلة قرآنيّة في أغلب الآيات، وقبل رصد الآيات وتحليلها نقف عند حرف الألف كما ورد عند المختصين، ويذكر أحمد مختار عمر مخرج الألف في قوله: "ليس لها نقطة إنتاج معينة على طول مجرى الهواء لأن اللسان يكون معها في واقع الأمر في وضع إراحة أي ممتدا في قاع الفم"⁵، ومخرج الألف وسط الحنك ووسط اللسان، وهو

¹ ويس، أحمد، ثنائيّة الشعر والنثر في الفكر النّقدّي، ص 342.

² الزركشي، بدر الدّين محمّد، البرهان في علوم القرآن، تح محمّد أبو الفضل مكتبة دار التّراث، القاهرة، ب.ت، ج1، ص54.

³ ويس، أحمد، ثنائيّة الشعر والنثر في الفكر النّقدّي، ص 344.

⁴ حسّان، تمام، البيان في روائع القرآن دراسة لغويّة وأسلوبية للنصّ القرآني، عالم الكتاب، ط2، 2000، ج1، ص198.

⁵ عمر، أحمد مختار، دراسة الصوت اللغوي، القاهرة، عالم الكتب، 1997، ص345.

حرف غاري طبقي¹ يتم إنتاج هذا الحرف في الغار والطبق اللين مع وسط اللسان، عن طريق إراحة اللسان في قاع الفم مع ارتفاع طفيف جدا لوسطه في اتجاه منطقتي الغار والطبق اللين² فنجد هذا الحرف، من الحروف التي تنتج عبر إراحة اللسان، كما "ينسب المحدثين الألف إلى مكان ما في تجويف الفم"³، وقد تكررت الألف في أغلب مفاصل النص، وما يؤكد أهمية الفاصلة في النص القرآني مظهرًا صوتيًا هامًا، دلائل عدة منها:

1. التقديم والتأخير رعاية للفاصلة: برز في النص القرآني تقديم ما عادته أن يؤخر، وتأخير ما عادته أن يُقدم، و "التقديم والتأخير في الكلمات القرآنية هو محسوب، وهو دائمًا لوظيفة وهدف"⁴ و "الفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة مهمة تراعى في كثير من آيات القرآن وربما أدت رعايتها إلى تقديم عنصر أو تأخيره من عناصر الجملة"⁵ الذي تحدثه الفاصلة، والتأثير الذي يحدثه تكرار الألف من جرس ووقع في النفس، كما أن له أبعادًا دلالية، فالتقديم والتأخير له غرضان الأول دلالي، والثاني صوتي ومن ذلك قوله تعالى:

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه:67]، خارج القرآن نقول: فأوجس موسى خيفة في نفسه، فتقدم الجار والمجزور وهو يحتوي على ضمير يعود على متأخر لفظًا ولكنه متقدم رتبة وهو "موسى"، وحدث ذلك لمناسبة الفاصلة القرآنية، وقد أورد الزركشي تفسيره في ذلك فوجد أن أصل الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول، لكن أخر الفاعل وهو "موسى" لأجل رعاية الفاصلة وأضاف أن للتأخير حكمة أخرى، وهي أن النفس تتشوق لفاعل "أوجس" فإذا جاء بعد أن أخر وقع بموقع⁶، فنجد أن التأخير أقوى دلالة في خلق حالة تشويق المتلقي لمعرفة الفاعل.

وفي ذلك يقول الدكتور فاضل السامرائي: الكلام في الآيات حول موسى فلو تأخر لفظ موسى أو حذفت فهو معلوم، والأمر الآخر، أن هذا التقديم مهم جدًا في مثل هذا الموقف لأن ظهور الخوف عليه يدل على عدم الثقة لو قال فأوجس خيفة ولم يقل في نفسه، فإيجاس الخوف قد يظهر على ملامح

¹ دراسة الصوت اللغوي، ص321

² نفسه، ص 318.

³ نفسه، ص345.

⁴ محمود، مصطفى، القرآن كائن حي، ص 17.

⁵ حسان، تمام، البيان في روائع القرآن، ص198.

⁶ البرهان في علوم القرآن، ج1، ص62.

الإنسان ولكن موسى ظلَّ خوفه في داخل نفسه، بدلالة قول إبراهيم عليه السلام: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الذَّارِيَات:28]، فخوفه قد ظهرت علاماته على ملامحه، إذا "في نفسه" مهمة لأنه لم يظهر الخوف وعلاماته على موسى، ولو قال فأوجس موسى خيفةً في نفسه، يُحتمل أن يكون ذمًا لموسى، فثمة خوفٌ كامنٌ في أعماق نفسه في الأصل وظهر الآن، وقد جاءت الفاصلة مكملةً للحسن ومكملةً للبيان¹.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:110] أصلُ الجُملة "وَلَا يُحِيطُونَ" علمًا به"، لكن تقدّم شبه الجُملة الجار والمجرور المتعلّق بالفعل يُحيطون على المفعول به، وذلك للاختصاص، فاختصّ المفعول به "علمًا" بما تقدّم عليه، فانتفاء إحاطة العلم تختصّ بالعلم بالله، فعدم الإحاطة علمًا تختصّ بالله، فهو وحده عزّ وجلّ لا يدركه شيء ويدرك كلّ شيء، فيعلم ما بين أيديهم وما خلفهم أي هو مُحيطٌ بهم علمًا ولكنهم عاجزون عن الإحاطة به علما ولذا اختصّ المفعول به بهذا المتعلّق شبه الجُملة -الجار والمجرور-، إضافةً للأهمية الصوتيّة التي تُحدثها فاصلة الألف في المتلقّي.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه:109] أصلُ الجُملة (أَذِنَ الرَّحْمَنُ لَهُ) ولكن تقدّمت شبه الجُملة الجار والمجرور "له" المتعلّقان بالفعل أذِنَ، وقد أحرّ الفاعل وهو الرحمن، وذلك للاختصاص، فاختصاص الإذن بهذه الفئة التي يُشير لها الجار والمجرور "له"، فاختصّ اذنُ الرحمن بهذه الفئة، وكذلك أصلُ الجُملة الثانية (رَضِيَ الرَّحْمَنُ قَوْلًا لَهُ)، وأحرّ الفاعل لوجود ما يدلّ عليه، وتقدّم الجار والمجرور المتعلّق بالفعل رَضِيَ على المفعول به قَوْلًا، وذلك للاختصاص، فاختصّ الرضا من الرحمن لقول هذه الفئة التي يُشير لها القرآن بالجار والمجرور، تأخّر الفاعل في الجُملة الأولى وتأخّر المفعول في الجُملة الثانية، وذلك لإبراز هذه الفئة التي تتألف الشفاعة، فقد اختصّت الشفاعة وحُصرت على هاتين الفئتين، إضافةً للأهمية الصوتيّة التي تُحدثها فاصلة الألف في المتلقّي.

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ [طه:76] أصلُ الجُملة: (جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا) ولكن قدّم المهم وهو وصفُ الجنّاتِ لترغيب المتلقّي، وفي تذييل الآية يُجمل بأن هذه الجنّات وما فيها هي جزاء من تزكّى، ولعلّ تأخيرها جاء أيضًا لأهمية الفاصلة القرآنيّة.

¹ السامرائي فاضل، لمسات بيانيّة islamiyaat.com

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه:129] يذكر الزركشي في برهانه نقلاً عن ابن عطية: "فإن قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ معطوف على ﴿كَلِمَةٌ﴾ ولهذا رفع، والمعنى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ في التأخير ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ كان العذاب لازماً. لكنه قدم وأخر لتشتبك رؤوس الآي"¹

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:36] أصل الجملة: (قال يا موسى: قد أوتيت سؤالك) ولكن آخر المنادى وقدم القول ولعل التقديم ورد لأمرين: الأول لأهمية القول ولأن موسى متلهف لسماع البشارة ولذا قدّمت على موسى، فالله تعالى يبشر موسى باستجابته وإيتائه سؤله مؤكداً بأداة التوكيد قد، والثاني أن لفظ موسى أُخِرَ رعاية للفاصلة، إضافة لذلك فإن الله عز وجل إنما جاء بالمنادى مع وضوحه في الحوارية الواردة في النص القرآني، تشريعاً له بعد تبشيره بإجابة سؤاله.

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه:70] أخر لفظ موسى في هذا النص، ولكنه في مقام آخر في سورة الشعراء والأعراف قدّم، وأخر لفظ هارون، ولعل هذا يحدث لأهمية الفاصلة القرآنية، وفي ذلك يذكر فاضل السامرائي تعليلاً مفاده أن ذكر هارون تكرر كثيراً في سورة طه، وجعله الله شريكاً في تبليغ الدعوة، أما في الشعراء فلم يذكر هارون إلا قليلاً فليس لهارون دور كبير ظاهر في سورة الشعراء وإنما التركيز على موسى، أما في طه فالتركيز مشترك بين موسى وهارون، وذكر خوف موسى لما ألقى السحرة ولم يذكر خوف هارون، بينما في الشعراء الكلام كله لموسى ولم يذكر الخوف فقدّم موسى، أما في سورة الأعراف فلم يرد ذكر هارون إلا مرة واحدة وفي ذلك يعلّل فاضل السامرائي تقديم موسى في سورتي الأعراف والشعراء كما أورد دلالة أخرى مفادها أنه في سورة الشعراء قال للملأ إن هذا لساحر فالتركيز على موسى وحده ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء:34] دون هارون، أما في سورة طه فيقول: ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَا يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتْلَى﴾ [طه:63] فالتركيز على موسى هارون²

ونعلق على ما أورده فاضل السامرائي فنقول: لعل عدم ذكر خوف هارون هو بسبب عدم ظهور الخوف على وجهه، أو لعل الخوف لم يُصبه، ولذا قال السحرة آمناً برّب هارون فقدّموا هارون وأخروا موسى، لما وجدوه منه من صلابة ولأنهم لم يجدوا منه خوفاً ظاهراً في ملامحه ولعله أظهر تماسكاً في

¹ البرهان في علوم القرآن، ج1، ص63.

² <https://www.facebook.com/fadelsalehsamra22y/posts/210700109347159>

نفسه، ويُمكن أن تُضيف، إنّ الله عزَّ وجل لما بعث موسى عليه السَّلام لفرعون المتجبر، انتاب موسى الشَّعور بالخوف، فأراد أن يكونَ له وزير من أهله يكون شريكاً له، يشدُّ به الأزر، وقد ذكرت سُورة طه هذه التَّفاصيل، من حاجة موسى إلى أخيه، وطلب المعونة من الله لإشراكه معه في الأمر، وبيان أمر عُقدة اللِّسان، ثمَّ بيان مشهد موسى وهارون أمام فرعون في مواجهةٍ كلاميةٍ فبرزت شخصيّة هارون بوصفه سنداً يتقوى به ولعلَّ ذلك كان السَّبب في تقديم لفظ هارون على لفظ موسى.

وهناك من يذهب إلى أنّ "تأخير لفظ موسى عن لفظ هارون أو تقديمه عليه في فواصل الآيات ربما لم يكن مراعاةً للفواصل فحسب، أي أنّ التَّقديم في أحد الموضعين لا يغني عن التَّأخير، بل كان الموضعان مُعَبِّرين عن دقّة في نقل أقوال السَّحرة، إذ من غير المتوقَّع أن يتكلَّم السحرة بقولٍ واحد ولا سيما أنّ حالهم حال اندهاش فلعلَّ نفرًا منهم قدّم ذكر موسى على هارون، ونفرًا آخر قدّم ذكر هارون، ولذا فإنَّ الموضعين يتكاملان في التَّعبير عن القصّة"¹

2. اختيار ألفاظٍ عوضاً عن أخرى رعايةً للفاصلة: مِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿لِئَلَّيْكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه:23] "الكُبْرَى" وهو مؤنَّث أكبر، بدلاً من الكُبريات أو الكُبر² وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَقُتْنَاكَ فُتُونًا﴾ [طه:40] "فتونًا" بدلاً من فتن، وهو مصدرٌ أَخَّرَ للفعل³

3. ورود الفعل المتعدّي دون مفعوله رعايةً للفاصلة: وقد وردَ في النَّصِّ نسقٌ مُتكرِّر، من وجود الفعل المتعدّي دون مفعوله، و إحدى أسباب الاستغناء عن المفاعيل هو لازمة الفاصلة القرآنيّة، فُحذفت المفاعيل وظهّرت الألف في ختام كُلِّ آيةٍ، تُؤدّي دورها الإيقاعي الَّذي يُحدثه هذا التَّكرار، ومن ذلك قولُهُ: ﴿إِلَّا تَذَكَّرْ لِمَنْ يَخْشَى﴾ [طه:56]، و قَوْلُهُ: ﴿فَكَذَّبَ وَ أَبَى﴾ [طه:21]، و قَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ [طه:61]، و قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:122]، فالأفعال "يخشى" و"أبى" وافتري و"هدى" جميعها أفعال مُتعدّية ولكنّها وردت دون مفاعيلها، وقد وردت الكثير من الأفعال قياساً على ما ورد، ويتجلى في ذلك أهميّة وجود هذه الفاصلة.

¹ ويس، أحمد، ثنائِيّة الشَّعر والنثر في الفكر النّقدّي، ص342.

² الصّافي، محمود، الجدول في إعراب القرآن، ط2، دار الرشيد، بيروت، 1988، ج8، ص294.

³ الجدول في إعراب القرآن، ج8، ص301.

ذَكَرْنَا فيما سَبَقَ دلائل تُؤَكِّدُ أهميّة وجود الفاصلة القرآنيّة، وعرفنا أنّ وجودها لم يكن بلا غاية، إذ ثمة غاية جليّة لوجود هذا الإيقاع المتكرّر المنتظم في أغلب آيات السّورة، وقد وقفنا عند صفات الألف ووجدنا أنّ الألف حرفٌ ساكنٌ دائماً يجب أن يتقدّم عليه حرفٌ مفتوح، وهو يخرجُ من جوف الفم أي من الفراغ الموجود بين الحلق والفم، وهو حرفٌ رخو قابلٌ للمطّ والنّطوِيل، والألف حرفٌ منفتح لا إطلاق فيه، فلا ينحصرُ صوته بين طَرَفِ اللّسانِ وأقصاه مع قُبّة ظَهَرِ الحنك فلم يكن وجود الألف اعتباطاً، فهو يتناسبُ في خصائصه الصوتيّة مع المقام، وليست قطب صاحب الظلال قولٌ جميل في وصلِ هذا الصوت بالدّلالة في قوله: "والإيقاع الموسيقي للسّورة كلها يستطرد في مثل هذا الجو من مطلعها إلى ختامها رخيّاً شجيّاً نديّاً لذلك المدّ الذّاهب مع الألف المقصورة في القافية كلها تقريباً"¹ وهذا المدّ الذّاهب مع الألف يتناسبُ مع ظلّ السّورة الخاصّ الَّذِي يختصُّ بها وهو "ظلّ علوي جليل، تخشع له القلوب، وتسكن له النفوس، وتعنو له الجباه، إنه الظل الذي يخلعه تجلي الرحمن على الوادي المقدس على عبده موسى، في تلك المناجاة الطويلة، والليل ساكن وموسى وحيد، والوجود كله يتجاوب بذلك النجاء الطويل"²، فهذا سياق السّورة وهذا صوت الألف يخرجُ مرآةً لدلالاتها، متّسقاً مع معانيها، يتركُ أثراً في النّفسِ شبيهاً بمشهد وحدة موسى ومناجاته مع ربّه، وشبيهاً بمشهد آدم وهو يخطو على الأرض بعد أن أُخرج من الجنّة، وشبيهاً بمشهد مُحمّد -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو يتلقّى هذه السّورة مُحاطاً بهذه الأجواء وبعناية خاصّة من الله، يتلطفُ ويترقّقُ به، وشبيهاً بإحساس المتلقّي وهو يقرأ النّصّ مُفعماً بجو روحانيٍّ إلهيٍّ تتجلّى فيه عناية الله ولطفه بأنبيائه وحمله رسالته ومن يتّبع ذِكْرَه، فيشكّل نسقاً يأخذ المتلقّي من أوّل النّصّ ليطوف في ضفاف قصص النّبيين موسى وآدم، منتهيّاً إلى حتميّة النّهاية فمن تذكر نال اللّطف والرعاية، ومن أعرض فله ضنك العيش، اتّساقٌ يجمع تلابيب النّصّ خالفاً جوّاً يتناسب مع مقام الرّحمة الإلهيّة الَّذِي يتجلّى في لفظ الرّحمن.

¹ سيّد قطب، في ظلال القرآن، ط25، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1996. مجلد4، ص 2327.

² نفسه، ص2327

خصائص الفاصلة القرآنية في سورة طه:

الفواصل القرآنية حصلَ بينها تماثل في الوزن:

فاصلة الألف: تكررت فاصلة الألف في أغلب الآيات، وجاءت في عدد كبير من الآيات في أماكن متفرقة على وزن واحد: (حركة ساكن حركة ألف) = (حركة ساكن فتحة ألف) فهذا التماثل في الوزن وصوت الفاصلة القرآنية له أهمية كبرى في ربط جميع مفاصل السورة، وخلق إيقاع يتكرر في أذن المتلقي مشكلاً حالة من التناغم الصوتي الذي يضمن نوعاً من التماسك ومنه قوله: ﴿يَخْشَى﴾ [طه:3]، وقوله: ﴿أَخْفَى﴾ [طه:7] وقوله: ﴿تَسْعَى﴾ [طه:20]، وقوله: ﴿يُوحَى﴾ [طه:13] وقوله: ﴿أُخْرَى﴾ [طه:18]، وقوله: ﴿يَطْفَى﴾ [طه:45]، وقوله: ﴿يَنْسَى﴾ [طه:52]، وقوله: ﴿شَتَّى﴾ [طه:53]، وقوله: ﴿أَلْقَى﴾ [طه:65]، وقوله: ﴿أَبْقَى﴾ [طه:71]، وقوله: ﴿نَفَعَا﴾ [طه:89]، وقوله: ﴿عَلِمَا﴾ [طه:98]، وقوله: ﴿ذَكَرَا﴾ [طه:99]، وقوله: ﴿وَزَرَا﴾ [طه:100]، وقوله: ﴿جَمَلَا﴾ [طه:101]، وقوله: ﴿زُرْقَا﴾ [طه:102]، وقوله: ﴿عَشْرَا﴾ [طه:103]، وقوله: ﴿أَمَتَا﴾ [طه:107]، وقوله: ﴿هَمَسَا﴾ [طه:108]، وقوله: ﴿قَوْلَا﴾ [طه:109]، وقوله: ﴿عِلْمَا﴾ [طه:110]، وقوله: ﴿هَضَمَا﴾ [طه:112]، وقوله: ﴿ذَكَرَا﴾ [طه:113]، وقوله: ﴿عَزَمَا﴾ [طه:115]، وقوله: ﴿تَضَحَّى﴾ [طه:119]، وقوله: ﴿يَبْلَى﴾ [طه:120]، وقوله: ﴿يَشْقَى﴾ [طه:123]، وقوله: ﴿ثَنَسَى﴾ [طه:126]، وقوله: ﴿تَرْضَى﴾ [طه:130]، وقوله: ﴿أَبْقَى﴾ [طه:131]، وقوله: ﴿نُحْرَى﴾ [طه:134]

فاصلة الياء: وردت فاصلة الياء في بعض الآيات، وقد كسرت النسق القائم في السورة على الألف، وقد وردت الياء فاصلة في بعض المواضع متفردة على نحو يكسر نظام التوقع لدى القارئ وبذلك تكسر نظام النسق على نحو واضح ولافت فينبه المتلقي إلى شيء خفي يميز هذه الآية بين مجموع آيات فواصلها الألف، ومن ذلك قوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:14]، ولعل تخصيص هذه الآية بفاصلة الياء فيه تنبيه على شيء مهم في هذه الآية، وهو الصلاة.

وردت فاصلة الياء في ثلاث آيات في البنية الثانية، آية جاءت قاطعة للنسق وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه:39] و آيتان متتاليتان، في قوله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:41]، و الآية التي تليها: ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه:42]، و هذه كلها من الآيات المؤثرة دلاليًا، وهي مصدر قوة، ذلك أنها آية واضحة ومباشرة في

إعطاء المؤازرة للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، من خلال إبراز حالة مؤازرته لنبيه موسى -عليه السلام-، مع بروز ألفاظ العطف واللين والمحبة، فجاءت هذه الآيات مُنتهيةً بفاصلةٍ مُختلفةٍ لشدّ المتلقي ولفت انتباهه، لإبراز وجود دلالةٍ قويّة، فالصوتُ دعمُ الدلالةِ وأشار إليها من خلال كسر النّسق، مع وجود تكرار لصوت "ذكري" مرتين، في موضعين مختلفين.

وقد وردت الياء فاصلةً في آياتٍ مُتتاليةٍ تحملُ دلالةً واحدةً، وذلك في المقطع الذي يطلب فيه موسى من ربه أن يجعل له سنداً وقوةً، فتتالت ثمانى آياتٍ في نسقٍ واحدٍ مُنتهيةً جميعها بالياء : وذلك في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه:25] ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه:26] ﴿وَاخْلُخِلْ عُقْدَةَ مِنِّي لِسَانِي﴾ [طه:27] ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه:28] ﴿وَاجْعَلْ لِي وِزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه:29] ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ [طه:30] ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ [طه:31] ﴿وَاشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه:32]

ووجود الياء فاصلةً قرآنيةً في هذه الآيات الثمان، ربّما كان داعماً لهذا الرّباط الدّلاليّ المتين بين هذه الآيات، فهو حلقة وصلٍ صوتيّةٍ إضافةً للرّبط الدّلاليّ، ممّا يُشكّل تماسكاً عميقاً، بين السّطح والعمق.

كما وردَ أيضاً في الوحدة النّصيّة الخاصّة بقصة السّامريّ، عددٌ من الآيات المُنتهية بالياء، ومنها قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السّامِرِيُّ﴾ [طه:85] و قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه:86] وقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السّامِرِيُّ﴾ [طه:87] وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٍ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه:88] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه:90] و قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه:93] وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:94] وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ [طه:95]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه:96]

ولم يكن وجود هذه الفاصلة أيضاً من باب المصادفة، فلا يتطلّب وجود الرّخاوة التي يتّصف بها صوت الألف، وإنّما أصبح وجود الياء ضرورةً بما يتناسب مع السّياق، فسياقُ قصّة السّامريّ والعجلِ قد

أزاح شيئاً عن معنى الرَّحْمَةِ وَالْعَطْفِ، وفيه تجسيدٌ لحالة العودة للذنب، والابتعاد عن الذكر والصّد عنه، فتغيّر السياق، إضافةً لذلك فإنّ الحالة التي يعيشها موسى مختلفةٌ عن بقيّة الحالات في السّورة، فهو يعيش حالة الغضب وقلبه يعتصر ألماً على حال قومه، فسياق السّورة في هذا المفصل مختلفٌ، فلا هو الرّضيع الذي ينتقل من كنف أمّه عابراً النّهر بمشيئة إلهيّة ليصل إلى قصر فرعون، ولا هو في الصحراء يبحث عن جذوة نار، وإنّما هو مسؤولٌ يتألّم لضياع قومه حين أعرضوا عن الذكر.

أسهمت الفواصل في خلق إيقاعٍ مُننظمٍ من خلال تماثل الحرف الأخير في نهاية كلّ آية، عضّد ذلك تماثل الوزن وأسهما معاً في خلق أصداءٍ للفكرة الأساسيّة في كلّ النّص، فالشّكل الخارجيّ وما يُحدثه صوت الألف يتوافق مع الدّلالة، فيخلق لدى المتلقّي حالةً من الانسجام مع النّص، مؤطّراً بذلك صورةً في ذهن المتلقّي، عاصفاً بخياله في آفاق رحبة أساسها الرَّحْمَةُ، وقوامها التذكّر والاتّصاف بذكر الله، يُشدّد على ذلك وقع الألف في الأذن وما يُحدثه في النّفس من تصويرٍ لحالة الرَّحْمَةِ والمحبّة الإلهيّة.

كما ورد في النّصّ العديد من الظّواهر الصّوتيّة منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:41]، فقد ورد لفظ "اصْطَنَعْتُكَ" بدلاً من "صَنَعْتُكَ"، تاء الافتعال تدلّ على المُبالغة، فالمعنى المُراد المُبالغة في الفعل صنع، وقد أعطى اللفظ "لنفسى" خصوصيّةً، "وقلّبت تاء الافتعال طاء لمحبتها بعد الصاد وأصلها اصتنعتك"¹، وقد جاءت هذه المُبالغة في القول لغاية فالله -عزّ وجلّ- قد اختبر موسى -عليه السّلام- وامتحنته حتّى استخلصه لنفسه، وفي ذلك يقول ابن عاشور: "الاصطناع صنع الشيء باعتناء: واللام للأجل، أي لأجل نفسي، والكلام تمثيل لهيئة الاصطفاء لتبليغ الشريعة بهيئة من يصطنع شيئاً لفائدة نفسه فيصرف فيه غاية إتقان صنعه"² فقد مرّ موسى -عليه السّلام- بمحنٍ كثيرة و تنقلاتٍ نفسيّة بين الغنى والفقر، وبين الخوف والأمن، منها نشأته في بيت فرعون، ومنها قتله للنفس وما عاشه من خوف ثمّ بقاءه في مدين لسنواتٍ لرعي الغنم، هذه الأحداث جميعاً أدّت لاصطناع موسى، فالإنسان يُصنع من رحم محنته، ويكافأ على عزمه وصبره فهذا كليم الله قد اصطنعه الله لنفسه بعد عزمه وصبره.

كذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:132] فقد ورد اللفظ اصْطَبِرْ، والأصل اصتبر، وهو مزيدٌ بالتّاء، وأبدلت التّاء

¹ الجدول في إعراب القرآن، ج8، ص301.

² الطاهر ابن عاشور، محمّد، التحرير والتّوير، الدّار التّونسيّة للنّشر، 1984، ج16، ص223.

طاءً، والمعنى المراد المُبالغة في الصبر، فجاءت اصطبر بدلاً من اصبر، ذلك أنَّ العبادة تحتاج إلى قوَّة وعزيمة وصبر و "الاصطبار: الانحباس، مطاوع صبره، إذا حبسه، و هو مستعمل مجازاً في إكثاره من الصلاة في النوافل" فعليه أن يصطبر على أداء الصلَاة ولعلَّ هذه هي الغاية لإيراد اللَّفظ بصيغة المُبالغة¹، كذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه:42]، واللَّفظة تَنِيَا، أصلها تونياً، حُذفت فاء الفعل "التَّاء"، ففيه إعلال بالحذف، وزنه تعلا²

ثانيًا: الجناس:

أما الجناس فهو ورودُ كلمتين متشابهتين لفظاً، مُختلفتين معنىً، وقد يكونُ الجناس تامًّا أو ناقصًا، أما التَّامُ ففيه "يتفق المتجانسان في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها وترتيبها"³، وهو أنواع: المتماثل حيث تكون الكلمتان من نوعٍ واحدٍ، والمستوفى إذا كانتا من نوعين كاسمٍ وفعلٍ، والمتشابه وهو الاتِّفاق بين الكلمتين، والمحرف وهو ما يكونُ فيه اختلافٌ في هيئة الحروف فقط.

أما الجناس المتشابه فمنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه:128]، وذلك في "لهم" و"قبلهم"، فهما لفظان مُتشابهان صوتيًا، فلم لفظ تام بذاته، غير أنه أيضًا جزءٌ من اللَّفظ الآخر قبلهم، ولذا فهو يُحدثُ إيقاعًا ملحوظًا في الأذن، وأما الجناس الناقص، فيحدث إذا اختلفت الكلمتان في عدد الحروف أو ترتيب الحروف، أما الاختلاف في عدد الحروف فهو نوعان: الجناس المطرف بزيادة حرفٍ واحدٍ، أو الجناس المذيل ويتم فيه زيادة أكثر من حرفٍ، أما ترتيب الحروف فيسمى بجناس القلب، إضافةً إلى جناس الاشتقاق وهو ما يجمعُ الألفاظ المُشتقة⁴.

أولًا: عدد الحروف: ومنه المطرف والمذيل:

1. المطرف:

¹ الطاهر بن عاشور، التَّحْرِير والتَّوْبِير، ج16، ص233.

² صافي، محمود، الجدول في إعراب القرآن، ج8، ص302.

³ شبل، عزّة، علم لغة النص، النظريّة والتطبيق، ص126.

⁴ نفسه، ص126، 127.

ومنه قوله تعالى: ﴿اَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ [طه:31] و ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه:32]، وذلك في اللفظين: أزري وأمري، باختلاف حرفي الزاء والميم، "والأزر أصله الظهر. ولما كان الظهر مجمع حركة الجسم وقوام استقامته أطلق اسمه على القوة"¹ فطلب من الله أن يشد أزره بأخيه وأن يشركه في رسالته، ولعلّ تجانس الصوتين في الآيتين لإحداث إيقاع صوتي لغاية التنبيه إلى الشخص المعني الذي ارتبطت به الآيتان للمتلقى، وهو هارون، ولذلك نجد الآية التي تسبق الآيتين هي: ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ [طه:30].

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه:130]، وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:133]، وذلك في اللفظين: اصبر واصطبر.

2. المذيل:

ويظهر في قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ [طه:22]، وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه:23]، حيث جرى التجنيس في لفظ أخرى و الكبرى، فاختلف الحرفين الأولين، ومنه أيضًا ما ورد في الآيتين: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه:23] و ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه:23]، وذلك في اللفظين: صدري وأمري، باتفاق حروف المقطع الأخير واختلاف المقطعين الأولين، ومثله أيضًا ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه:28] و ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ [طه:29]، وذلك في اللفظين: قلبي وأهلي، باتفاق حروف المقطع الأخير واختلاف المقطعين الأولين.

ثانيًا: ترتيب الحروف (جناس القلب):

وقد ورد جناس القلب في السورة مؤديًا إيقاعًا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا ابْنُ آدَمُ لَا تَأْخُذْ بِخَبْرِي وَلَا بَرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:94]، وجود جناس ناقص في لفظين "بين" و "بني"، وكذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى﴾ [طه:80]، فوجود جناس ناقص بين لفظين "عدوكم" و "واعدناكم".

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص213.

ثالثاً: جناس الاشتقاق: وهو ما ورد في مواضع كثيرة في هذه السورة مُشكلاً عُصراً إيقاعاً وربطاً بين مفاصِلِ النَّصِّ من خلال تشابه أصواتها إذ يخلق الصوتُ هذا الخيط الرفيع الذي يجعل النصَّ مُتسقاً، ومن ذلك:

1. ﴿وَاجْعَلْ لِّي زَیْرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه:29]، وفي الآية: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ [طه:31]، وقد ورد جناس الاشتقاق بين اللفظين "وزيراً" و "أزري" وجذرهما واحد هو (أ ز ر)، ويعبرُ ابن عاشور عن العلاقة بين الجملتين: "وجملة اشدد به أزري" بيان لجملة "اجعل لي وزيراً"¹ ولعلَّ الجناسَ الواردَ بين اللفظين للتبنيهِ إلى هذه العلاقة بين الجملتين.

2. ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ [طه:38] وذلك في اللفظين "أوحينا" و "يُوحَى"، وهما مُشتقان من ذات الجذر (و ح ي).

3. ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه:40] وقد ورد جناس الاشتقاق في اللفظين "فتناك" و "فتونا".

4. ﴿فَأَتَيْنَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه:47]، وقد ورد جناس الاشتقاق في اللفظين "رَسُولَا" و "أَرْسِلْ" وهما من ذات الجذر (ر س ل).

5. ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثُلَىٰ﴾ [طه:63] ، وقد وردَ جناسُ الاشتقاق في اللفظين: "ساحران" و "بِسِحْرِهِمَا" وهما من الجذر (س ح ر)، وذلك للربط بين سبب الإخراج وهو السحر الذي يأتي به هذا السَّاحِرُ للتأكيد على حدوثِ هذا الشيء، ففرعونُ خلقَ إشاعةً أنَّ موسى وهارون ساحران، لصرفِ انتباهِ القومِ عنهما فهذا دأبُ الطَّغَاةِ حينَ تضيقُ بهمُ السُّبُلُ، ولعلَّ جناسَ الاشتقاق قد وردَ في حكايةِ القولِ للفتِ الانتباهِ لشدةِ تأكيدِ فرعون على نسبِ السَّحَرِ لموسى وهارون.

¹ ابن عاشور، التحرير والتلوين، ج16، ص212.

6. ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه:72]، وقد وردَ جناسُ الاشتقاقِ في الألفاظ: "فاقضِ" و "قاضٍ" و "تقضي"، فجميعها تعود للجذر (ق ض ي)، وورد ثلاثة ألفاظ في آية واحدة من جذر اشتقائي واحد يحدث في أذنِ المتلقي وقعا، ويشدّه نحو الدلالة الموجودة في المقطع، ففيها ما يلفت ذهنَ المتلقي ويشدّه.

7. ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَنْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه:] وقد وردَ جناسُ الاشتقاقِ في اللفظين "بصرْتُ" و "يبصروا" واللفظين "قَبَضْتُ" و "قَبْضَةً" وورودها في آية واحدة يُشكّل قوّة إيقاعية في الأذن وتأثيراً في النفس.

8. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه:133]، وقد وردَ الجنسُ في قوله "يأتينا" وقوله "تأتهم"، وهي مُشتقة من الجذر (أ ت ي).

9. ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه:97]، وقد ورد الجنسُ في لفظين "لَنَنْسِفَنَّهُ" و "نَسْفًا"، وهما لفظان مشتقان من جذرٍ واحد، وجديرٌ بالذكر أن هذا الاشتقاق تكرر لا على مستوى الآية فحسب بل على مستوى السورة أيضاً، فقد ورد مثله في الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه:105] في اللفظين "ينسفها" و "نسفًا" وكلاهما يعود لذات الجذر.

10. ورد جناسُ الاشتقاق بين آيات متفرقة أخرى منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه:] وقوله تعالى: ﴿60﴾ [طه:]، ﴿وَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَقْبَلَ﴾ [طه:64] وقد ورد جناسُ الاشتقاق في اللفظين "جمع" و "أجمعوا"، وكذلك في اللفظين "كَيْدُهُ" و "كَيْدَكُمْ" وأيضاً في اللفظين "أَتَى" و "ائتوا"، فتظهر قوّة إيقاعية من خلال توالي المتجانسات، فيظهر هذا الجنس قوّة صوتية مؤثرة في النص.

11. ورد جنسُ الاشتقاق أيضاً في الآيتين: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه:67]، ﴿فَلَمَّا لَا تَخَفْ﴾ [طه:68]، فالجناسُ يظهر واضحاً في اللفظين "خيفة" و "تخف"، فهما مشتقان من الجذر نفسه (خ و ف)، وهو يُشكّل ربطاً شكلياً بين الآيات.

"... كلمات القرآن كلماتٌ متفردة بذاتها وبخصائصها،
لا تستطيع أن تُغيّر كلمة أو تُبدّل عبارة أو تُقدّم جملة،
فكل كلمة تُمسك بالأخرى مثل الذرات في مجالٍ مغناطيسيٍّ مُحكم،
حتى الحرف في القرآن لا يأتي إلا لضرورة،
ولا يمكنك أن ترفع حرفاً من مكانه أو تستبدله بحرفٍ آخر"
مصطفى محمود.

ثانيًا: المستوى المعجمي:

يُمثّل الاتساق المعجمي أحد مستويات التماسك النصّي، ذلك أنّ العلاقة بين الألفاظ علاقة ملحوظة تتّسم بالقوّة والتأثير، ولها دورٌ مهمّ في وصل أو اصر النصّ، فالإتساق المعجمي: "هو أن يشترك عنصران في الانتماء إلى الحقل المعجمي نفسه (المتلازمات)"¹، ووفقاً لتقسيم النصّ للمقاطع الآتي ذكرها نُحلّل المقاطع معجمياً منتهين إلى رابطٍ بين كلّ هذه المقاطع، والمستوى المعجمي يقف عند حدود اللفظ كما يردّ في المعجم، فنورد لكلّ مقطعٍ من المقاطع كلمةً مفتاحيّةً وهي الحقل المعجمي للمقطع، وألفاظاً دالّةً عليها، كما سندرس التّضادّ والتّكرار.

أولاً: تقسيم النصّ:

المقطع الأوّل: بيان وظيفة الرّسول وحدود تكليفه. (1-8)

المقطع الثّاني: رعاية الله لموسى. (9-98)

المقطع الثّالث: قصّة آدم، الخطيئة والعاقبة. (99-135)

ثانيًا: تحليل النصّ:

ينبغي الإشارة إلى اعتماد القرآن التّكرار، وبروزه ظاهرةً للدراسة والتحليل، إذ أنّ كلّ كلمةٍ مفتاحيّةٍ تتبعها ألفاظٌ هي أصداءٌ لها، فيتكرّر اللفظ بعينه، أو يتكرّر ما يلحقُ به أو ما يحملُ معناه، أو ما يحملُ شيئاً من صفاته، أو أجزائه، وإنّ وقوفنا على الكلمة المفتاحيّة وما هو دالٌّ عليها، إنّما هو من باب إظهار هذه العلاقة بين الألفاظ في البنية الواحدة، وهو ما عبّرنا عنه سابقاً بالتّضام، وللتّضام وسائل منها:

1. الارتباط بموضوع معيّن.

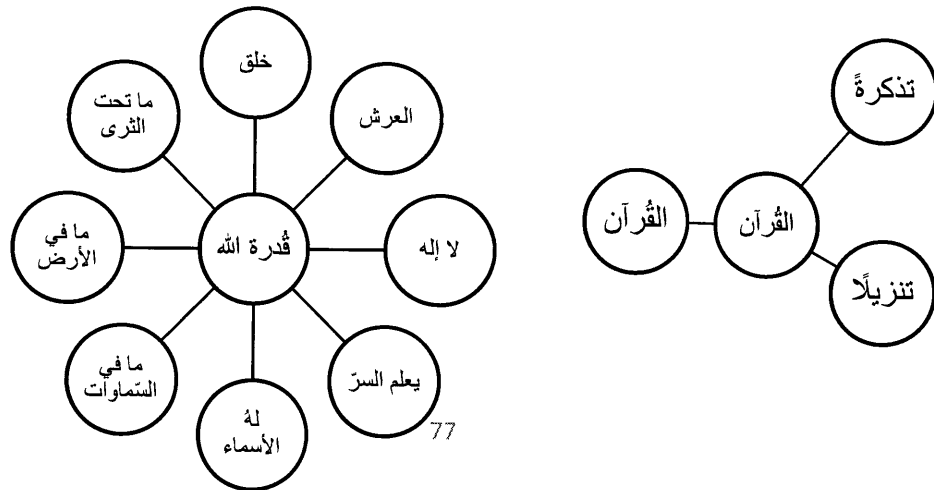
2. التّقابل والتّضاد.

¹ البوعناني، شوقي، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، ص137.

وسندرس الارتباط بموضوع محدّد بشيء من التفصيل وفقاً لبنى النصّ، أمّا المقطع الأول فهو يدور حول معنى أساسي وهو بيان وظيفة الرّسول وحدود تكاليفه، في مقابل معرفة الله - عزّ وجلّ - بما يُحيط بهذا الكون وبما يُخفيه الإنسان في صدره، استقطبت مفردات المقطع حول عنوانين رئيسين: قدرة الله، القرآن.

ومن يُراقب الحقل الأول يجد أنّ كلمات القدرة (العرش، خلق، ما في الأرض، ما تحت الثرى، يعلم السرّ، له الأسماء، وأخفى) لها حضورها الّلافت في هذه البنية الّتي تُعدّ مقدّمةً لهذه السورة، لتبرز لنا قدرة الله عزّ وجلّ، ومظاهر قدرته في شموليّتها لفظ العرش الّذي يدلّ على القوّة والقدرة، ولفظ الخلق الّذي يحمل القدرة على الخلق الّتي اختصّ بها الله - عزّ وجلّ -، ومِمّا يدلّ على القدرة هو إحاطته بكلّ شيء لفظ "ما في الأرض" و"ما تحت الثرى" يحملان هذا المعنى الّذي يفصل في بيان قدرة الله الّتي تشمل كلّ شيء، وقدرته تجعله مُحيطاً بكلّ شيء عالم به فيظهر لفظ "يعلم السرّ" ولفظ "أخفى" وعلمه بكلّ شيء دقيق حتّى ما يختلج في صدر الإنسان هو به عليم فتبرز هذه الألفاظ جانباً من قدرة الله - عزّ وجلّ -، في مقابل ذلك نجد لفظ "الرّحمن" الّذي وجد في مقدّمة النصّ القرآني دُون بقيّة الأسماء يحمل دلالة الرّحمة الشّاملة الّتي تُسهّب السورة في بيانها، بالتمثيل والتّفصيل، فالى جانب القدرة تظهر الرّحمة، فالعرش الّذي هو رمزٌ للقدرة يظهر جنباً إلى الرّحمة الشّاملة، في بيان أنّ قدرة الله عزّ وجلّ وحكمة يكون بالرّحمة. والمُرَاد من هذا الحقل بيان قدرة ووحداية الله ورحمته.

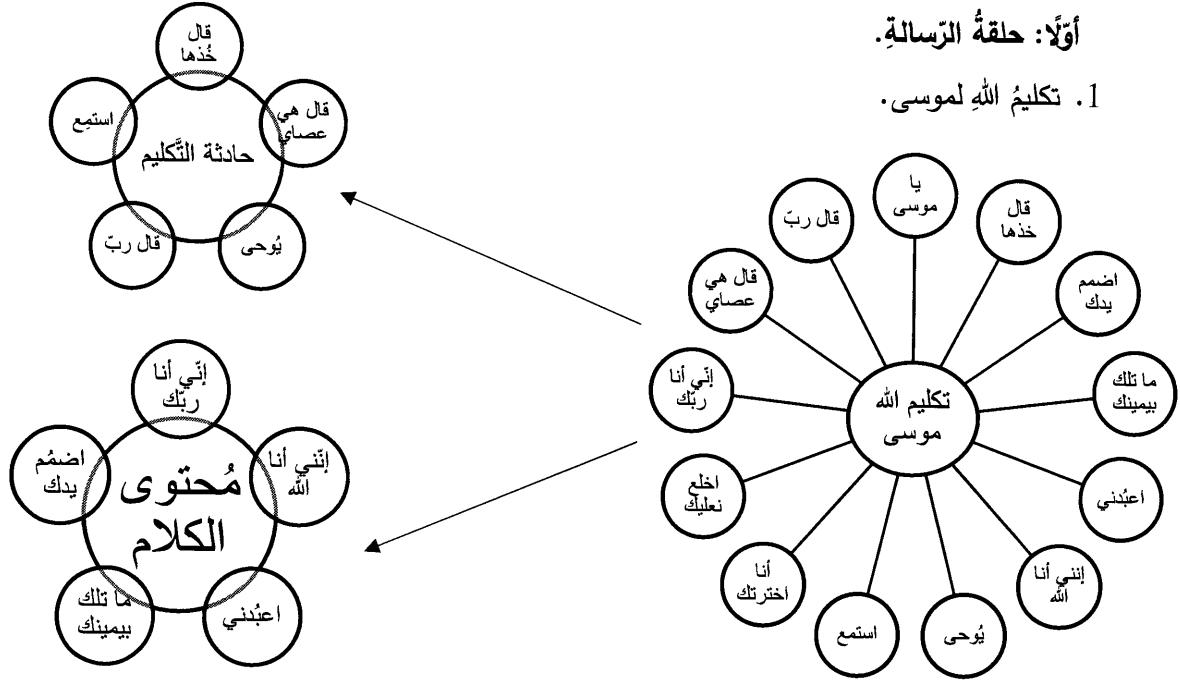
كما تظهر كلمات تدلّ على القرآن (القرآن، تذكرة، تنزيلاً) فنجد هذه الألفاظ الثلاثة تُشير إلى القرآن، أوّلاً تعريفه بلفظه، ثمّ بيان وظيفته وهي التّذكرة وليست الشّقاء بل الاقتصار على تذكير النّاس، ثمّ مصدره فهو منزل من الله - عزّ وجلّ -.



المقطع الثاني: يدور حول رعاية الله لموسى، ومصير بني إسرائيل، ويقسم هذا المقطع لقسمين: الأول هو حلقة الرسالة وتتجلى في ثلاث مراحل: تكليم الله لموسى، وموسى والطفل، وموسى والسحرة، والثاني هو اتخاذ بني إسرائيل للعجل، وسندرس هذه الأقسام بشيء من التفصيل.

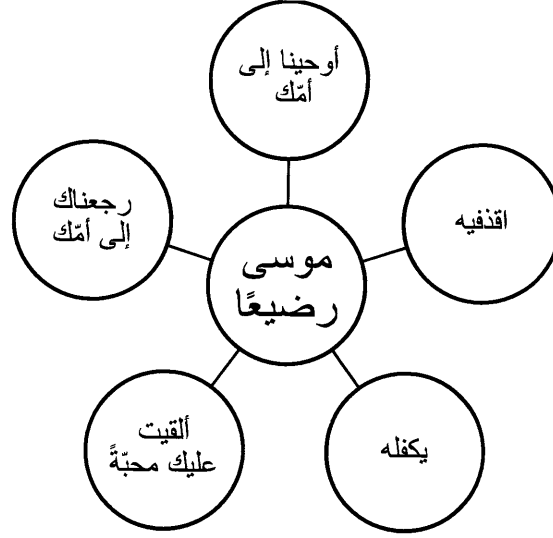
أولاً: حلقة الرسالة.

1. تكليم الله لموسى.



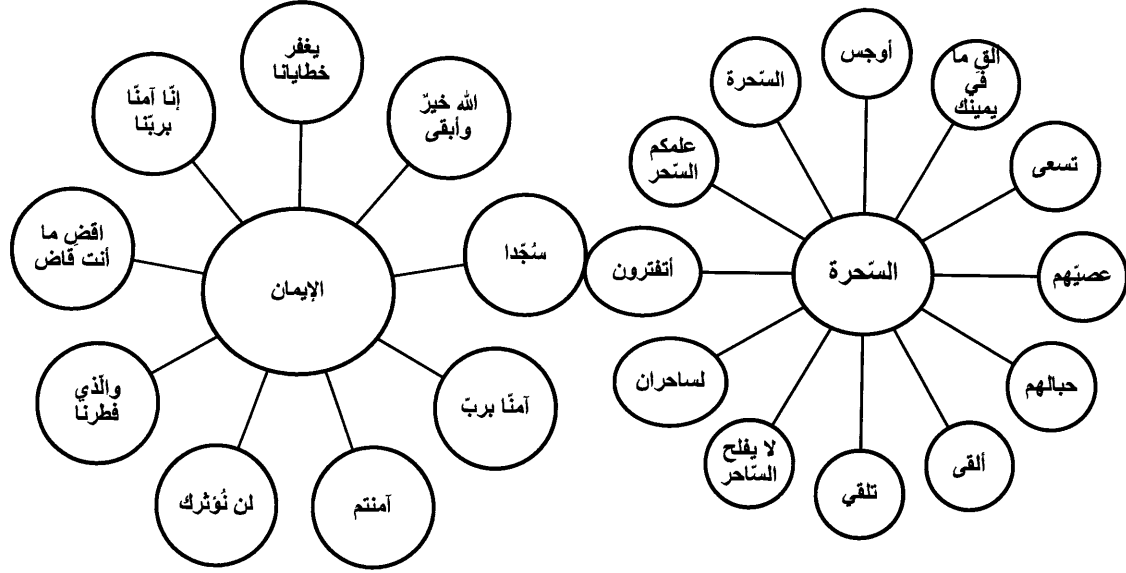
تشكّلت الألفاظ في هذا المقطع حول كلمة مفتاحية واحدة وهي "تكليم الله موسى"، حقلها المعجمي هو حقل تبرز فيه عظمة شأن موسى -عليه السلام- عند الله -عز وجل-، فقد خصّه بتكليمه، فتدور الألفاظ حول هذا التكليم الحاصل بين الله ونبيه، منها ألفاظ تدلّ على عملية التكليم مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا﴾ [طه: 21] وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾ [طه: 25] وقوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: 18]، ومثله في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا﴾ [طه: 19] وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ﴾ [طه: 13]، وقوله تعالى: ﴿يُوحَى﴾ [طه: 13]، وألفاظ تدلّ على محتوى الكلام مثل قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: 14]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: 17]، وقوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: 12]، وقوله تعالى: ﴿وَاضْمُ يَدَكَ﴾ [طه: 22]، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه: 12]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ [طه: 13]، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14] فتتأزر الألفاظ في تشكيل حالة شعورية لدى المتلقي بالتكليم الحاصل بين الله ونبيه، وإن أخفيت الطريقة التي جرى فيها هذا التكليم، ودلالة ذلك هو مساعدة الله لنبيه وقربه منه.

2. موسى رضيعًا.



يُدَوِّرُ المقطعُ على قصَّةِ مُوسَى الطِّفْلِ الَّذِي أُلْقِيَ فِي النَّيِّمِ بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ إِلَى أُمِّهِ، وَ يُدَوِّرُ حَوْلَ الرَّحْمَةِ وَالْعَنَايَةِ الإِلَهِيَّةِ، فَالْفِكْرَةُ الرَّئِيسِيَّةُ تَدَوِّرُ حَوْلَ عَنَايَةِ اللَّهِ بِنَبِيِّهِ فَقَدْ شَمَلَتْهُ عَنَايَةُ اللَّهِ وَلُطْفُهُ بِأَنْ أَوْصَلَهُ النَّيِّمَ لِبَيْتِ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِ، فَأَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ الْمَحَبَّةَ لِنَيْلِ الْحِظْوَةِ وَالْاهْتِمَامِ فِي بَيْتِ هَذَا الْعَدُوِّ، وَقَدْ دَلَّتْ جُمْلَةُ الْأَلْفَاظِ (اقذفه، يكله، ألقيت عليك محبةً مِنِّي، رجعناك إلى أمك، أوحينا إلى أمك) على المشهدِ المؤثِّرِ وعنايةِ اللَّهِ ولطفه بمُوسَى.

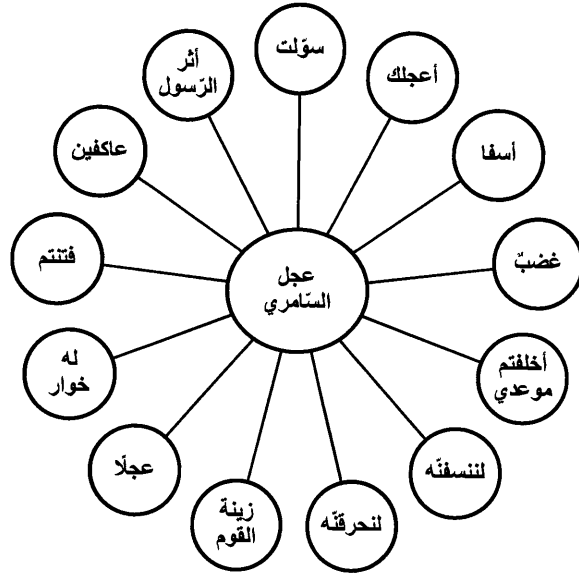
3. موسى والسحرة.



يبدأ هذا المقطع برابطٍ مفصليّ هو: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه:56]، وللمقطع كلمتان مفتاحيتان: الأولى هي السحرة، والثانية هي الإيمان، أما الكلمة المفتاحية الأولى فتصف لنا مشهد موسى والسحرة، وأما الكلمة المفتاحية الثانية فهي الإيمان، التي تدور حول ما أصاب هؤلاء السحرة بعد ذلك المشهد فقد أحدث فيهم مشهد موسى وهو يحول عصاه حقيقة لا سحرًا بالقُدرة الإلهية إلى حية نتيجة قوّة في داخلهم، وهي الهزة التي جعلتهم يؤمنون إيمانًا عميقًا لا سطحيًا دلّت على ذلك الألفاظ ومنها قولهم: ﴿فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه:72] من عدم اكتراثٍ بتهديد فرعون لهم و وعيدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم، وقولهم: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:73]، وقولهم: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [طه:72]، فنقطة تحولٍ حقيقية أحدثتها معجزة موسى في السحرة، يدلّ ذلك على مُساندة الله عزّ وجلّ ونُصرته لموسى بإحداثٍ نتيجة ملموسة في قومه بتأثير المعجزة.

ثانيًا: اتّخاذ بني إسرائيل العجل.

تدور هذه الألفاظ حول كلمة مفتاحية واحدة وهي عجل السامري، حقلها المعجمي هو حقل يبرز فيه ضعف الإنسان وخضوعه لـ شيطان نفسه بالرغم من كل الدلائل التي تُشكّل الإيمان في داخله غير أنه قابلٌ للتزعزع، فهذا العجل الذي اتّخذهُ قوم موسى إلهاً عكفوا عليه برغم كلّ مساعي موسى -عليه السلام-، فعبرت الألفاظ عن صورة هذا العجل وكيفية تشكّله وأثر وجوده في نفس موسى -عليه السلام-، وما أثاره وجوده فيه من خيبة وغضب، و قد جاء هذا الحقل مُغيّراً في توجّهه عن الحقول الثلاثة الأولى من حيث تناوله لحالة الغضب والأسف التي مرّ بها موسى -عليه السلام- بعد حالة التراجع التي مرّ بها قومه، في حين غمرتنا الحقول الأولى في قصّة موسى بألطف العناية الإلهية له، ولهذا جاءت قصّة موسى شاهداً في هذه السورة فمع رعاية الله له بتكليمه، ورعايته له في طفولته، ونصرته وتأييده في دعوته، إلّا أنّ قومه مع شدّة ما وصلوا له من إيمانٍ و يقينٍ بالله انقلبوا حين صدر خوار العجل، فجاءت القصّة شاهداً لضعف الإنسان وتأثير شيطانه، فجاءت الأحداث مؤاسيةً للنبيّ محمّد -صلّى الله عليه وآله وسلم- بأنبياء سابقين مرّوا بما مرّ به، وعانوا مع أقوامهم.



التعقيب على قصة موسى:

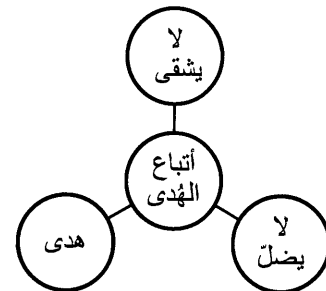
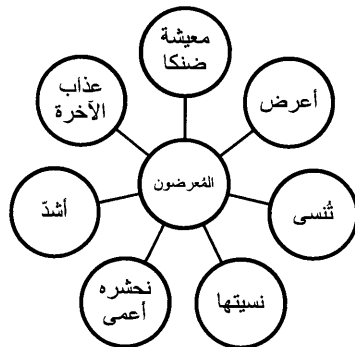
يدور هذا المقطع حول المعرضين وما ينالونه من جزاء، و "المعرضون" هي الكلمة المفتاح وحولها يتشكل حقلٌ معجميٌّ لجزاء هؤلاء المعرضين وعنصره: أعرض - وزر - ساء - حملا - ينفخ - المجرمين، فجزاء من أعرض عن ذكر الله هو الجزاء الذي لا مفر منه يوم القيامة، يدعم هذا الحقل وجود حقلٍ آخر في هذا المقطع كلمته المفتاحية هي الترهيب، ويتشكل هذا الحقل المعجمي الذي يركز على إثارة الرهبة والخوف في نفس المتلقي من خلال إبراز عظمة الله وقدرته على فعل كل شيء وعناصر هذا الحقل هي: الجبال ينسفها، نسفا، يذرها، قاعًا، صفيقًا، خشعت الأصوات، همسا، عنت الوجوه، لا تنفع الشفاعة، خاب.

المقطع الثالث: قصة آدم الخطيئة والعاقبة. (99-135)

1. آدم.

يدور هذا المقطع حول قصة آدم، وتدور حول حقلين معجميين أساسيين هما، السبب والنتيجة، استجلبت الكلمة الأولى حقلًا معجميًا مكونًا من مفردات هي: ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه:115]، ﴿أَبَى﴾ [طه:116]، ﴿فَتَشَقَّى﴾ [طه:117]، ﴿فَوَسْوَسَ﴾ [طه:120]، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ [طه:121]، ﴿سَوَّاهُمَا﴾ [طه:121]، ﴿عَصَى﴾ [طه:121]، ﴿فَعَوَّى﴾ [طه:121]، تشير جميعها إلى أسباب إنزال آدم من الجنة، أما النتيجة فقد وردت في الألفاظ: ﴿اهْبِطَا﴾ [طه:123]، ﴿جَمِيعًا﴾ [طه:123]، ﴿عَنُوتُ﴾ [طه:123].

كما يظهر حقل التضاد لإبراز مآل كل من اتبع الهدى ومن أعرض عن ذكر الله، من خلال العلاقة العكسية الذي يبرزها التضاد في مصير المتبع لهدى الله والمعرض عنه، وتبرز لنا الآيات حتمية المصير، وشدة العقوبة للمعرضين من خلال هذه العبارات: ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه:124]، ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:124]، ﴿نُنَسِي﴾ [طه:126]، ﴿عَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ [طه:127]، ﴿أَشَدُّ﴾ [طه:127]، في مقابل ضمان الثبات للمتبعين لهدى الله من خلال أسلوبين متتاليين للنفي في قوله: ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ [طه:123]، ﴿وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:123].



رُبِطَتْ قِصَّةُ آدَمَ وما آل إليه من حال بمُعْجَمِ التَّضَادِّ الَّذِي يَقُومُ على إبرازِ عناصرٍ من يتَّبَعُ الهدى ومن يُعْرِضُ عنه، حيثُ تقومُ قِصَّةُ آدَمَ الواردة في السُّورَةِ على إبرازِ سببِ استجابةِ آدَمَ وزوجِهِ لوسوسةِ إبليس فقد أَعْرَضَ عن ذِكْرِ الله، فحين نَهَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عن الأكلِ لم ينتهِ، وترتَّبَ على ذلك إنزالُهُ وزوجَهُ من الجَنَّةِ إلى الأرض، "ومع أنَّ توبةِ آدَمَ قد قبلت إلا أنَّ عمله أدَّى إلى عدم استطاعته الرجوع إلى الحالة الأولى، ولذا فإنَّ الله سبحانه أصدر أمره لآدم وحواء كليهما وكذلك الشَّيْطَانُ أن يهبطوا جميعًا من الجَنَّةِ"¹، أمَّا ذنبُ آدَمَ، فلعلَّ ما يتبادرُ إلى الذَّهْنِ هو كيف يعصي آدَمُ رَبَّهُ وهو نبيٌّ، والحقيقة أنَّ السُّورَةَ ذاتها تبيِّنُ أنَّ آدَمَ لم يكن نبيًّا حين عصى، فقَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه:121] دليلٌ على العصيانِ، فالغوايةُ تحقَّقت، وعصى آدَمُ أمرَ رَبِّهِ بالأكلِ من الشَّجَرَةِ، وقد جاء في هذا المعنى ما نقله القرطبيُّ عن الإمام أبي بكر بن فورك: "كان هذا من آدَمَ قبل النبوة ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَنَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ فذكر أن الاجتناء والهداية كانا بعد العصيان، وإذا كان هذا قبل النبوة فجاز عليهم الذنوب وجهًا واحدًا، لأنَّ قبل النبوة لا شرع علينا في تصديقهم فإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه وكانوا مأمونين في الأداء معصومين لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب"² فقد اجتنباه الله وتاب عليه، ومع ذلك الله يبشِّرُ بأنَّ طريق السَّعادة مفتوحٌ، فالله عَزَّ وَجَلَّ يرسلُ حملةَ رسالته، فمن تبعهم فلا يضلَّ ولا يشقى في حين من يُعرضُ فله ضنكُ العيشِ.

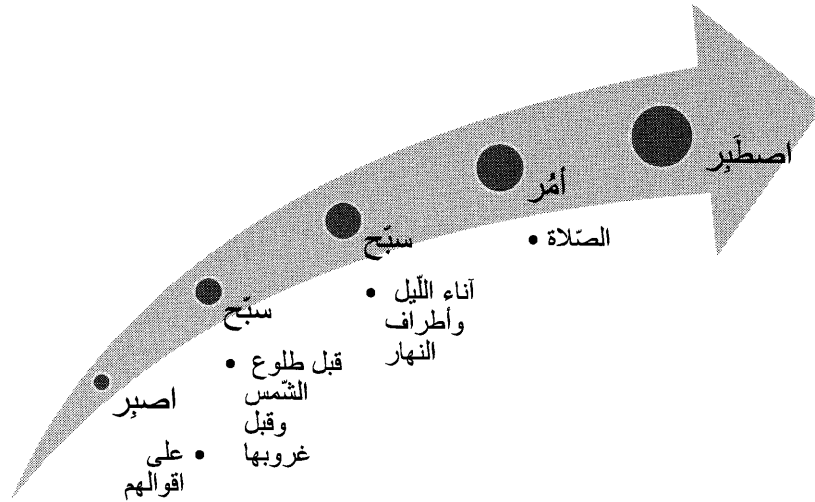
وجاءت الآياتُ الأخيرةُ في السُّورَةِ، تجمَعُ خيوطُ هذه القصصِ القرآنيَّةِ بخاتمةٍ تُسلِّي فيها الرُّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وتؤكدُ الغايةَ الأساسيّةَ الَّتِي لأجلها اجتمعت هذه القصصُ وهذا ما يظهرُ في أفعالِ الأمرِ المتتاليَّةِ وهي: ﴿فَاصْبِرْ﴾ [طه:130]، ﴿وَسَبِّحْ﴾ [طه:130] ﴿فَسَبِّحْ﴾ [طه:130] ﴿وَأْمُرْ﴾ [طه:132]، ﴿وَأْمُرْ﴾ [طه:132] في مقابل فعل نهى واحد وهو: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ﴾ [طه:131]، ووجودُ نهى واحدٍ هو تغيير في نسقِ القول، إنَّ وجودَ هذه الآية بنسقٍ مُختلفٍ لهُ غاية، لعلَّها والله العالم لفتُ انتباه المتلقي وشدَّه، وذلك لأهميَّةِ الأمر، ولأنَّه اقترنَ بالحثِّ على الصَّلاة فلا شكَّ بأنَّ لهُ أهميَّةً بالغة تستدعي شدَّ الانتباه إليها، كما أنَّ وجودَ أفعالٍ أمرٍ متتاليَّةٍ تطلَّبُ كسرًا لشدِّ المتلقي لأمرٍ هامٍّ. وحين نقفُ عند هذه الآية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:131] نجدُ فيها اختلافًا، فبدأت بفعلٍ مسبوقٍ بنهي بعد أفعالٍ

¹ الشَّيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط1، دار الوفاء للطباعة والنشر، 2014، ج10، ص64.

² القرطبي، عبد الله بن محمد، الجامع لأحكام القرآن، ط1 دار الكتب العلميَّة، بيروت، 1988، ج6، ص170-171.

أمر متتالية، كما أنها حملت دلالة في ظاهرها اختلاف، فما بين أفعال الصبر والتسبيح والأمر بالصلاة نجد نهياً عن مدّ العين، وقد ورد في تفسير الميزان في تفسير الآية نفسها: "مدّ العين مدّ نظرها وإطالته ففيه مجازٌ عقليّ ثم مدّ النظر وإطالته إلى شيء كناية عن التعلّق به وحبّه، والمراد بالأزواج الأصناف من الكفار، أو الأزواج من النساء والرجال منهم (...) و وردّ تكيّر الأزواج للتقليل وإظهار أنهم لا يُعبأ بهم"¹ والمعنى "لا تُطل النظر إلى زينة الحياة الدنيا وبهجتها التي متّعنا بها أصنافاً وأزواجاً معدودةً منهم لئلا نمتحنهم فيما متّعنا به، والذي سيرزقك ربّك في الآخرة خيرٌ وأبقى"² ولعلّ أهميّة عدم إطالة النظر لما متّع به الآخرون يتقارب أهميّة مع الصلاة، فذكر مُقترناً بالصلاة، لأنّ الإنسان يضعف حين تطال عينه ما بيد غيره، فكمال الإيمان بالصلاة والاصطبار عليها والرّضا بما قسم الله للإنسان في حياته.

وفي مثل هذا المعنى يذكر الغزالي في كتابه الجواهر أنّ درجات الورع أربع، ويذكر الدرجة الثالثة وهي: "ورع المتّقين، قال رسول الله (ص): لا يبلغ العبد درجة المتّقين حتّى يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس"، (...) حتّى يقول ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:131] ولذا قال عيسى (ع): لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإنّ بريق أموالهم يذهب بحلاوة إيمانكم"³.



¹ الطّباطبائي، السيّد محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن منشورات جماعة المدرّسين. ب.ط، ج14، ص238.

² نفسه، ص238-239.

³ الغزالي، أبو حامد محمّد، جواهر القرآن، تحقيق وسام الخطاوي وكاظم الأسدي، ط1، دار الهلال، بيروت، 2009، ص217-218.

ترتبت أفعال الأمر في المقطع وفقاً للمعنى، فبدأت الآيات بالصبر، ثم التسبيح، ثم الأمر بالصلاة فالاصطبار، فالصبر هو الوسيلة الأفضل لمواجهة الظلم، ثم التسبيح وهو الوسيلة للرضا، ثم الأمر بالصلاة فالاصطبار عليها، وهذه الأفعال الأربعة هي الطريق للتقوى.

نقف عند كل لفظ وندرسه بشيء من التفصيل:

1. اصبر: اصبر على الظلم في أقوالهم.
 2. سبّح: التسبيح أمر يتعلق باللسان ويمنح النفس طمأنينة.¹
 3. وأمر أهلك بالصلاة: حضور الصلاة في البيت أمر يُعدّ مَصَدَر قُوَّة فلم تكن الصلاة كالصبر والتسبيح وسيلة للذات فقط ولكنها قُوَّة إذا أُقيمت من الفرد وأهله، ولذلك لم يأمر الله رسوله بالصلاة وحسب وإنما، شمل أهله بذلك.
 4. اصطبر عليها: الصبر كله صعب والاصطبار للمبالغة في الاحتمال ولذلك قال الله في مورد آخر: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: 45]، فالله يأمر نبيه بالاصطبار على أداء الصلاة.
- ونجد أنّ هذه الحلقة من الأوامر ابتدأت بالصبر على القول وانتهت بالاصطبار على الصلاة، وما بينهما مصادر القوة التي تجعل الإنسان قادراً على فعل الصبر، وذلك بالتسبيح، ووجود الصلاة بوصفها عنصراً إيمانياً من الفرد وأهله.

¹ الرازي، محمد فخر الدين، تفسير الفخر الرازي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1981، ج22، ص134. اختلف في تفسير لفظ التسبيح فقليل أنه الصلوات الخمس، وقيل أنه بعض الصلوات الواجبة مضافاً لها النوافل، وهناك من يرجح أنّ التسبيح يُراد به الذكر اللساني، قال الرازي: "قال أبو مسلم لا يبعد حمله على التنزيه والإجلال، والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات، وهذا القول أقرب إلى الظاهر وإلى ما تقدم ذكره، وذلك لأنه تعالى صبره أولاً على ما يقولون من تكذيبه ومن إظهار الشرك والكفر، والذي يليق بذلك أن يأمر بتنزيهه تعالى عن قولهم حتى يكون دائماً مظهراً لذلك وداعياً إليه فلذلك قال ما يجمع كل الأوقات"، ص134.

الوسيلة الثانية للتضام هي التَّقابُل والتَّضاد، وقد أظهرنا من خلال التَّحليل السَّابق بعض مظاهر التَّقابُل والتَّضاد في النَّصِّ، كما نفقُ بشيءٍ من التَّفصيل عند التَّضاد والتَّقابُل:

أولاً: التَّضاد:

1. ﴿وَإِنْ تَجَهَّرْ بِالنَّوَلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:7]

يبرزُ التَّضادُ من خلال لفظ "تَجَهَّر" ولفظ "السِّرَّ"، فإذا كان الجهرُ من الإنسانِ فاللهُ يعلمُ حتَّى ما يُخفيه الإنسانُ في داخلِ نفسه بل وأخفى "والمراد بأخفى منه: ما يتكلَّم اللسان من حديث النفس ونحوه من الأصوات التي هي أخفى من كلام السِّر"¹، وقيل "هو ضمير النفس"² ومن هنا يبرز التَّضاد بقوة تأثيره في المتلقِّي، فإن جهرَ الإنسان بقوله أو أخفاه، فالله عالمٌ بالسِّر وما هو أخفى من ذلك.

2. ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:89]

يظهرُ التَّضادُ بين كلمة ضَرًّا وكلمة نفعًا، فعجَّل السَّامريُّ، عاجزٌ تمامًا، لا قُدرةَ له، ولو قيل لا يملك لهم نفعًا لأنَّ النِّفع هو ما يُريده من جعل السَّامريِّ إلهًا، ولا أحد يطلب الضَّرَّ، ولكن يحدث التَّضاد شيئًا من السُّمُولِيَّة، فهذا الإله عاجزٌ عن أن يضرك ناهيك عن أن ينفعك، وبهذا يكون وجود التَّضاد أشدَّ وقعًا في النفس.

3. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:110]

يظهرُ التَّضادُ بين عبارتي، "ما بين أيديهم" و "ما خلفهم"، وجاء هذا التَّضاد ليظهر علم الله وشموليَّته، فعلمه يُحيط بما بين أيديهم وما خلفهم، فعلمه شامل، وهذا ما أبرزه التَّضاد بين العبارتين، فقد نقل الرَّازي عن الضَّحَّاك قوله في تفسير الآية: " يعلم ما مضى وما بقي ومتى تكون القيامة"³

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص191.

² البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج4، ص23.

³ تفسير الرَّازي، ج22، ص119.

4. ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [طه:125]

يظهر التّضاد بين لفظ "أعمى" ولفظ "بصيرا"، لبيان المفارقة بين حال الإنسان في الدّنيا وحاله في الآخرة بعد أن ظلم نفسه في الحياة الدّنيا فكان مآله العمى في الآخرة، وهنا يُظهر التّضاد البعد بين الحالين، فنسيان ذكر الله هو المسبّب لحالة العمى في الآخرة، وقد اختلف في تأويل العمى، ولكنّ الآية الواردة في السّورة ذاتها تُفسّر لنا أنّ العمى يُصيب عين المُعرض عن ذكر الله فيُحشّر أعمى البصر بعد أن كان يرفل بنعمة الله مُبصرًا ومُنكرًا لآياته، يذكر مُحيي الدّين درويش في تفسيره لفظ زرقا: جمع أزرق وسبب اختياره لعيونهم يوم القيامة لوجهين الأول أن الزّرقاة أبغض شيء من ألوان العيوب إلى العرب، والثّاني أن المراد العمى لأنّ حدقة من يذهب نور بصره تزرق¹.

5. ﴿فَاضْبُرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه:130]

التّضادّ الوارد في هذه الآية، المراد به الإحاطة بكلّ الأزمنة فقبل طلوع الشّمس، وقبل غروبها، يأتي الأمر للتّسبيح في هذا الوقت، كما يأتي الأمر بالتّسبيح بآناء اللّيل وأطراف النّهار، فالمراد بالتّضاد هو الإحاطة بكلّ الأزمنة طيلة اليوم، فالتّسبيح ينبغي أن يكون مُلزمًا، لذلك جاء الأمر الإلهي بالتّسبيح في هذه الأزمنة، مع التّأكيد على وقت قبل الطّلع وقبل الغروب لخصوصيّته، وقيل أنّ هذه الأزمنة هي أزمنة الصّلوات الخمس² وقيل إشارة إلى النّوافل³، وإذا كان المعنى هو الصّلوات الواجبة فينبغي أداء هذه الفرائض في وقتها قبل الطّلع وقبل الغروب أي صلاة الفجر الذي يمتدّ وقت أدائها حتّى طلوع الشّمس وصلاة العصر الذي يمتدّ وقتها حتّى غروب الشّمس، وفي آناء اللّيل وأطراف النّهار، أي صلاة المغرب والعشاء، وصلاة الظّهر والعصر واختلفت الأقوال في هذه الآية غير أنّها لا تخرج عن هذا المعنى عمومًا.

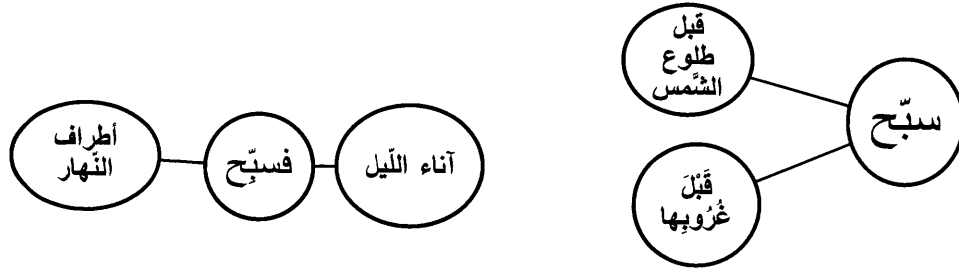
وقد ظهر الفعل "سبّح" متبوعًا بالتّضاد المتمثّل في لفظ طلوع و غروب، أمّا في "سبّح" الثّاني فقد توسّط الفعل الألفاظ المتضادّة، مع تقديم آناء اللّيل وتأخير أطراف النّهار، لأنّ التّسبيح آناء اللّيل

¹ الدّرويش، مُحيي الدّين، اعراب القرآن وبيانه، ط3، دار الإرشاد، سوريا، 1992، ج6، ص243-244.

² ابن عاشور، التحرير والتّشوير، ج16، ص338.

³ القاضي الأندلسي، المحرّر الوجيز، ط1، تح. عبدالسلام عبدالشّافي، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2001، ج4، ص70.

يكون أكثر تأثيراً ويدلّ على شدة الإيمان فمع هدأة الليل ونوم الجفون يكون التسبيح دليلاً على شدة الارتباط بالمُسَبِّح ، كما يدلّ هذا التّضادّ على أنّ زمن التسبيح يشمل كلّ الأوقات.



6. ورد في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه:105] ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه:106]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه:107]

تضادّ بين ألفاظ (قاع صفصف - عوج وأمت)، وتضادّ بين (الجبال - قاع)، فلفظ قاع وصفصف، يحملان معنى الأرض المُستَوِيّة السّهلة، في حين العوج والأمت، يعني الأرض المُرتفعة والتلّ، ويظهر هذا التّضادّ لبيان قُدرة الله عزّ وجلّ قلب أحوال الأشياء، فمن جبال شاهقة إلى أرض مُستَوِيّة لا ارتفاع فيها.

ثانيًا: التّقابل:

تتقابل الآيتان ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه:74]، ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه:75] معنى ولفظًا، فالمقابلة واقعة بين حالتين "من يأتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا"، "من يأتِهِ مُؤْمِنًا"، جزاء المُجرم يُقابلهُ جزاء المُؤمن فالأول له جهنّم لا يموتُ فيها ولا يحيى، والمؤمن له الدّرجات العُلى، كذلك يبرز التّضادّ في لفظ "لا يموت/ لا يحيى" فيبقى المُجرم فيها معلقاً بين الحياة والموت مُعَذَّبًا، فالصلة واضحة تبرز من خلال علاقات التّضادّ والتّقابل، مساهمة في بناء إيقاع صوتي، ورسم خيط من الموازنة بين الجُمْل، لما يُحدثهُ التّضادّ والمُقابلة في شدّة الانتباه وإثارته وإحداث وقع في النّفس.

ثالثاً: طباقُ السِّلْبِ:

1. ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه:67] وقوله: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه:68] (خيفة/ لا تخف)، طباقُ السِّلْبِ بين القولين يُظهر لنا عِلْمَ اللَّهِ وإحاطتَهُ بما في نفسِ موسى -عليه السَّلام- أولاً، وثانياً قُدْرَتَهُ على إزالةِ الخوفِ لأنَّهُ اللهُ الَّذِي عندهُ الأمرُ وحتميتُهُ فقد طمأن موسى بأنَّهُ المُنتَصِرُ وأنَّهُ الأعلى، فيُظهر لنا قُدْرَةَ اللهِ -عزَّ وجلَّ- من جهةٍ وعلمُهُ من جهةٍ أُخرى، إضافةً إلى أنَّ طباقَ السِّلْبِ الوارد بين الآيتين يُكوِّن تماثُلاً شكلياً ظاهرياً بين الآيتين.

2. ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَا حَسَنًا أَفَطَّلَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْلَ عَلَيْنَكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه:86]، و قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [طه:87] (أخلفتم / ما أخلفنا) طباقُ السِّلْبِ الوارد بين الآيتين يُكوِّن تماثُلاً شكلياً بين الآيتين، دلالةً ذلك الحواريَّة القائمة بين جهتين جهةً تسأل: أطل عليكم العهد فأخلفتم موعدي، وجهةً أُخرى تُجيب بالإنكار: ما أخلفنا.

3. قوله تعالى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه:96] (بصرت/ لم يبصروا)، طباقُ السِّلْبِ في هذه الآية يقوم على إثباتِ الشَّيْءِ لنفسه ونفيه عن سواه، وذلك لإبرازِ إِبْصَارِهِ لشيءٍ لم يُبْصَرِ، قال الألوسي في تفسيره نقلاً عن الراغب: "البصر يقال: للجارحة الناضرة وللقوة التي فيها ويقال: لقوة القلب المدركة بصيرة وبصر ويقال من الأول أبصرت، ومن الثاني أبصرته وبصرت به، وقلما يقال بصرت في الحاسة إذا لم يضامه رؤية القلب له"¹ فما بصر به السامريُّ هو ما أدركه بقوة قلبه وبصيرته لا ببصره، فما جعله يراه دون غيره هو قوة قلبه، والتضادُّ هنا لإثباتِ قوَّةِ قلبه وبصيرته التي جعلته يتبيَّن أمرَ الرُّسُولِ وحده دون سواه ويأخذ منه أثراً وهذا دليلٌ إيمانه ولكن ما جاء منه من فعلٍ بعد ذلك هو ما سَوَّلَتْهُ لَهُ نفسه.

ننتهي إلى أنَّ الطَّباق يُحدِّثُ فارقاً فيشدُّ الانتباه لشيءٍ، فما يحدثُ على مُستوى الشَّكْلِ يُوصلُ للعمق والمعنى، فهو يُسهِم في خلقِ حالةٍ من شدِّ المتلقِّي، ولفتِ انتباهه، وهو يُوائِم ويُقارب بين الجُمْل.

¹ الألوسي البغدادي، أبو الفضل شهاب الدين، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج16، ص252.

لا مُكرّر في القرآن، فإن رأيت شيئاً مكرّراً من حيث الظاهر
فانظر في سوابقه ولواحقه لينكشف لك مزيد الفائدة في إعادته.
الغزالي.

ثانياً: التكرار:

ورد التكرار في أنحاء متفرقة من النص، أحدث بذلك ربطاً شكلياً بين بنى النص من جهة وبين
الوحدات النصية من جهة أخرى، إضافة لما يحدثه من وقع موسيقي في أذن المتلقي، فيخلق حالة من
تكرار الأصدا، ولا شك أن وجود بعض الألفاظ مكررة لها فائدة دلالية إضافة لما تحدثه من ربط على
مستوى الشكل، وفي ذلك يقول مصطفى محمود: "ما أشبه القرآن في ذلك بالكائن الحي، الكلمة فيه أشبه
بالخلية، فالخلايا تتكرر وتتشابه في الكائن الحي ظاهرياً، ومع ذلك فهي لا تتكرر أبداً، وإنما تتنوع
وتختلف، وكذلك الكلمة القرآنية فإننا نراها تتكرر في السياق القرآني ربما مرّات كثيرة، ثم نكتشف أنها لا
تتكرر أبداً برغم ذلك، إذ هي في كل مرة تحمل مشهداً جديداً"¹ وقد ورد التكرار في النص بأشكال متعددة
منها: التكرار التام، والتكرار الناقص، وتكرار الحروف، وتكرار التراكيب المتوازنة وتكرار المعنى واللفظ
مختلف، والكلمة الشاملة، ونقف عندها جميعاً بشيء من التفصيل:

أولاً: التكرار التام: ومنه التكرار الوارد في قوله تعالى: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ
نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه:10] تكرر لفظ "النار" ثلاث مرّات في هذه
الآية [ناراً / ناراً / النار]، لإبراز مدى تأثير رؤية موسى للنار في نفسه، تأكيداً لمدى حاجة موسى للنار
وقتئذ، ولابن عاشور قول لطيف في أمر هذه النار: "وقد أجرى الله على لسان موسى معنى هذه الكلمة
إلهاماً إياه أنه سيجد عند تلك النار هدى عظيماً، ويبلغ قومه منه ما فيه نفعهم، وإظهار النار لموسى رمز
رباني لطيف، إذ جعل اجتلابه لتلقي الوحي باستدعاء بنور في ظلمة رمزا على أنه سيتلقى ما به إنارة
ناس بدين صحيح بعد ظلمة الضلال وسوء الاعتقاد"².

كذلك ورد التكرار التام في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾
[طه:14] فتكرر لفظ "أنا" مرتين، والضمير ضمير متكلم يعود على الله مع وجود لفظ الجلالة في الآية
نفسها، فتضافرت الضمائر مع اسم الجلالة، وإن دلّ فعلى عظمة الحدث وهو تكليم الله لموسى، فبعد قول

¹ محمود، مصطفى، القرآن كائن حي، ص4.

² ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص 195.

الله تعالى: أنا اخترتك يأمره بالاستماع لما يُوحى إليه، ثم يُعرّف نفسه حتّى لا تقع شبهة في قلب موسى أو في قلب المتلقّي، وكذلك فإن التكرار يحدث نوعاً من الهيبة والخشوع في نفس عبده، وهذا ما يؤكّده الألوسي في قوله: "تكرير ضمير المتكلم لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإمطة الشبهة، واستظهر أن علمه عليه السلام بأن الذي ناداه هو الله تعالى"¹ حتّى لا يكون هناك ريب أو شك أو مدخل من مداخل الشيطان، ومنه أيضاً تكرار لفظة "كذلك"، ففيها لمحة هامة جدّاً، ونُدْرَج الآيات التي ورد فيها هذا اللفظ:

- ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:99]
- ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه:113]
- ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تَنْسَى﴾ [طه:126]
- ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:127]

وردت الآيات السابقة جميعها في أهمية الذكر، وفيها سمات بارزة، فبدأت الآية الأولى منها بلفظ كذلك وانتهت بلفظ ذكرا، ومثلها الآية الثانية، وجاءت الآيتان اللتان تليهما في عاقبة من أعرض ولم يؤمن بآيات ربه، وإذا وقفنا عند تدرج الآيات أيضاً وجدنا الأولى في الذكر، والثانية في الوعيد، والثالثة فيمن نسي الذكر فنسي، والثالثة فيمن أسرف ولم يؤمن فله عذاب الآخرة، أما الآية الأولى والثانية، فقد وردت في التعقيب على قصة موسى، وأما الثالثة والرابعة فقد وردت في التعقيب على قصة آدم، وإن دلّ فعلى اتساق النص، وأنّ الألفاظ لم تأت فيه اعتباطاً، وإنما جاءت محكمة.

كذلك ما ورد في تكرار لفظ موسى - يا موسى فقد تكرر سبعة عشر مرة، تكرر لفظ موسى ثمان مرّات، وتكرر لفظ يا موسى تسع مرّات، سنّا كان النداء من العليّ الأعلى، وثلاثاً جاء النداء من فرعون والسحرة، وقد تكرر في أنحاء متفرقة في النص من الآية التاسعة وحتّى الآية الواحدة والتسعين، وذلك لأنّ النصّ قام أولاً على مشهد تكليم الله لموسى - عليه السلام -، و قام على حوارية بين موسى - عليه السلام - وفرعون من جهة، وبين موسى - عليه السلام - وقومه والسامريّ وهارون، فقد استوجب المقام ذكر لفظ موسى لإظهار الحقيقة في مواقف مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:17]، ولبيان القرب والمحبة من الله والإحاطة بعنايته ورحمته في مواقف أخرى مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:36] ، ولإشارة للمخاطب في مواقف أخرى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه:49].

¹ الألوسي، روح المعاني، ج16، ص168.

ومِمَّا وَرَدَ فِي التَّكَرُّرِ الثَّامِ، تَكَرَّرَ أَدَوَاتُ التَّوَكُّيدِ عَلَى مُسْتَوَى النَّصِّ، فَقَدْ تَكَرَّرَتِ الْمُؤَكَّدَاتُ لِتَأْكِيدِ الْجُمْلِ الْمُثَبَّتَةِ فِي النَّصِّ، وَذَلِكَ لِتَأْكِيدِ وَقُوعِ الْفِعْلِ، وَحَدَّثَ ذَلِكَ بِالْعَدِيدِ مِنَ الْمُؤَكَّدَاتِ، وَكَانَ حَضُورُهَا لَافِتًا فِي النَّصِّ، مِنْهَا: التَّأْكِيدُ بِالْمَفْعُولِ الْمُطْلَقِ، وَالتَّأْكِيدُ بِنَوْنِ التَّوَكُّيدِ الثَّقِيلَةِ، وَالتَّأْكِيدُ بِقَدْ وَلَقَدْ:

تَكَرَّرَ الْمُؤَكَّدُ (قَدْ)، أَمَّا التَّأْكِيدُ بِالْأَدَاةِ "قَدْ" فَتَكَرَّرَ بِكَثْرَةٍ وَعَلَى نَحْوِ لَافِتٍ فِي النَّصِّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:36]، وَجَاءَتْ تَأْكِيدًا عَلَى تَحَقُّقِ كُلِّ مَا طَلَبَ، وَمِنْهُ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَتَيْنَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه:47] فَجَاءَتْ قَدْ لِلتَّأْكِيدِ عَلَى الْمَجِيءِ بِآيَةٍ مِنَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه:48] فَجَاءَتْ قَدْ لِلتَّأْكِيدِ عَلَى أَنَّ مُوسَى قَدْ تَلَقَّى وَحْيًا مِنَ اللَّهِ مَفَادُهُ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ [طه:61] فَجَاءَتْ قَدْ لِتَوْكُّدِ جَزَاءِ الْمُفْتَرِينَ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ [طه:64]، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه:75] فَوُرِدَتْ قَدْ لِلتَّأْكِيدِ عَلَى جَزَاءِ مَنْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَذُوبِكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ [طه:80] وَالمُؤَكَّدُ اللَّفْظِيُّ قَدْ أَكَّدَ أَنَّ نَجَاةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ بِيَدِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَقَدْ أَنْجَاهُمْ مِنْ عَذَابِهِمْ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه:81] وَالتَّأْكِيدُ عَلَى وَقُوعِ مَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبُ اللَّهِ فِي الْهَاطِيَةِ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه:85] فَجَاءَ الْمُؤَكَّدُ قَدْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَأْكِيدِ حَدُوثِ الْفِتْنَةِ مِنَ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:99] لِلتَّأْكِيدِ عَلَى أَنَّ الْقَصَّ لِأَحْدَاثٍ حَدَثَتْ فِي الْمَاضِي، سَابِقَةً، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه:111] فَجَاءَ الْمُؤَكَّدُ قَدْ لِلتَّأْكِيدِ عَلَى أَنَّ الْخَبِيَةَ سَتَفَعُ مُؤَكَّدًا لَا مُحَالَ عَلَى مَنْ ظَلَمَ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [طه:125] فَالتَّأْكِيدُ عَلَى أَنَّ الْمُعْرِضَ الْأَعْمَى فِي الْآخِرَةِ قَدْ كَانَ بَصِيرًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالتَّأْكِيدُ جَاءَ بِلِسَانِ الْمُعْرِضِ، لِتَوْكُّدِ عَلَى يَقِينِهِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ مُبْصِرًا فَتَبَدَّلَ حَالُهُ.

تكرار التأكيد بالمؤكد (لقد): أمّا التأكيد بالأداة لقد، فقد تكرر في مواضع أقلّ نسبياً بالمؤكد قد، ولقد هي مركبة من مؤكدين اللام وقد، دلالة على شدة التأكيد على وقوع الفعل ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه:56]، فقد أكد الفعل الماضي أريناه بمؤكد خاصٍ بالفعل الماضي وهو قد، مسبوقاً باللام، ووردَ هذا المؤكد في هذه الآية تحديداً ومع الفعل أريناه، دلالة على أنّ الله -عزّ وجل- أرى فرعون كلّ آياته، بوسائلٍ عديدةٍ غير أنّه كان مُعانداً فكذّب وأبى أن يؤمن! فنال الجزاء، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه:77] فالفعل الماضي أكد بمؤكد خاصٍ به وهو قد مسبوقاً باللام، فورد مؤكدين اثنين، لغاية تأكيد أنّ مسير موسى وضربه للبحر بعصاه هو وحيّ من الله عزّ وجل، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه:90] وجاء التأكيد بمؤكدين هما اللام وقد، وذلك للتأكيد على أنّ هارون قد أدّى مهمته في نصّحهم وأبرّر لهم أنّ هذا العجل ما هو إلا فتنة، وقد أكدّ القرآن ذلك بمؤكدين لأنّ هذا النصّ قد أبرّر موقف موسى حين عاد غضباناً من ميعادِ ربّه فأخذ بلحية هارون، فأكد النصّ ما كان من موقف هارون مع القوم، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه:115] جاء المؤكد لقد للتأكيد على أنّ الله قد عهدَ إلى آدم، فأكل من الشجرة رغم وقوع العهد.

تكرار التأكيد بنون التوكيد الثقيلة والمفعول المطلق: أكدت الكثير من الأفعال بنون التوكيد الثقيلة، وقد اختصّت هذه الأفعال بالعقاب، فنجد أفعال العقاب مؤكدة بنون التوكيد الثقيلة إضافةً للمفعول المطلق لتأكيد حتمية وقوعها ومنها قوله تعالى: نَأْتِيَنَّكَ - لَأَقْطَعَنَّكَ - لأصلبنّ - لتعلمنّ - نُحَرِّقَنَّه - ننسفنّه - نسفاً - نسفاً - يُخْرِجَنَّكُمَا، وجميعها تدلّ على تأكيد وقوع الفعل.

- ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ﴾ [طه:58] - نون التوكيد الثقيلة
- ﴿فَلَأَقْطَعَنَّ﴾ [طه:71] - نون التوكيد الثقيلة.
- ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [طه:71] - نون التوكيد الثقيلة.
- ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ [طه:71] - نون التوكيد الثقيلة.
- ﴿نُحَرِّقَنَّه﴾ [طه:97] - نون التوكيد الثقيلة.
- ﴿نَنَسِفَنَّه﴾ [طه:97] - نون التوكيد الثقيلة.
- ﴿نَنَسِفَنَّه فِي النَّيْمِ نَسْفاً﴾ [طه:97] - المفعول المطلق.

- ﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه:105] - المفعول المطلق.

- ﴿يُخْرِجُكُمَا﴾ [طه:117] - نون التوكيد الثقيلة.

تكرار أداة الشرط "من" في الأساليب الشرطية: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه:74] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه:75] وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه:81] وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ [طه:100] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:112] وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هَذَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:123] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:124]، و نلاحظ في أساليب الشرط التي أوردناها، أنها جميعًا تتعلق بالجزاء، جزاء اتباع الذكر أو الإعراض عنه، وفي ذلك بيان لأهمية الذكر والإيمان وطاعة الله، كما أن جميع أساليب الشرط أداؤها (من) وهي أداة شرطية تُستخدم للعقل فهي مُوجهة إلى مستقبل واحد هو الإنسان لرسم خطة حياته وقانونه الإلهي ومصير الامتثال لهذا القانون والإعراض عنه، ونلاحظ اقتران فاء الجزاء في جواب الشرط في كل آية من الآيات السابقة، والداعي إلى إدخال الفاء هو أن أصل الجواب أن يُحمل الكلام على الاستقبال، ونلاحظ من سياق الآيات الواردة أنها جميعًا تندرج تحت الترغيب أو التخويف.

ثانيًا: التكرار الناقص الجزئي: وهو تكرار اشتقاق اللفظ، وقد ورد ذلك في أنحاء متفرقة من النص ومنه: ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه:42]، وقوله: ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه:43] تكرر الفعل في الآيتين مرة بصيغة الأمر لموسى-عليه السلام-، فيطلب منه الذهاب مع أخيه، ومرة أخرى بصيغة الأمر لموسى وهارون فيكون الأمر موجهاً لهما معاً، [أذهب / أذهبا] وهذا يحقق اتساقاً لفظياً وترابطاً، فهو يشير لربط بين الآيتين، وقد تكرر الفعل لضرورة حتمية، وهي أمر يلزم وقوعه وهو الذهاب.

ومنه أيضاً ما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه:72]، وفيه تكرار الفعل اقض باشتقاقاته

(اقض/ قاض/ تقضي)، وذلك يُبرز ما آلت إليه نفسيّة القوم، فهم غير مهتمين بما سيفعل عليهم فقد أكلوا أمرهم إلى الله خاصّة وأنّ العقاب الواقع عليهم عقاب يختصّ بالحياة الدُّنيا.

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:99] وقوله: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ [طه:100] إذ وردَ لفظُ الذِّكرِ والإعراضِ في الآيتين السابقتين، كما وردت ذات الألفاظ في آيةٍ أخرى وهي في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:124]، فوردَ لفظُ "ذكر" ولفظُ "أعرض" في التّعقيبِ الواردِ بعد قصّة موسى، ووردَ لفظُ "أعرض عن ذكر" في التّعقيبِ الواردِ بعد قصّة آدم، فإن دلّ على شيءٍ فعلى أنّ وجودَ القصّتين في النصِّ لغاية التذكير بأهميّة الذِّكر، ومآلُ المُعرضين عنه.

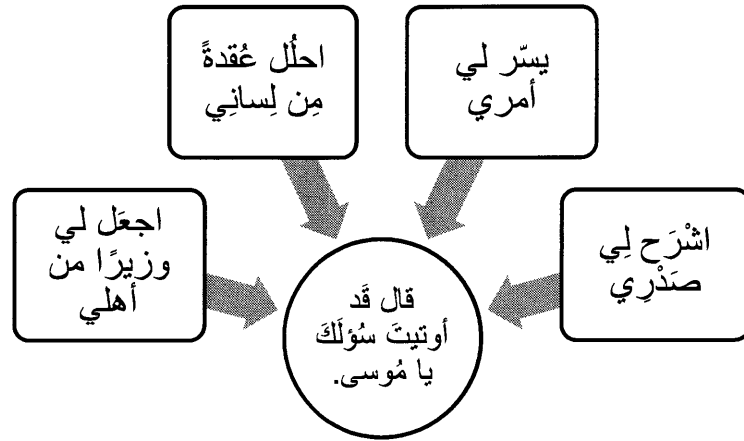
ومثله أيضًا قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه:85]، وقوله ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ [طه:90] فقد تكررَ اللفظُ "فتنّا" واللفظُ "فُتِنْتُمْ" باشتقاقٍ متعدّدة، في آياتٍ متباعدة ولكنّها تحملُ دلالةً واحدة وهي فتنة القوم، للتأكيد على أنّ هذه الفتنة قد وقعت، ولقد جاء اللفظُ الأوّل من الله: فتنّا، واللفظُ الثاني من هارون: فُتِنْتُمْ، للدلالة على أنّ هذه الفتنة هي من الله، وهارون عليّم يكونُ قضية العجل فتنة.

ومنه أيضًا تكرارُ لفظِ القول، وقد وردَ ذلك في عددٍ من الآيات منها قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتُنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:57]، ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ وَأَنَّ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَى﴾ [طه:59]، ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ [طه:61]، ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [طه:63]، ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه:65]، ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه:68]، فتكرّر لفظُ القولِ باشتقاقه، في مختلفِ أنحاء النصِّ، مُحققًا التماسك من خلال تبادل القول بين عدّة أطراف في النصِّ، ففيه القول والإجابة عليه، فيظهرُ الحوارُ من خلالِ ألفاظه، بجميع اشتقاقاتها، فهي عمليّة أطرافها موسى والسحرة وفرعون، واللفظُ قلنا، يعودُ على اسمِ الجلالةِ الله، وإن كنّا نجهلُ حيثيات هذا القول، إن كان قولًا يُقذفُ في قلبِ موسى إلهامًا، أو يتنزّلُ مع جبريلَ لفظًا، وتكرارُ لفظِ القولِ يعكسُ الطّبيعة السردية الحوارية التي يقومُ عليها النصّ.

ثالثاً: تكرار الحروف: ومنها تكرار الألف المقصورة في نهاية كل آية، وقد سبق ذكره في قسم الفاصلة القرآنية، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه:2]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى﴾ [طه:3]، وقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه:9]، وقوله تعالى: ﴿لِئَرْيَاكِ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه:23]، هذا التكرار للحرف في نهاية كل آية، يُحقّق تماسكاً صوتياً وشكلياً، إذ يُشكّل عنصراً يربط أغلب الآيات، على اختلاف دلالاتها، فهو يُشكّل الوحدة الشكلية، والنمط المتكرّر في آيات السورة، وقد درسنا أهمية الحرف بعينه في التحليل الصوتي.

رابعاً: تكرار التراكيب المتوازنة:

النموذج الأول:



عند تتبع الآيات، في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:36] نجد أنها قائمة على تراكيب متوازنة، بدأ بفعل القول، متبوعاً بمنادى "رَبِّ"، ثم جاء بأربعة تراكيب متشابهة، وهي (فعل أمر + جار ومجرور) + الفاصلة القرآنية (ي)) وانتهى المقطع أيضاً، بفعل القول متبوعاً بمؤكد يُثبت وقوع الجملة مختصاً بالفعل الماضي وهو قَدْ، (قال + قد + الفعل الماضي + المنادى).

النموذج الثاني:

تكرار صيغة لنفعته، في الآية: ﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه:97] في اللفظين: "لنحرقته"، و "لننسفته"، وقد خُصَّ الفعلين بعجل السامري، وقد وردت هذه الصيغة (لنفعته) لتأكيد وقوع الفعل، فقد أكد بمؤكدین هما اللام ونون التوكيد الثقيلة، وفي ذلك إشارة واضحة لحالة من الغضب التي تملكّت موسى، وغيّرت على دينه، إضافة لحالة التهديد والوعيد التي لمست قوله.

النموذج الثالث:

1. ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:12]

2. ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:14]

التراكيب المتوازنة تحمل دلالة الربوبية المستوجبة للعبادة، مُقرّنة بفعل الأمر، وشكل التركيب هو كالتالي: إن + الياء + أنا + لفظ يذل على اسم الجلالة + الفاء + فعل الأمر.

النموذج الرابع:

تكرار الاستفهام في المقطع الذي يتحدّث عن السامري، بأداة استفهام واحدة وهي (ما):

○ ﴿وَمَا أَغْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:83] (المخاطب موسى)

○ ﴿قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ [طه:92] (المخاطب هارون)

تكرّر الاستفهام بصيغة (ما + الفعل المُقرّن بالكاف) ولتكرار ورود الاستفهام أهمية في بيان الحال والسبب، فالاستفهام الأول، استفهام يعلم المُستفهم فيه الجواب، ولكن ليبين الحقيقة للمتلقّي، أمّا الاستفهام الثاني فهو سؤال موسى لهارون وهو استفهام تعجّبي، وأمّا الاستفهام الأخير، ففيه يستفهم موسى عن السامري وعجله مُستكرراً فعله، وقد تكرّرت هذه الصيغة في مقطع واحد، لتُظهر حقيقة الأمر وتكشفه من كلّ جوانبه، ولتشكّل حالة من الاتساق بين مفاصل المقطع، وتدعم النمط السري.

النموذج الخامس: تكرار صيغة ينسفها نسفاً، في الآيتين: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه:97] و ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه:105]

أما الآية الأولى فقد وردت في الجبال، فينسفها الله نسفاً، فتصير مستويةً باستواء الأرض ولا يبقى فيها أي ارتفاع أو عوج، وأما الآية الثانية فتختص بعجل السامري، فينسف نسفاً، فلا يبقى من أثره شيء، وقد وردت آية العجل، في بنية قصّة موسى، ووردت الآية الثانية في بنية التعقيب عليها، فنلاحظ تشابه مصير عجل السامري والجبال، فكُلّ منهما يقف بكّل وضوح علماً بارزاً، ولكنّه مع النّسف يُصبح لا شيء، فهو تشابه في المصير، وفي ذلك دلالة على قدرة الله تعالى

النموذج السادس: تكرار التركيب إنّ لك، في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه:97]، فقد وردت بصيغتين، الأولى: إنّ لك في الحياة أن تقول لا مساس، والثانية إنّ لك موعداً لن تُخلفه.

تكرّر التركيب على النحو التالي:

إنّ + الخبر المقدم (لك) + اسم إنّ المؤخر -المصدر المؤول أن تقول- + النقي.

إنّ + الخبر المقدم (لك) + اسم إنّ المؤخر -موعداً- + النقي.

تكرّر التركيب وفق نمطٍ محدّد، لبيان العقاب الذي قرّر للسامري، فوجود النقي دلالة على حتمية وقوع هذا العقاب فلا مفرّ منه، ووجود "إنّ" فيه دلالة على تأكيد وقوع الفعل، و تكرار النمط التركيبي يُعطي اتساقاً للبنية، كما يُعبّر عن حالة غضبية وغيرية على الدين لدى موسى، فالتركيب يعكس انفعالاً شعورياً، و نلاحظ أنّ عنصر التكرار له وجود بارز في سورة طه، ولعلّه من أكثر وسائل الاتساق ظهوراً في هذا النص، إذ من خلال رصد ما تكرر تكراراً كلياً أو تكراراً جزئياً نجد أنّ عدداً كبيراً من الألفاظ تكررت لوجوه عدّة، أهمّها التأكيد والإبراز والإشارة لشيء، ومن هنا فإنّ الألفاظ تتساق فيما بينها، فنجد النص من خلال هذا التكرار يُحقّق اتساقاً.

خامساً: تكرار المعنى واللفظ مختلف وينقسم إلى نوعين: تكرار الترادف، وتكرار شبه الترادف:

تكرار الترادف: وهو التطابق بين معنى كلمتين أو أكثر فيما تشير إليه في الواقع الخارجي والدلالات التي توحىها أيضاً، ولكن لا تحمل الألفاظ دلالات متفقة اتفاقاً تاماً، فهذا نادر في اللغة، فهناك فروق لغوية بسيطة بين الألفاظ لا تكاد تُدرك، أمّا الترادف في سورة طه فقد ظهر بين لفظ "القرآن" ولفظ "الذكر"، وإذا عدنا لكتب اللغة وجدنا أنّ القرآن هو "مصدر جعل اسماً للكتاب المنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم - فهذا الكتاب يقرأه الرسول ويقرأه الناس: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ فالقرآن في هذه المرتبة في لوح محفوظ عند الله تعالى، وهو اللوح الظاهر فيه ما يقضى ويقدر من الأحكام والحقائق، وهو لوحة من علم الله المحيط بفسرها القرآن وتتجلى فيه¹ وفي تعريف آخر نجد القرآن هو "كتاب الله المعجز الذي أنزله على رسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقارئ لها هو جبريل، قرأناه بمعنى: تلاه عليك جبريل"²

أمّا لفظ الذكر في قوله: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: 99] فيعرف بأنه: "قرآن الله المنزل على الرسول"³، وأمّا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ [طه:] فيعرف بأنه "كتابي"⁴.

وقد ورد لفظ القرآن في قوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: 2] وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أُنزِلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: 113]، وفي قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]، فورد لفظ القرآن في الآيات الثلاث، دالاً على الإنزال والقراءة، فورد مع الفعل أنزلنا في قوله: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: 2] ومع الفعل أنزلنا في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أُنزِلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: 113]، ومع دلالة الفعل أنزلنا دل على ذلك قوله تعالى قبل أن يقضى إليك وحيه، وذلك في قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]، ففي جميع الآيات جاء لفظ القرآن بمعنى كلام الله المقروء، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم تلقى الوحي عن طريق السمع.

¹ نور الدين، عباس، الدليل إلى معاني القرآن الكريم، ط1، مركز باء للدراسات، 2018، ص249.

² مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن، الإدارة العامة للمطبوعات وإحياء التراث، 1990، ج1، ص888.

³ معجم ألفاظ القرآن، ج1، ص436.

⁴ معجم ألفاظ القرآن، ج1، ص437.

وقد ورد لفظ الذكر في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:99] وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:124] والذكر هو أجزاء من القرآن، ولعله ما يختص بقصص السابقين والوعظ المتصل بهم، فورد لفظ القرآن، والذكر، فبين الكلمتين اتفاق في المعنى فالذكر والقرآن يحملان معنى الكتاب المنزل على النبي -محمد صلى الله عليه وآله وسلم-.

تكرار شبه الترادف: وذلك في حالة التشابه الدلالي الواضح بين كلمتين أو أكثر ويكون بينهما اختلاف حيث تستخدم الكلمة في سياق معين ولا تصلح الأخرى في نفس السياق وكلاهما بمعنى واحد وقد ورد شبه الترادف في سورة طه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:112] فهناك فرق بين الظلم والهضم، ذلك أن "الهضم نقصان بعض الحق ولا يقال لمن أخذ جميع حقه قد هضم، والظلم يكون في البعض والكل، وفي القرآن ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:112] أي: لا يمنع حقه ولا بعض حقه، وأصل الهضم في العربية النقصان، ومنه قيل للمنخفض من الأرض: هضم والجمع أهضام)¹

وكذلك ورد شبه الترادف في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:102] ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:124] وذلك في اللفظين (زُرْقًا) و (أعمى)، أما لفظ زُرْقًا فهو يدل على العمى على رأي من فسره بذلك، فإن حقيقة الأعمى تزرُق² وهو شبه مرادف للعمى، ذلك أن زُرْقًا لا تستخدم في كل السياقات بهذه الدلالة، والذي يدل على أن أعمى وزُرْقًا بينهما شبه ترادف، أن اللفظين اقترن ذكرهما مع الفعل نحشُر، ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:102] وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:124].

¹ العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، الفروق اللغوية، تج، محمد إبراهيم سليم، مصر، دار العلم والثقافة، ص231.

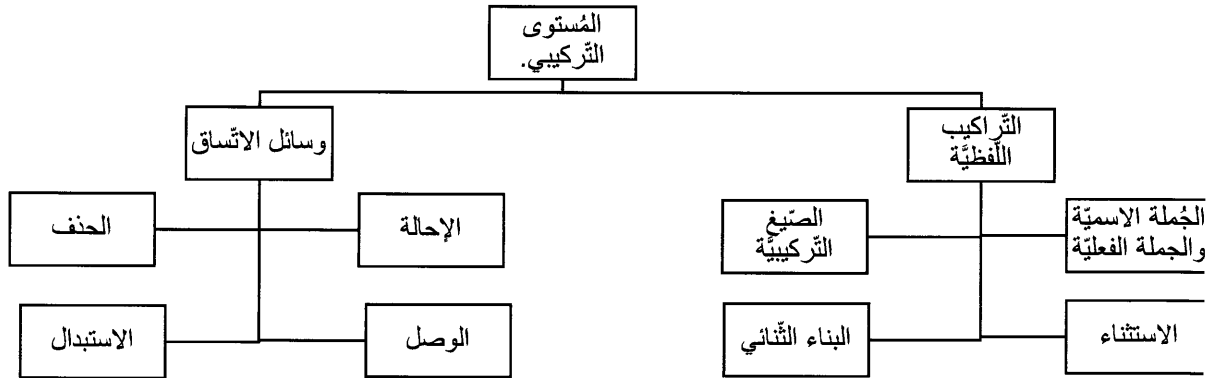
² البيضاوي، ناصر الدين، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ج4، ص38.

مناطق الإعجاز اللغوي للقرآن ليس في أعيان الألفاظ المفردة بل في تركيب الألفاظ والكلمات وطريقة نظمها والتصرف فيها. أحمد ويس.

ثالثاً: المستوى التركيبي:

تشكل التراكيب اللفظية وسيلة هامة من وسائل التحليل إذ تحمل مفاتيح هامة بها يتمكن الدارس من ولوج عوالم التحليل، وقد نسجت ألفاظ القرآن في تراكيب فريدة الصنع، مشدودة السبك، متلائمة، تتلاقى الأجزاء فيها وتشدّد بعضها ببعض، حتى تظهر في شكلها الأخير بناءً محكمًا.

ولدراسة هذا البناء المحكم ينبغي الوقوف في المستوى التركيبي عند أمور عدة، أولها التراكيب اللفظية البارزة في النص ومنها : الجمل الاسمية والفعلية، الصيغ التركيبية ودلالاتها، الاستثناء، البناء الثنائي، كما سنقف عند وسائل الاتساق ومنها: الإحالة والحذف والوصل والاستبدال.



التراكيب اللفظية: شكل التراكيب وسيلة للتحليل، فالجمل الفعلية عادة تدل على الحركة والتحول أما الجمل الاسمية فتحمل دلالة الثبات، وسنقف في تحليلنا على البنية الثنائية التي تتناول قصة موسى الطفل لندرس دلالة الجمل الفعلية في هذا المقطع:

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه:37] ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ [طه:38]، ﴿أَنِ افْذِفْهِ فِي التَّابُوتِ فَافْذِفْهِ فِي النَّيْمِ فَلْيُلْقِهِ النَّيْمُ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه:39]، ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا

تَحْزَنَ وَقَتَلَتْ نَفْسًا فَتَجَنَّبَكَ مِنَ النِّعَمِ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴿٤٠﴾
[طه:40]

تتوالى الجُمْلُ الفعلية في هذا المقطع فنلاحظ احتشاد الأفعال بأنواعها ومنها (مننا - أوحينا - ائذفيه - فاقذفيه - فليقله - يأخذُه - ألقِثْ - لتُصنع - تمشي - يقول - أدلكم - يكفله - رجعناك - تقر - لا تحزن) أمّا سيطرة الجُمْلُ الفعلية على هذا المقطع فتدلُّ على توالي الأحداث وتسارعها في قصّة موسى، وغلبة النمط السردّي في القصّ، ولذا نجد قلّة الجُمْلُ الاسميّة لأنّ الغاية هي نقل الأحداث الواقعة والمتلاحقة كما هي وذلك لإثارة شعور النّبيّ مُحَمَّد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -، وذلك من خلال الابتداء بالفعل ﴿مِنَّا﴾ [طه:37] والاختتام بالفعل ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه:40] وما بينهما خروج الطّفلِ موسى من كنفِ أمّه إلى عدوّه مُحاطاً برحمة الله وعنايته ومحبّته، فهذا الطّفل خرج بقُدرةِ إلهيّة وعادَ بقُدرةِ إلهيّة ومشية لتقرّ عين أمّ موسى، فالله يُريدُ اطمئنان قلبِ نبيّه، فكأنّه يُقول: هذا ما فعلته بأنبيائي السابقين، وأنت سيدهم.

وإذا تأملنا في الأفعال وجدنا:

مننا - أوحينا - ائذفيه فاقذفيه - فليقله - يأخذُه.

وهنا نلاحظ توالي أفعال الأمر التي تتطلّب استجابة من المأمور وهي أمّ موسى وهذه الأفعال من الأفعال التي ينبغي لامتنال الأمر الإلهي فيها القوّة والإيمان والعزيمة والثّقة بمن أوحى إليها، فأمّ موسى كانت على هذا القدر من الأمانة فوثّقت وامتثلت للأمر ذلك أنّه من الصّعب أن تُلقِي الأمّ بابنها لمصير مجهول، إلّا أن تكون على قدرٍ من الإيمان، واستجابت فقذفت طفلها في التّابوت ثمّ في اليمّ، وحرك النّهر بأمرٍ إلهي ليصل للنتيجة الحتميّة التي أرادها الله وهي أن "يأخذُه" العدوّ، ويأخذُه: الفعل المضارع الذي حمل دلالة الاستمراريّة، بعد أفعالٍ أمرٍ ثلاثة.

▪ الصّيغُ التركيبيّة:

وردت الكثير من المشتقات في السّورة وقد حملت هذه المشتقات دلالاتٍ متعدّدة تُسهّم في خلق جوٍّ من التّماسك يربط بين المسرود من القصص منها ما ورد في قصّة موسى والسّامريّ، الموطن الذي ظهر فيه جانبٌ من شخصيّة موسى وهي سيطرة الحالة الغضبّيّة عليه، وقد أسهمت الصّيغُ التركيبيّة في إبراز هذا الجانب وربط كلّ مفاصِل القصّة بحالة من الإيحاءات الغضبّيّة ووقعها في نفس المتلقّي منه وصف

حالة موسى بالصيغة "فعلان" في لفظ ﴿غَضَبَانَ﴾ [طه:86]، وصيغة فعلا في لفظ ﴿أَسِفًا﴾ [طه:86] في حال معرفته بحال قومه.

• غضبان: على وزن "فعلان"

• أسفا: على وزن "فعلا"

ونلاحظ حالة الغضب المتجسدة في الصيغ التركيبية التي يُحاورُ بها قومه، من خلال استخدام المفعول المطلق، ﴿بِعَذَابِكُمْ رَبُّكُمْ وَعَذَابًا﴾ [طه:86] ، ﴿لَنَنْسِفَنَّاهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه:97]، واستخدام صيغة الاستفهام الإنكاري ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ [طه:86] ﴿أَلَا تَتَّبِعُنَّ﴾ [طه:93]، ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه:93] لإنكار هذه الأفعال على قومه وأخيه، واستخدام صيغة "نفعلنه" في كُلِّ من ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ [طه:97]، ﴿لَنَنْسِفَنَّاهُ﴾ [طه:97] التي تُظهر حالة الغضب التي بلغها موسى إثر رؤيته لعجل السامري، مؤكدةً بأن التوكيد الثقيلة، كما ويُشير فعل ﴿وَانْظُرْ﴾ [طه:97] إلى التحدي، فما يُريده موسى هو تيقن السامري لما سيحدث لإلهه من خلال النظر، يتبع ذلك استخدام التركيب: (إنَّ لك + أداة النفي) وذلك في قوله: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه:97] وفي قوله: ﴿إِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَهُ﴾ [طه:97]، وجاءت هذه الصيغة بإنَّ المؤكدة المضافة لكاف مخاطبة مضافةً إلى أداة النفي متبوعةً بما يدلُّ على العقاب، في قوله: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ [طه:97]، وفي قوله: ﴿لَّنْ تَخْلَفَهُ﴾ [طه:97] فهو يؤكد وقوع هذا العقاب، في حالة يقينية مطلقة تدلُّ عليها ﴿إِنَّ﴾ [طه:97]، مؤكدةً وقوع الفعل، و﴿لَكَ﴾ [طه:97]، التي تؤكد على تخصيص هذا العقاب على فاعلٍ محدّد وهو السامري، ومجيء هذه الصيغة تدلُّ على إثبات يقيني لوقوع الفعل، وهذا إن دلَّ فعلى غيرة موسى على الرسالة التي يحملها وغضبه الشديد من السامري الذي أضلَّ بني إسرائيل بعجله، ومن هنا نجد أنَّ ما ورد في مقطع قصة عجل السامري، غلبة الحالة الغضبية لموسى، والعقاب الذي سيحلُّ بمن لا يتذكَّرُ بتذكُّر الرسل، وهذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بما جاء في كُلِّ مفاصل السورة.

■ الاستثناء:

وهو "خروج شيء من حكم ما قبله بإحدى أدوات الاستثناء"¹ أو بعبارة أخرى هو "إخراج بعض من كل"² و أدواته هي: "إلا، غير، سوى، خلا، عدا، حاشا"³ وقسم الاستثناء إلى أنواع:⁴

3. الاستثناء التام: هو الذي يكون فيه المستثنى منه مذكورًا في الجملة.
4. الاستثناء الموجب: هو الذي لم يتقدمه نفي أو نهي .
5. الاستثناء المفرغ: وهو ما سبق بنفي أو نهي وحذف المستثنى منه.
6. الاستثناء المتصل: ما يكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه.
7. الاستثناء المنقطع: هو الذي يكون في المستثنى ليس من جنس المستثنى منه.

ورد الاستثناء في النص القرآني في آيات متفرقة منه قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:98]، وفيه استثناء لفظ الله من لفظ "إله" ووجود أداة النفي لا، تدل على الحصر، وقوله: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه:103]، المستثنى منه محذوف تقديره "من الوقت" والمستثنى عشرًا، وقوله: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:104] المستثنى منه محذوف تقديره "من الوقت" والمستثنى يومًا، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه:109]، المستثنى منه محذوف تقديره "أحدًا" والمستثنى هو "من أذن له الرحمن ورضي له قولًا"، وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:108] المستثنى الأصوات والمستثنى منه همس.

غير أن الاستثناء جاء بطريقة مغايرة في بعض الآيات فنجد المستثنى ليس جزءًا من المستثنى منه، فيبدو الاستثناء منقطعًا، إن أخذنا بظاهر القول⁵ وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه:2]، ﴿إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى﴾ [طه:3]، تذكروا من يخشى ليس داخلة في الشقاء، ولكن يمكننا تأويل المعنى فالقرآن لم ينزل لهدف الشقاء، ولكن لهدف هو التذكروا، والتقدير ما أنزلنا عليك القرآن لهدف شقائك ولكن لهدف التذكروا.

¹ شمس الدين إبراهيم، موسوعة الصرف والنحو، ط1، موسوعة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 2009، ص143.

² ابن السراج الأصول في النحو، تحقيق عبدالحسين القلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985، ج1، ص389.

³ شمس الدين، إبراهيم، موسوعة الصرف والنحو، ص134.

⁴ العبودي، رعد، المشيئة والاستثناء منها في القرآن الكريم، ط1، بيروت، دار الولا، 2019، ص60-61.

⁵ عوض، إبراهيم، سورة طه دراسة أسلوبية لغوية مقارنة، الطائف، 1993، ص122

كذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه:116] إبليس ليس واحدًا من الملائكة، وإنما هو من الجنّ، والقرآن أقرّ في أكثر من موضع أنّ إبليس مخلوق من نار فهو إذاً من الجنّ الذين أنبأنا القرآن أنّهم كذلك خلّقوا من نار، والسؤال إذاً كان الأمر بالسجود للملائكة وإبليس ليس من الملائكة فهذا يعني أنّه لم يؤمر أو لا يشمل الأمر بالسجود، وفي محاولة الإجابة على هذا التساؤل نقف عند أمور هامة:

جنس إبليس: يؤكّد القرآن أنّ إبليس من الجنّ، وليس من الملائكة، وإبليس هو "اسم علم للشيطان الذي وسوس لآدم، وإبليس - كما صرح القرآن ما كان من جنس الملائكة وإن كان في صفوفهم، بل كان من طائفة الجن، وهي مخلوقات مادية قال تعالى: ﴿فسجدوا إلا إبليس كان من الجن﴾¹

أمر السجود: إذا كان الأمر بالسجود للملائكة وإبليس ليس من الملائكة فهذا يعني أنّه لم يؤمر أو لا يشمل الأمر بالسجود، ولكن إذا نظرنا في الآيات التي تناولت قضية سجود آدم نجد فيها ما يؤكّد أمر الله لإبليس وذلك في قوله تعالى: ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾ [الأعراف:12] ولفظ أمرتك لفظ واضح لا شك فيه يدلّ على أنّ إبليس مأمور بالسجود، خاصة أنّ هذه الآية جاءت بعد آية ﴿ولقد خلقناكم ثمّ صورناكم ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ [الأعراف:11] وهو الموقف نفسه نفسه تُفسّر الآيات في سور مختلفة وقد عرّض بما يتناسب مع سياق كلّ سورة، فنخلص إلى أنّ الاستثناء جاء بهذه الطريقة لأنّ إبليس مع مرتبته التي بلغها صار في عداد الملائكة، وهذا من باب التأويل والله العالم، ولعلّه وردّ مع الملائكة لأنّه وإن لم يكن من جنس الملائكة ولكنّه كان معهم، فإبليس وإن لم يكن من جنسهم فشمله الأمر غير أنّه قد استولى عليه الغرور والتعصب، وقد ورد في السورة المستثنى وهو ليس جزءاً من المستثنى منه.

¹ الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل، ج1، ص111.

■ البناء الثنائي:¹

ورد في السورة البناء الثنائي، بدءًا من وجود قصتين هما قصة موسى، وقصة آدم، وقد احتوت كل قصة على شخصيتين رئيسيتين مترابطتين جدًا برابطة وثيقة، أما في قصة موسى فهما موسى وهارون، ثنائي بينه رابطة قوية فموسى يشد عضده بهارون في فصاحة لسانه وقوة بياضه، فبه شد أزره وصار شريكه في أمره، وكذلك في قصة آدم نجد آدم وحواء ثنائي مرتبط ببعضه، له ذات الميل وذات المصير، كما نلاحظ وجود هذا البناء الاتيني بوجود قوى الخير في مقابل قوى الشر، أما في قصة موسى، فالخير يتمثل في موسى وأخيه، وأما الشر فيتمثل في فرعون، ونلاحظ مجابهة الخير للشر ومحاولة إصلاحه.

ويتكرر ذلك في قصة نبينا آدم -عليه السلام- أيضًا، فثمة قوى للخير تتمثل في آدم وحواء، يقابلها قوى الشر المتمثلة في إبليس، الذي استطاع التأثير في قوى الخير بشره وترتب على ذلك إنزال آدم وزوجه من الجنة للأرض، وهنا يوضع الميزان فمن اتبع الهدى فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض فله ضنك العيش، وفي هذا أيضًا ثنائية، فقد بُنيت الآيات على هذه الثنائية أيضًا في إيضاح المصير لكل من يتبع الخير ومن يعرض عنه، في آيات متقابلة ومنها: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:123]، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:124].

كذلك نجد الثنائيات في داخل الآية الواحدة في أنحاء متفرقة في النص، وذلك مثل قوله: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه:4] / ﴿وَإِنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:7] / ﴿إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه:10] / ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:14] / ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه:40] / ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه:42] / ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:44] / ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه:45] / ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى﴾ [طه:46] / ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه:52] / ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأُنْقَى﴾

¹ وجدت هذه الفكرة عند الباحث ابراهيم عوض، في دراسته سورة طه دراسة لغوية وأسلوبية ص، 131، وكنت قد لاحظت ذلك أثناء دراستي قبل الاطلاع على دراسته ولكن لم تتبلور الفكرة إلا بعد اطلاعي على بحثه، ومنها بنيت تحليلي وتوسعت فيه.

[طه:73] / ﴿لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه:77] / ﴿وَأَصْلًا فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه:79] /
﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه:107] / ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:112] / ﴿إِنَّ لَكَ الْأَلْأَلُ
تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِى﴾ [طه:118] / ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ [طه:119] / ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ
فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:122] / ﴿فَقِيلَ طُلُوعَ الشَّمْسِ وَقِيلَ غُرُوبُهَا وَمِنْ آثَاءِ اللَّيْلِ فَسَبَّحْ وَأَطْرَافَ
النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه:130] / ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:132] / ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ
نُذِلَ وَنُحْزِيَ﴾ [طه:134]

إنَّ ورود هذه التَّنَائِيَّاتِ في الآية الواحدة أسهم في اتِّساقِ النَّصِّ، فهي تتكرَّرُ في كثير من بُنى
النَّصِّ، كما أنَّها سبَّبَ في وجودِ علاقاتٍ بين الألفاظِ، فغالبًا ما تحملُ هذه الألفاظُ التَّنَائِيَّةُ علاقاتٍ
بين بعضها البعض، فيبرزُ التَّضَادُّ والتَّضَامُ، بين هذه الألفاظِ، أمَّا بروز التَّضَادِّ فيظهر في: أضلَّ/
هدى ، طلوع الشمس/غروبها ، آناء الليل/أطراف النهار، كما برز التَّضَامُ: لا يضلَّ /لا يشقى، تاب
عليه/هدى، لا تجوع/لا تعرى ، ظلمًا/هضمًا، عوجًا/أمتًا ، يفرط علينا/يطغى، اعبُدني/ أقم الصلاة،
وهي ألفاظٌ يتَّصلُ بعضها ببعضٍ عن طريقِ وجودِ خيطٍ جامعٍ بينها، مثل قوله: لا تجوع ولا تعرى،
لفظان يدلَّان على حالةِ الأمن التي يعيشها الإنسان، ومثل قوله يفرط علينا أو أن يطغى، لفظان
يدلَّان على حالة الطَّغيان والبطش، ومنه قوله اعبُدني وأقم الصلاة، فإقامة الصلاة جزء من العبادة
وركنها الأساسي، فهي ألفاظٌ يتَّصلُ بعضها ببعض.

كذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه:29] ﴿هَارُونَ أَخِي﴾
[طه:30] ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ [طه:31] ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه:32]: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾
[طه:33] ﴿وَنُذَكِّرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه:34] ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه:35]: فإذا رتَّبنا هذه الآيات
المتتالية نجدُ أنَّها قائمة أيضًا على هذا البناء التَّنَائِي:

المستوى الأول: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ﴿هَارُونَ أَخِي﴾

المستوى الثاني: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾

المستوى الثالث: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ ﴿وَنُذَكِّرَكَ كَثِيرًا﴾

فلما طلب من الله وزيراً من أهله، اختار أخاه هارون، اتَّسمت الآيات بوجودِ ثنائِيَّةٍ بين كُلِّ آيتينِ تربطُهُما رابطةٌ دلاليَّةٌ، فنجدُ أنَّ تماثُك الشَّكل يُحيل على تماثُك الدَّلالة، فالآيتان في المُستوى الأوَّل في أمرِ هذا الوزير وتعريفه، ونجدُ الرّابط بين الآيتين هُوَ البذل، فهارون بذلَّ عن الوزير، أمّا الآيتين في المُستوى الثَّاني فهما تُمثِّلان وظيفة هذا الوزير، وتتمثل في شدِّ الأزر والإشراك في الأمر، وبينهُما رابطٌ لفظيٌّ هُوَ الواو، أمّا الآيتين في المُستوى الثَّالث ففيهما العلَّة، أبرز ذلك لفظ (كي)، فعَلَّة طلبِ هذا الطَّلب غايتهُ التَّسبيح والذِّكر، وبينهُما أيضاً رابطٌ لفظيٌّ هُوَ الواو، ينتهي الشَّكل الثَّاني بآيةٍ تبدأ بمؤكِّد لفظيٍّ هُوَ (إنَّكَ) يُؤكِّد إحاطة الله -عزَّ وجل- بأحوالهما ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾.

ثانيًا: الإحالة: وسندرس الإحالة وفقًا للبنى المحددة سابقًا، ووفق أنواعها الآنف ذكرها، منها الإحالة بالضمائر، والإحالة باسم الإشارة، وسنقف أولًا عند الإحالة بالضمائر وسندرسها في قسمين: أولهما الإحالة في البنية الواحدة، وثانيهما الإحالة بين بُنى النَّص:

أ. الإحالة في البنية الواحدة:

1. البنية الأولى (1 - 8) بيان وظيفة الرسول وحدود تكليفه.

المُحال إليه الأساسي فيها هو: (طه).

المُحال إليه الأول: هو "طه" حيث يُنادي الله نبيه رحمةً به فتتطوّل الآيات بعد ذلك تبعًا مُحيلةً في ألفاظها على الاسم "طه"، مُؤازرةً للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وتخفيفًا عنه، والجدول يوضح هذه الإحالات، التي يعودُ فيها الضمير المُستتر "أنت" على سابقٍ هو "طه" في ألفاظ هي "عليك" و"لتشقى" و"لتجهر".

المُحال إليه	الإحالة	نوعها	الضمير
طه	لتشقى	إحالة داخلية إلى سابق	أنت
	تجهر	إحالة داخلية إلى سابق	أنت

المُحال إليه الثاني هو "الله"، وقد دلّ عليه لفظان اثنان هما "الرحمن" و"الله"، فتُحيل الألفاظ "له" و"إنه" و"يعلم" على الرحمن، ويُحيل اللفظ "له" على المُحال إليه "الله".

المُحال إليه	لفظ المُحال إليه	الإحالة	نوعها	الضمير
الله	الرحمن	يعلم	إحالة داخلية إلى سابق	هو

أمّا هذه البنية فهي تُبرّر العلاقة بين الله ونبيه، وبيان حدود وظيفة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فتتشكّل هذه البنية وفق مُحالٍ إليه أول وهو الرسول في خطابٍ واضحٍ من الله، لبيان حدود وظيفته ومُحالٍ إليه ثانٍ هو الله ليعود الأمر كُلّه إليه من أمورٍ ظاهريّةٍ لا حدّ لها، تشمل السماء والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وكذلك الأمور الخفيّة المتعلقة بما في النفس ودواخلها وما هو أخفى، فالأمر كُلّه له وبإيده.

2. البنية الثانية: (9-98) قصص موسى المحال إليه الأساسي فيها هو: (موسى).

وفقاً للتقسيم السابق، فقد قسّمتُ البنية إلى خمسة، وعلى اختلاف الأقسام واختلاف القصص فيها إلا أنّ الأقسام الخمسة تحمل إحالات تعود على موسى، إذ إنّ هذه البنية تدور حول قصص من حياته، فنجد أنّ هذه الأقسام ترتبط ببعضها وفقاً لما تُحيل إليه، إذ تعود جميعها على مُحالٍ إليه واحد وهو موسى، ومن هنا يتحقّق الترابط الشكلي في كلّ الأقسام، كما نلاحظ وجود مصادر أخرى تتبعها إحالات ولكنها لا تساوي في كثرتها وحضورها الإحالات التي تعود على لفظ موسى فقضيّته هي القضية المركزية.

المُحال إليه	الإحالة	نوعها	الضمير
مُوسَى	ربّك / نعليك / إنك / اخترتك / اصطنعتك / يصدّك / بيمينك / خذها / تخفّ يدك / جناحك / لنريك / عليك / فرجعناك / أمك / فنَجِّيناك / فتناك / أعجلك / قومك / بعدك	إحالة داخلية إلى سابق	الكاف و أنت

البنية الثالثة: (99-135) من قصّة آدم. المُحال إليه الأساسي فيها هو: (آدم).

تقسّم هذه البنية إلى أقسام ثلاثة، أمّا القسم الأول فهو يدور حول المُجرمين وعقابهم، ومن هنا فالمُحال إليه هو لفظ "المُجرمين"، وتتوّعت الإحالات إلى سابق وإلى لاحق، فيدلّ على التماسك الشّديد بين أجزاء هذا القسم، كما ورد مُحال إليه ثانٍ وهو لفظ "الرحمن" وأُحيلت له ثلاث إحالات في هذا القسم، تتوّعت بين لاحق وسابق.

المُحال إليه	الإحالة	نوعها	الضمير
المجرمين	خالدين	إحالة داخلية إلى لاحق	هم
	لهم	إحالة داخلية إلى لاحق	هم
	بينهم / أيديهم / خلفهم / لهم / يتخافتون/ يقولون/ يتبعون/ يتّقون	إحالات داخلية إلى سابق	هم- الواو
	ليثتم	إحالة داخلية إلى سابق	أنتم

المُحال إليه	الإحالة	نوعها	الضمير
الرحمن	له	إحالة داخلية إلى لاحق	هو
	يعلم	إحالة داخلية إلى سابق	هو

أمّا القسم الثاني من هذا المقطع، فتجتمعُ الإحالات حول مُحالٍ إليه هو "آدم"، ومُحالٍ إليه هو "الله"، إذ يشرح هذا المقطع قصة آدم ونزوله من الجنة بعد أن أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها.

المُحال إليه	الإحالة	نوعها	الضمير
آدم	تجوع / تعرى / تظمأ / تضحى / عصى / لك/لزوجك	إحالة داخلية إلى لاحق	أنت الكاف
	نسي / غوى / هدى / عليه/ هدى	إحالة داخلية إلى لاحق	هو/هاء

المُحال إليه	الإحالة	نوعها	الضمير
الله	عهدنا/ نجد/ قلنا/ آياتنا/ أهلكنا.	إحالة داخلية إلى لاحق	نحن/ نا

أمّا التّعقيبُ فيرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمُحالٍ إليه "المُجرمين" الموجود في القسم الأول من البنية نفسها، فيدلّ على ارتباطٍ قويٍّ بين أجزاء البنية نفسها.

المُحال إليه	البنية	الإحالة	البنية	نوعها	الضمير
المجرمين	الثالثة (قسم 1)	نتبع/نذلّ/ نخزي.	الثالثة (قسم 3)	إحالة داخلية إلى سابق	نحن/ نا.
		يأتينا/ إلينا تأتهم/ أهلكناهم لقالوا/ فترَبّصوا/فستعلمون		إحالة داخلية إلى سابق	هم الواو

ب. الإحالة بين بُنى النَّصِّ:

يظهر اتِّساق واضح في داخل كُلِّ بنية، إذ تتنوّع الإحالات حول مُحالٍ إليه واحدٍ أو أكثر، فتشكّل الألفاظ ارتباطاً وثيقاً ببعضها، إذ تُعوّذُ إلى قُطبٍ واحدٍ في كُلِّ بنيةٍ كما عرضنا سابقاً، كما أنّ البُنى ترتبط بعضها ببعض، فنجد أنّ البنية الثَّانية تُحيل على الأولى، والبنية الثَّالثة تحيل على الأولى، فنجد أنّ البُنى الثَّلاث في النَّصِّ مُرتبطة ببعضها البعض، ونعرض أمثلةً لهذا الارتباط بين الألفاظ وما تُحيل إليه:

- ارتباط البُنية الثَّانية بالأولى:

نجدُ إحالةً تربطُ البُنية الثَّانية بالبُنية الأولى (المقدّمة) في النَّصِّ، في لفظ "أتاك" من قوله "هل أتاك حديث موسى"، وهي تُحيل على لفظ "طه" في البُنية الأولى للنَّصِّ، وهذا ما يُحقّق التماسك بين بُنى النَّصِّ، بأن تُحيل ألفاظ في بُنية على مُحالٍ إليه في بُنية أخرى، ليُشكّل اتِّساقاً كُلِّياً، ومنها نتوصّل إلى أنّ الله -عزَّ وجل- إنّما جاء بقصّة موسى -عليه السَّلام- بعد قوله: "أتاك"، مخاطباً نبيّه، ليأتي بقصّة موسى شاهداً على مساندته لأنبيائه.

لفظ المُحال إليه	البنية	الإحالة	البنية	نوعها	الضمير
طه	1	أتاك	2	إحالة داخلية إلى سابق	أنت

1. ارتباط الخاتمة بالمقدّمة:

المُحال إليه	البنية	الإحالة	البنية	نوعها	الضمير
طه	الأولى	اصبر / سبّح / فسبّح / لا تمذّن / أمر نرزقك / نسألك / ربّك	الخامسة	إحالة داخلية إلى سابق	أنت الكاف.

تُحيل الألفاظ في البنية الرَّابعة على مُحالٍ إليه في البنية الأولى وهو "طه"، ويدلّ على تماسك النَّصِّ بناءً وتكويناً، فالبدائية والختام مُرتبطٌ بمُحالٍ هو "طه"، فالإيه وباسمِهِ وتثبيتاً لقلبه وبياناً لوظيفته وتكليفه، نزل هذا النَّصُّ، فظلاله فيه مُنتشرة وما بين البداية والختام، أُحيلت الألفاظ على مُحالين إليه رئيسين هما موسى وآدم، فقصصهما جاءت برهاناً وتثبيتاً وطمأنينة لقلب النَّبيِّ بأنّه معه وناصره وأنّ

أعداءه مصيرهم الشقاء، وما نخلص إليه أن أغلب الضمائر الواردة في سورة طه تُحال على عناصر مُحدّدة:

1. طه
2. الله
3. موسى
4. آدم
5. المجرمين.

وكما ذكرنا سابقاً فإنّ العناصر المحيلة لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل، إذا لا بدّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها، ومن هنا يمكننا فهم النصّ بطريقة أكثر اكتمالاً حين نُعيد الإحالات إلى ما تشير إليه، ومن هنا نجد أن العناصر المُحدّدة هي الأركان الرئيسية في هذه السورة، من خلال عنصر الإحالة نجد أن السورة متماسكة لفظياً وفيها تماسك خطّي بين الألفاظ المتقاربة في البنية الواحدة وبين لفظ وآخر موجود في بنية أخرى، ومن هنا نجد تماسكاً لفظياً واضحاً.

ثانياً الإحالة بالإشارة:

تُحيل أسماء الإشارة أحياناً إحالةً قبليةً فتربط الجزء اللاحق بالجزء السابق، وتسهم بذلك في تماسك ترابط الوحدات النصّية بعضها ببعض، ممّا يُشكّل اتّساقاً في النصّ، ومن أنواع الإحالة:

المُحال إليه	الإحالة	نوعها	الآية
عصاي	تلك	إحالة داخلية إلى لاحق	17
موسى وهارون	هذان	إحالة داخلية إلى سابق	63
عجلاً جسداً له خوار	هذا	إحالة داخلية إلى سابق	88
إلّا إبليس أبى	هذا	إحالة داخلية إلى سابق	117
موسى وهارون	هذان	إحالة داخلية إلى سابق	63
مؤمناً قد عمل الصالحات	أولئك	إحالة داخلية إلى سابق	75

➤ الإحالة باسم الإشارة (هذا):

من الإحالة باسم الإشارة قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه:88]، فجاء لفظ الإشارة (هذا) الوارد في قوله تعالى: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ مَحِيلاً على قوله تعالى: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ﴾.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه:117] فجاء لفظ الإشارة (هذا) الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ مَحِيلاً على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾.

➤ الإحالة باسم الإشارة (هذان):

من الإحالة باسم الإشارة (هذان) وهو اسمُ إشارة يُستخدمُ للمثنى المذكرِ القريبِ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثُلَى﴾ [طه:63]، فقد أُحِيلَ على سابقِ وهو موسى وهارون بلفظ هذان، وقد أشارت لها الآيات السابقة في قوله تعالى: ﴿ادْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه:42].

➤ الإحالة باسم الإشارة (أولئك):

من الإحالة باسم الإشارة (أولئك) قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه:75]، فقد أُحِيلَ على لفظ "مَنْ" بلفظ أولئك تفادياً للتكرار والإعادة.

➤ الإحالة باسم الإشارة (تلك):

نلاحظ أنَّ بعض الإحالات تُحِيلُ على مُفْرَدٍ مِثْلُ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:17]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ [طه:18]، فالإحالة تَمَّتْ باسم الإشارة تلك وهو يُستخدمُ للمُفْرَدِ الْمُؤَنَّثِ القريب، وقد أُحِيلَ إِحَالَةً نَصِيَّةً للاحقة على لفظ: "عصاي".

ثانيًا: الحذف.

تجلى مظهر الحذف في مواضع كثيرة من سورة طه بأنواعه المختلفة، كحذف الاسم، وحذف الفعل، وحذف الجملة، وذكرنا أنّ الحذف يكون أبلغ من الذكر في بعض المواضع، وأحياناً يؤدي حذف اللفظ ما لا يؤديه ذكره، ومن هنا فنحن سندرس بعض ظواهر الحذف في سورة طه:

➤ حذف الاسم: (Nominal Ellipsis)

وهو حذف الاسم من النص، وقد ورد حذف الاسم في أماكن متفرقة في نص سورة طه وبصورة وصيغ مختلفة، ومنه ما ورد في حذف الاسم المبني، منه قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:5] حيث حذف المبتدأ من الجملة والتقدير: (هو الرحمن على العرش استوى)، ومثله قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه:53] وحذف الضمير هو والتقدير: (هو الذي جعل لكم الأرض مهذاً)، فحذف الاسم المبني هو في الموضعين.

ومما ورد أيضاً من حذف الاسم ورود بعض الأفعال المتعدية في النص القرآني دون ذكر مفعولها، فيحذف المفعول من الجملة، ومن ذلك قوله: ﴿وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمُهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه:79] حذف فاعل هدى والمفعول، والتقدير: (وما هدى فرعون قومه) وقد حذف لوجود ما يدل عليه، ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه:77]، حذف دركاً لوجود ما يدل عليه، التقدير (ولا تخشى دركاً)، وقد تكرر كثيراً ورود الأفعال المتعدية دون مفعولها¹، ومن جملة هذه الأفعال ما ورد في الآيات: ﴿إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى﴾ [طه:3]، ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا نُعَلِّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:44]، ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:46]، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:50]، ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه:52]، ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه:56] وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه:61]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَن تُلْقِي وَإِنَّا أَن نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه:65]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَلِ الْاَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه:66]، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمُهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه:79]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى

¹ سورة طه، دراسة أسلوبية لغوية، ص124.

آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِي وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿طه:115﴾، و قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه:116]، وقد وردت جميع هذه الأفعال دون المفعول، ولعل ذلك للإيجاز، أو ليتناسب مع الفاصلة القرآنية وهي الألف، أو لغاية الإطلاق، وعدم التقييد بمفعول مُحدّد.

➤ حذف الفعل: (Verbal Ellipsis)

وقد وردَ في مواضع متعدّدة من ذلك حذف الفعل الماضي نزّلناه في قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْوَعْلَى﴾ [طه:4] فقد حذف الفعل والتقدير: (نزّلناه تنزيلاً ممّن خلق الأرض) وقد حذف الفعل لوجود المفعول المطلق الذي يدلّ عليه، ومن أمثله حذف الفعل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:112] حذف الفعل لوجود ما يدلّ عليه، ومثله قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:89] والتقدير (ولا يملك لهم نفعاً)، حذف الفعل لوجود ما يدلّ عليه.

➤ حذف الجملة: (Clausal Ellipsis).

من أنواع الحذف التي ظهرت في نصّ سورة طه، حذف الجملة وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أُلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه:66] حذف الفعل وفاعله والمفعول والتقدير: (قال بل ألقوا، فألقوا حبالهم وعصيهم فإذا حبالهم) فحذف الفعل وفاعله ومفعوله لوجود ما يدلّ عليه فالدليل مقالّي، ومنه أيضاً حذف شبه الجملة وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ [طه:61] فقد حذف شبه الجملة والمفعول به والتقدير: (وقد خاب من افترى على الله كذباً) وحذف لوجود دليل مقالّي، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ [طه:118] وقد حذف شبه الجملة والتقدير: (ولا تعرى فيها) وقد حذف لوجود ما يدلّ عليها، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه:74] وقد حذف شبه الجملة والتقدير: (ولا يحيى فيها) وقد حذف لوجود ما يدلّ عليها.

ثالثاً: الوصل:

يُعدُّ الوصلُ من أهمِّ الوسائل التي تُسهِّم في اتِّساقِ النَّصِّ، وهو من "الوسائل النحوية لربط الجمل لتصير تتابعات جملية متماسكة تعد بوجه خاص الروابط والألفاظ الربط"¹ أو كما يُطلق عليها ألفاظ الوصل، فتُسهِّم في اتِّصالِ الوحدات النَّصِّية، هذه الأدوات تربطُ اللَّاحِقَ بالسَّابِقِ وفق نظامٍ يُؤسِّسُهُ النَّصُّ، والوصلُ أنواعٌ: الوصل الاستدراكي و الوصل الإضافي والوصل الشرطي والوصل الرَّمْنِي والوصل السَّبَبِي، وسنُحلِّلُ في هذا القسم أدوات الوصل التي أسهمت في اتِّساقِ هذا النَّصِّ، كما وسنركِّز على بعض الأدوات التي كان لها ظهور لافت في النَّصِّ:

أولاً: الوصل الاستدراكي:

ظهر الوصل الاستدراكي بأدواته مكوِّناً علاقةً بين أجزاء النَّصِّ، من ذلك ظهوره في هذه الآيات: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [طه:87]، جاءت لكن تُفيد الاستدراك.

ثانياً: الوصل السَّبَبِي:

ظهر الوصل السَّبَبِي ظهوراً لافتاً في النَّصِّ، رابطاً بين السَّبَبِ والمُسَبَّبِ، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً﴾ ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه:29-35]، إنَّ وجود هَارُونَ يُمثِّل حاجةً وضرورةً هامةً وفقاً لما ورد على لسانِ مُوسَى، فقد اختار أخاه شريكاً معه لأداءِ المُهمَّةِ، ذلك أنَّه يحتاج لمن يكون له عوناً في مهمَّته، ثُمَّ نجدُ أداة الوصل السَّبَبِي ﴿كَيْ﴾ [طه:33]، تربطُ بين المُسَبَّبِ والسَّبَبِ، فيُبيِّن مُوسَى -عليه السَّلام- العِلَّةَ والغاية من وراء طلبه لوجود هَارُونَ معه مآزراً له في أداءِ المُهمَّةِ وذلك في قوله تعالى: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً﴾ [طه:33]، ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ [طه:34]، فالعلة هي التَّسْبِيحُ والتَّذْكَرُ، "ووجه ذلك أنَّ فيما سأله لنفسه تسهيلاتاً لأداءِ الدعوة بتوفر آلتها ووجود العون عليها ودعوة كلٍّ منهما تشتمل على التعريف بصفات الله وتنزيهه فهي مشتملة على التسبيح، وفي الدعوة حتُّ على العمل بوصايا الله

¹ بحيري، سعيد، إسهامات أساسية في العلاقة بين النص والتحر والذلالة، ط1، مؤسسة المختار، القاهرة، 2008، ص268.

تعالى عباده، وإدخال الأمة في حضرة الإيمان والتقوى، وفي ذلك إكثار من ذكر الله بإبلاغ أمره ونهيه¹، فنجد الوصل قد حقق غايته في ربط المُسَبَّب بالسبب من خلال الأداة كي.

ومثله قوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه:40] فهذه الآية تذكر سبب إرجاع موسى لأُمِّه، إرجاعه كانت له غاية، فبعد إلقائه في اليم ووصوله إلى بيت فرعون، ظل قلب أم موسى فارغاً، ولكن ثمة غاية هي السبب في إرجاع موسى لأُمِّه وهو ما بينته لنا أداة الوصل السببية ﴿كَيْ﴾ [طه:40] فيظهر السبب بعدها ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه:40]، فهنا يرتبط جزء من النص بآخر من خلال ربط السبب بالمُسَبَّب، وإبراز الغاية من خلال عنصر الربط السببي.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه:116] بيان أن سجود الملائكة لم يكن اعتباطاً، فهم يفعلون ما يُؤْمرون، فسجودهم كان لسبب وهو الواضح في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ فهو أمر إلهي استجاب له الملائكة فكانت عملية السُّجود، "فالفاء عاطفة لربط المُسَبَّب بالسبب"².

ومثله قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه:117]، فإن سبب شقاء آدم هو الاستجابة للعدو، هذا العدو أشارت إليه الآية بالقول: ﴿هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ وهي إشارة صريحة واضحة، فالعدو هو إبليس، وقد نبهه الله وحذره منه، فربطت الفاء بين المُسَبَّب وهو اتباع إبليس، وبين السبب وهو الشقاء، وقد ركز النص على مفهوم الشقاء والهداية، وبروز السبب هنا وإن كان يربط بين المُسَبَّب والسبب لكنه من جهة أخرى يربط بين بقية أجزاء النص من خلال إبراز سبب الشقوة، وقد عرض النص معناها وصورها، وفي هذه الآية يركز على سببها، كما وردت أصداً لهذه الفكرة في أماكن متفرقة من النص.

¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص213-214.

² صافي، محمود، الجدول في إعراب القرآن وصرفه، ج8، ص353.

ثالثاً: الوصل الإضافي:

يقوم الرّبط الإضافي على إضافة معنى جديد من خلال الرّبط بين الجُمْل السابقة باللاحقة ولكي أحلّ روابط الوصل ساقف عند مقطع من مقاطع قصّة موسى، حين خاطب ربّه، وقد اخترت هذا المقطع لوضوح التّرابط بين مفاصليهِ فالتّرابط على أشده، وذلك في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه:25]، ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه:26]، ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ [طه:27]، ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه:28]، ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ [طه:29]، ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ [طه:30]، ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ [طه:31]، ﴿وَاشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه:32]، ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ [طه:33]، ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه:34]، ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنًا بَصِيرًا﴾ [طه:35]، ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:36]

ربّ اشرح لي صدري

ويسّر لي أمري

واحلّل عُقْدَةً من لِسَانِي (يفقهوا قولي)

واجعل لي وزيراً من أهلي (هارون أخي)

اشدّد به أزري

واشركه في أمري

كي نُسَبِّحَكَ كثيراً

ونذكرك كثيراً

إنّك كُنْتَ بنا بصيراً

يظهر التّرابط اللفظي في هذا المقطع من خلال أدوات لفظيّة تتسق مع التّراكيب المتوازنة فتتّصّ وتتنظّم في امتداد واضح للجانب الرّوحي الدّاخلي لموسى، إذ يُخاطب ربّه في حاجته الملحة لأخيه، فنجد الواو تُشكّل رابطاً لفظيّاً بين الجُمْل الثلاث الأساسيّة، والواو رابطاً آخر بين الجُمْل الفرعيّة "اشدّد به أزري"، و "اشركه في أمري" لما تُفيدُه الواو من دلالة على الجَمع والمشاركة، كما تتّصلّ بجُمْل مُتفرّعة عن الجُمْل الفرعيّة بروابط أبرزها كي التي يُعلّل بها موسى رغبته، ويستخدم الواو للجَمع، وينتهي بمؤكّد لفظي يُفيد التّأكيد وهو "إنّك" دلالة على اليقين بمعرفة الحال، بمعنى ثقة موسى بمعرفة ربّه بحاله فهو البصير به، وتظهر الرّوابط المعنويّة في المقطع في مظهرين، الأوّل: هو قوله "يفقهوا قولي" ليبين لنا العُقْدة وهي التي تحوّل دون هذا الفهم، أمّا الرّابط الآخر فهو: "هارون أخي" الذي جاء مُفسّراً للقول "وزيراً من أهلي".

رابعاً: الوصلُ الزمَنيُّ:

يقوم الوصلُ الزمَنيُّ على ترتيبِ الأحداثِ زمنياً من خلالِ أدواتٍ منها: "من ثمَّ، بناءً على هذا، إذاً، نظراً لـ..."¹، ومن أمثلة الرِّبطِ الزمَنيِّ قوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ [طه:40] إِنَّ وجودَ الرِّابطِ الزمَنيِّ "ثمَّ" يدلُّ على وجودِ فاصلٍ زمَنيٍّ بينِ حدثين، فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ دليلٌ حدوثِ ذلك بعد فترة زمَنيَّة وفي ذلك يقول ابن عاشور: "قوله ثُمَّ جِئْتَ على قدر يفيد أنَّ ما حصل لموسى كان مقدراً من الله تقديراً مناسباً متدرجاً، بحيث تكون أعماله وأحواله قد قدرها الله وحددها تحديداً منظماً لأجل اصطفاؤه وما أراد الله من إرساله"² فحدثت كلُّ هذه الأحداث لتكون طريق موسى للنُّبُوَّة، بها يتهيأ ويستعدُّ ويكونُ متهيئاً لحملِ الأمانة، لذلك كان مجيئُ ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ بعد ثُمَّ، لبيان وجودِ هذه الفترة الزمَنيَّة لاصطناعِ موسى.

ومثله قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:50] يدور معنى الآية حول خلق الأشياء و هدايتها، "المراد بالهداية الهداية العامة الشاملة لكل شيء دون الهداية الخاصة بالإنسان (...)" ومعلوم أن التدبير ينتهي إلى الخلق بمعنى أن الذي ينتهي وينتسب إليه تدبير الأشياء هو الذي أوجد نفس الأشياء³ والمراد هو الرجوع لله -عزَّ وجل- بالقول بأنَّه ربُّ و خالقُ كلِّ شيء وهو الَّذي تكفل بالهداية، وذلك يتناسب مع مقام سؤال فرعون وإجابته، وجاءت ثُمَّ للترتيب الزمَني، أي خلق الله الأشياء ثُمَّ هدى كلَّ شيء إلى ما خلقه لأجله.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه:60] ومفاد ثُمَّ هنا الوصلُ الزمَنيِّ ففرعون لم يأتِ إلّا بعد أن دبّر المكائد وأعدَّ العُدَّة لمُواجهة موسى -عليه السَّلام-، وثُمَّ هنا تُفيد التَّرتيب الزمَني بين التدبير والإتيان، ولعلَّ وجودَ ثُمَّ لإبراز حالة تأهُّب فرعون "ومعنى" ثُمَّ أَتَى" ثُمَّ حضر الموعد، وثم للمهلة الحقيقية والرَّتيبة معاً، لأنَّ حضوره الموعد كان بعد مضي مهلة الاستعداد، ولأنَّ ذلك الحضور بعد جمع كيده أهم من جمع الكيد، لأنَّ فيه ظهور أثر ما أعدّه⁴

1 حسين، جميل عبد المجيد، علم النُّص، أسسه المعرفية وتجلياته النُّقدية، مجلة عالم الفكر، العدد2، المجلد 32، أكتوبر-ديسمبر 2003، الكويت، ص147.

2 التحرير والتتوير، ج16، ص222.

3 الطباطبائي، الميزان، ج14 ص167.

4 ابن عاشور، التحرير والتتوير، ج16، ص248.

من خلال تحليل أنواع الوصل والوقوف على أدواته، وجدنا ما لروابط الوصل من أهمية في بناء النص وتماشكه على مستوى الشكل، وما لها من أثر كبير في تماسك النص الدلالي وفهمه وإدراكه بصورة أفضل، و وجدنا أن عنصر الوصل والربط من أهم وسائل الاتساق في النص، فلا يكون النص متسقاً إذا خلا من ربط بين أجزائه، كما أنه ثبت لي عن طريق الإحصاء وجود بل وكثافة عنصر الربط في النص، إذ عمدت إلى رصد عموم أدوات الوصل بأنواعه في نصف السورة فقط فوجدتها عناصر قد تكثفت وتنوعت لترتبط بين الألفاظ في الآية الواحدة أو بين آيتين وتنوعت بين "الواو والفاء و ثم".

الآية	الأداة	الوصل	
4	الواو	الأرض والسموات.	بين الآية الواحدة
6	الواو الواو الواو	وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى	الآية الواحدة الآية الواحدة الآية الواحدة
7	الواو	وأخفى	الآية الواحدة
10	أو	أو أجِدْ	الآية الواحدة
13	الواو	وأنا	الآية الواحدة
14	الواو	وأقم الصلاة	بين آيتين
17	الواو	وما تلك	بين آيتين
18	الواو الواو	وأهشُّ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى	الآية الواحدة الآية الواحدة
21	الواو	ولا تخف	الآية الواحدة
22	الواو	واضمم	الآيتين
26	الواو	ويسر	الآيتين
27	الواو	واحلل	الآيتين
29	الواو	واجعل	الآيتين
32	الواو	وأشركه	الآيتين
34	الواو	ونذكرك	الآيتين
39	الفاء	فاقذفه	الآية الواحدة

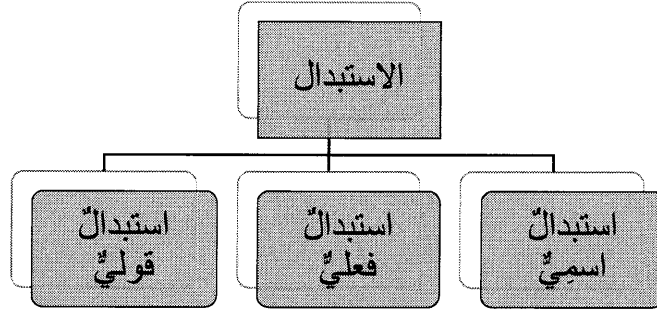
الآية الواحدة	وعدو	الواو	
الآية الواحدة	وألقيت	الواو	
الآية الواحدة	ولتصنع	الواو	
الآية الواحدة	فرجعناك	الفاء	40
الآية الواحدة	ولا تحزن	الواو	
الآية الواحدة	فنجيناك	الفاء	
الآية الواحدة	وفتتأك	الواو	
الآية الواحدة	ثم	ثم	
الآيتين	واصطنعتك	الواو	41
الآية الواحدة	وأخوك	الواو	42
	ولا تتيا	الواو	
الآيتين	فقولاً	الفاء	44
الآية الواحدة	أو يخشى	أو	45
الآية الواحدة	وأرى	الواو	46
الآية الواحدة	فقولاً	الفاء	47
الآية الواحدة	ولا تعذبهم	الواو	
الآية الواحدة	ثم هدى	ثم	50
الآية الواحدة	وسلك	الواو	53
الآية الواحدة	وأنزل	الواو	
الآية الواحدة	فأخرجنا	الفاء	
الآية الواحدة	وارعوا	الواو	54
الآية الواحدة	وفيها نعيدكم	الواو	55
	ومنها نخرجكم		
الآية الواحدة	فكدب	الفاء	56
الآية الواحدة	فاجعل	الفاء	58

59	الواو	وأن	الآية الواحدة
60	الفاء الفاء ثم	فتولّى فجمع ثم أتى	بين الآيتين الآية الواحدة الآية الواحدة
62	الواو	وأسروا	الآية الواحدة
63	الواو	ويذهبوا	الآية الواحدة
65	الواو	وإمّا	الآية الواحدة
66	الفاء الواو	فإذا وعصيّهم	الآية الواحدة الآية الواحدة
67	الفاء	فأوجس	بين آيتين

يظهر من خلال الجدول كثافة عناصر الوصل، إذ لها حضور لافت، فأسهم في ربط الألفاظ في الآية الواحدة، أو بين آيتين، وهذا الحضور يسهم في تشكيل اتّساق متين في النصّ، فتتوّعت أدوات الوصل بين "الواو والفاء وثمّ"، مؤدّية دورها في ربط السّابق باللاحق، كما ويظهر كثافة حضور أداة الوصل "الواو" وإسهامها في خلق الصّلة والرّبط.

رابعاً: الاستبدال (Substitution)

ذكرنا سابقاً أنَّ الاستبدال هو عملية تتم داخل النص، إنَّه تعويض عنصر في النص بعنصر آخر¹، والاستبدال أنواع هي على هذا النحو:



أولاً: الاستبدال الاسمي:

يتمُّ باستعمال الكلمات واحد، نفس، ذات، آخر، آخرون، فتحلُّ محلَّ كلماتٍ أخرى في النصِّ ذاته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ [طه:22]، فلما كان عرض آية سابقة وهي آية تحويل العصا لحية، جاء ذِكْرُ الآية الأخرى وهي اليدُ البيضاء، فهي آية ثانية فقد استبدل القرآن ذكر آية العصا مجدداً بلفظ "أخرى" للإيجاز عوضاً عن التَّطويل والتَّكرار.

ومثله في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه:37] فقد استبدل إعادة ذكر المنى بلفظ "أخرى" لما يحمله اللفظ من إيجاز، خاصة وأنَّ ذِكْرَ المنى قد ذُكِرَ على نحو التفصيل فيكون ذكره في هذا الموضع تكراراً، ومثله قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:55] وجود لفظ "أخرى" جاء عوضاً عن ذِكْرِ عملية الإخراج الأولى، فقد ذَكَرَ اللهُ في الآية نفسها "منها خلقناكم"، فمن هذه الأرض خلقناكم، فقوله "تارةً أخرى" جاء منعاً للتكرار، كأن يقول: ومنها نخرجكم كما خلقناكم أول مرة، فمنعاً للتكرار ورد لفظ أخرى.

وممَّا ورد في الاستبدال الاسمي قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:36] فاستبدل الآيات التي سبقتها والتي احتوت على دعوات قد طلبها موسى-عليه السلام- من ربه، وهي شرح الصدر وتيسير الأمر وحلَّ العقدة، وجعل هارون وزيراً وإشراكه معه في أمره. استبدلها جميعاً بقوله "سؤلك".

¹ خطابي محمد، لسانيات النص، ص19

ومن الاستبدال الاسمي قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاجِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:69] فقد استبدلَ لفظ "ما في يمينك" عوضًا عن لفظ "عصاك" وفي ذلك حكمة بالغة، ذلك أنَّ الله سألَ موسى عما في يديه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:17] ، فأجابه موسى - عليه السَّلام - ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه:18] حتَّى تستيقنَ نفسه أنَّ ما في يمينه هي عصا قبل أن تتحوَّل لحية حتَّى لا يُساوره الشكُّ، ولا يدخلُ في نفسه شيء، وحين طلب منه في يوم الزينة أن يُلقي استبدلَ لفظ العصا بلفظ "ما في يمينك" لأنَّه قد هيأه مُسبقًا لذلك، وليستذكر ما عاشه من لحظة طمأنينة وسكينة بتكليم الله له في ذلك اليوم.

ثانيًا: الاستبدالُ القولي:

➤ الاستبدالُ باسم الإشارة (ذلك):

مثل قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه:54]، فجاء لفظُ (ذلك) استبدالًا لجُمْلَتَيْنِ هُما: (كُلُوا) و (ارعوا اغنامكم).

ومثله في قوله تعالى: ﴿جَنَآثُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ [طه:76] فجاء لفظُ (ذلك) استبدالًا عن جُملة واحدة (جناتُ عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) فجاءت تعبيرًا عن هذه الجنات والخلود فيها.

ومثلُ قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه:128] فجاء لفظُ (ذلك) استبدالًا لجُمْلَتَيْنِ (أهلكنا قبلهم من القرون) و (يمشون) والتقدير: إنَّ في إهلاكنا من القرون والمشي، آياتٍ لأُولِي النُّهَى.

ومن اللَّافِتِ كثرة استخدام (كذلك) في النَّصِّ، واستبدال الجُمْلِ بها منعا للتكرار وإيجازًا، من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [طه:87] فجاء لفظُ (كذلك) مسبوقًا بالكاف، بمعنى مثل ذلك، أي مثل ذلك القذف قذف السَّامِرِيِّ.

ومن استبدال الجُمْلِ بلفظ كذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه:96] فجاء لفظُ (كذلك) بمعنى ومثل ذلك من أخذي

لقبضة التراب التي أخذتها من أثر الرسول "فنبذتها في الحلي المذاب أو في جوف العجل حتى حيي"¹ فمثل ذلك قد سؤلت لي نفسي، وفي ذلك دلالة على أن ما قام به السامري هو من نفسه الأمانة بالسوء.

ومن استبدال الجمل بلفظ "كذلك" قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:99] أي كما قصصنا عليك نبأ بني إسرائيل² فنحن نقص عليك أيضًا مثله من أنباء السابقين، وقد ذكر "كذلك" منعًا للتكرار، لأن القرآن يمتاز بالاعتصار والبلاغة في القول، فاستبدل قوله "كما قصصنا عليك من نبأ بني إسرائيل وقصصهم مع موسى" بلفظ (كذلك).

ومن استبدال الجمل بلفظ "كذلك" قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه:113] أي مثل ذلك الإنزال لقصص السابقين أنزلنا عليك القرآن، وقد استبدل العبارة بقول ذلك، ومنه أيضًا: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه:126]، فجاء لفظ (كذلك) استبدالاً للجمل من أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى "والإشارة في "كذلك أتتك آياتنا" راجعة إلى العمى المذكور في قوله "لم حشرتني أعمى"، أي مثل ذلك الحال التي تساءلت عن سببها كنت نسيت آياتنا حين أتتك، وكنت تعرض عن النظر في الآيات حين تدعى إليه فكذلك الحال كان عقابك عليه جزاءً وفاقاً"³

ومن استبدال الجمل بلفظ "كذلك" قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:127] فجاء لفظ (كذلك) استبدالاً لجمله من أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، فمثل ذلك يكون جزاء من أسرف بآيات الله ولم يؤمن.

ونلاحظ من خلال هذا التحليل لعنصر الاستبدال أن هذا العنصر يجعل النص متماسكاً، كل لفظ يؤدي للآخر وكل وحدة نصية تؤدي للآخرى في ترابط واضح، وأن أدوات الاستبدال قد أدت دوراً هاماً في ربط النص وتماسكه وقوته.

¹ البيضاوي، ناصر الدين، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ج4، ص37.

² الأندلسي، القاضي أبو محمد، المحرر الوجيز، ج4، ص63.

³ ابن عاشور، التحرير والتتوير، ج16، ص332.

أسهمت وسائل الاتساق في ربط مفاصيل النص بعضها ببعض، وفق المستوى الصوتي والمستوى المعجمي والمستوى التركيبي للاتساق، فقامت وسائله بدورها الالفت في مهمة الربط على المستوى الشكلي، ففي المستوى الصوتي ظهرت الفاصلة كملح بارز يشكّل حلقة وصل بين المقاطع من خلال الإيقاع، مع ظهور ما يشدّ عن سلسلة الأصوات المنتظمة، لإثارة انتباه المتلقي إلى جانب مهم في النص وتوجيهه إليه، كما وأسهم الجناس في ربط من خلال ما يحدثه من إيقاع صوتي يؤسسه التماثل الصوتي بين الحروف.

كما وأدت على المستوى المعجمي صلة وثيقة إذ ارتبطت كلّ بنية من بُنى النص بمعانٍ متصلة، كما اتصلت كلّ البنى بخيط دلالي، كما وظهر التكرار وسيلة بارزة لها حضورها الفعال والالفت في هذا النص وأسهمت في اتساقه، ومثله ما حدث على المستوى التركيبي إذ كان لوسائل الاتساق من إحالة و وصل وحذف واستبدال في ربط البنى النصية، وبذلك أسهم هذا الاتساق في تماسك النص القرآني.

الفصل الثالث: الانسجام في سورة طه

"... إنَّ النَّصَّ معقّدٌ مُتشابكٌ لا يمنحُ معناه بسهولة ولا يهبُ نفسه في يُسر، بل لا تستنفد معانيه تفاسير عدّة، وهو متمثّل في كلّ تفسير، غير أنّه غير متضمّن فيه بدرجة تحول دون إعادة القراءة، إنّ كل قراءة تشكّل جزءاً من المعنى اللّانهائي، وتعكس قدرة القارئ على النفاذ إلى عالمه" سعيد بحيري

إذا كانت النُّصوصُ تجذبُ دارسيها للبحث عن المعنى الَّذي لا يدركُ إلّا بالخوضِ في غمارِ الدّلالة والإبحارِ في أعماقِ التّأويلِ، والتّفتيشِ في مكنونه عن إشاراتٍ ودلائلٍ للوصول للمقاصد، فإنّ النّصّ القرآنيّ جذبَ وما يزال يجذبُ الباحثين والمفسرين للإبحارِ نحوَ الأعلى، لإدراكِ معانيه، ذلك أنّ "في القرآنِ القصد في اللفظ، والوفاء بحقّ المعنى"^١، فلكلّ نصٍّ قرآنيٍّ معنىٌّ في ألفاظٍ موجزةٍ بليغةٍ و يحتاج لتدبّرٍ لإدراكه، فلا تعومُ القصصُ فيه بطريقةٍ عشوائيةٍ وإنّما تُشكّلُ الدّلالةَ ترتبها فتأخذُ كلّ قصّةٍ مكانها، وكلّ تعقيبٍ وترغيبٍ ووعيدٍ وتهديدٍ، كلّ يجري لمُسْتَقَرٍّ لَهُ فتتنظّمُ مُشكّلةً عقداً فريداً تنتظّمُ دُرره و "يظهر الدالّ والمدلول في وحدة عضويّة وثيقة"^٢، ندرسها بشيء من التّفصيل من خلال الوقوف على الانسجامِ ووسائله، ويلزمُ لفهم هذا النّصّ وإدراكِ معانيه معرفةُ المقامِ الَّذي قيلَ فيه لأنّ معرفةَ السّياقِ يُؤدّي إلى فهمٍ دلاليٍّ أدقّ فندرسُ أسبابَ نزولِ السّورةِ بوصفها جزءاً من السّياقِ الخارجيّ للنّصّ لما لَهُ من أثرٍ في معرفته وتبيّنِ دلالاته، وسنحلّلُ النّصّ وفقاً لوسائلِ الانسجامِ، بدءاً من العنوانِ إذ يحملُ العنوانُ مفاتيحَ بها نلجُ النّصّ، فموضوع النّصّ، وسنحلّلُ ترتيبَ البنية الكليّة وتدرّجها في بناءِ النّصّ وما يترتّب على ذلك من تقديمٍ أو تأخيرٍ في بعضٍ وحداته، كما سنحلّلُ ترتيبَ إحدى البنى الدّاخلية، إضافةً لتحليلِ الانسجامِ في الآية الواحدة، والانسجامِ بين عباراتِ السّورة عامّةً، والانسجامِ بين بعضِ العباراتِ الواردة في السّورة، كما سنقفُ عند دراسة الاختتام، ودراسة العلاقاتِ الواردة في النّصّ، في إطار البنية الواحدة، والعلاقاتِ في إطار البنية الكليّة للنّصّ.

^١ ويس أحمد، ثنائِيّة الشعر والنثر في الفكر النّقدِي، ص ٣٥٩.

^٢ ويس، أحمد، ثنائِيّة الشعر والنثر في الفكر النّقدِي، ص ٣٤٤.

أسباب النزول:

اختلفت الروايات في أسباب نزول سورة طه، ونجد أن التفسير التي درستها لا تخرج عن أسباب أربعة:

الأول: هو أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان كثير التعب فيجهد نفسه في العبادة فأنزل الله هذه السورة لتبين أن هذا القرآن لم ينزل لشقاء النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، من ذلك ما نقله ابن عباس عن "ابن مردويه، عن علي رضي الله عنه قال: لما نزل على النبي -ﷺ- (يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً) قام الليل كله حتى تورمت قدماه، فجعل يرفع رجلاً، ويضع رجلاً، فهبط عليه جبريل، فقال: ﴿طه﴾ يعني الأرض بقدميك يا محمد ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ وأنزل (فاقرؤوا ما تيسر من القرآن)"^١، ومثله ما نقله البيضاوي أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يقوم في تهجد على إحدى رجليه وطه هي أمر للرسول بأن يطأ الأرض بقدميه^٢ ومثله ما أورده الشيرازي أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يعبد الله ويكثر القيام والوقوف في العبادة حتى تورمت قدماه، وكان يستند في وقوفه على إحدى قدميه، ثم يستند على الأخرى، وحيناً على كعب قدمه، وحيناً آخر على أصابع رجله، فنزلت الآيات وأمرت النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن لا يحمل نفسه هذه المشقة^٣، ومثله ما نقله البحراني في تفسيره البرهان عن حميد بن زياد، عن الحسن بن محمد، عن أبي جعفر -عليه السلام-، قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله لم تتعب نفسك، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟، قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقوم على أطراف أصابع رجله، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿طه* مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾"^٤، ومنه ما أورده السيوطي في سبب نزول السورة فيما نقله عن ابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عباس: أن النبي -ﷺ- أول ما أنزل عليه الوحي كان يقوم على صدور قدميه إذا صلى، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿طه* مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾"^٥

^١ السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، الدر المنثور، ج ٥، دار الفكر، بيروت، ٢٠١١، ص ٥٤٩.

^٢ أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ج ٤، ص ٢٢.

^٣ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٩، ص ٣٣٣.

^٤ البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ١٥٥.

^٥ السيوطي، الدر المنثور، ج ٥، ص ٥٤٩.

الثاني: أن السورة نزلت تسليّة للنبي وتذكيرًا له بأن القرآن نزل لتذكير الناس، ومن ذلك ما أورده الطّباطبائي في تفسيره الميزان، فهو يرجع سبب نزول السورة إلى تسليّة النبي صلى الله عليه وآله وأن لا يتعب نفسه في دعوة الناس فلم ينزل القرآن ليتكلف به وإنما ليذكر به الناس بخالفهم لتستيقظ غريزة خشيتهم من الله فيتذكروا ويؤمنوا وليس عليه إلا التبليغ^١ وكذلك ما أورده أبو حيان الأندلسي لا تتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا كقوله: (لعلك باخع نفسك)، فما عليك إلا أن تذكر^٢ وهذه هي مهمة الرسول، فنزلت السورة تسليّة له.

الثالث: أن كفار قريش قالوا: ما أنزل الله القرآن على محمد إلا ليشقى به، ومنه ما أورده السيوطي نقلًا عن ابن أبي حاتم عن الضحاك أنه قال: "لما أنزل الله القرآن على النبي ﷺ - قام به وأصحابه، فقال له كفار قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى به. فأنزل الله ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾" ومن ذلك أيضًا ما أورده السيوطي عن ابن مردويه وابن جرير، عن ابن عباس قال: قالوا لقد شقي هذا الرجل بربه، فأنزل الله: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾" ونقله الواحدي^٣، ومثله ما أورده الشعراوي في تفسيره: "هذا كلام الكفار أمثال أبي جهل، ومطعم بن عدي، والنضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة حينما ذهبوا إلى النبي وقالوا له: لقد أشقيت نفسك بهذه الدعوة"^٤.

ونقل ابن كثير عن جوير عن الضحاك أنه قال: "لما أنزل الله القرآن على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم قام هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾"^٥.

الرابع: أن قريشًا قالت للنبي إنك تشقى بترك ديننا، فكان قريشًا تهزأ بدين محمد الذي يشقيه، أورد الواحدي: "قال مقاتل: قال أبو جهل، والنضر بن الحارث للنبي صلى الله عليه وآله: إنك لشقي بترك ديننا، وذلك لما رأياه من طول عبادته و [شدة] اجتهاده فأنزل الله تعالى هذه الآية"^٦.

^١ الميزان، ج ١٤، ص ١١٩.

^٢ الأندلسي، أبو حيان، تفسير البحر المحيط، ط ١، ت. زكريا عبدالمجيد، أحمد النجولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٦، ص ٢١١-٢١٢.

^٣ الواحدي، أسباب نزول الآيات، ص ٢٠٥.

^٤ الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، أخبار اليوم قطاع الثقافة، ١٩٩١، ج ١٥، ص ٩٢١١-٩٢١٢.

^٥ ابن كثير، الإمام الحافظ عماد الدين الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ط ١، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٥، ص ٢٤٠-٢٤١، وانظر الأندلسي القاضي أبو محمد، المحرر الوجيز، ج ٤، ص ٣٧.

فنجِد أنَّ أغلب ما وردَ يدورُ حولَ معانٍ مُتقاربةٍ فالنَّبِيُّ اجتهدَ حتَّى قيل إنَّهُ يشقى وهذا المُعطى الَّذي تشتركُ فيه كتبُ التَّفاسيرِ التي عُدنا إليها، أمَّا ما تبعَ هذا المُعطى فهو إمَّا أنَّ قُريشًا هزئتَ بدينِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- أنَّه يُشقيهِ، أو هزئتَ بِمُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- أن تركَ دينهم فشقي، أو أنَّ النَّبي لكثرَ تعبده شقيَّ بالعبادة، فنجدُ المُعطياتِ الثلاثةَ تركُزُ على أنَّ الشَّقاءَ ناتجٌ عن العبادة، إلَّا ما أورده الطَّبَّاطبائي في تفسيره فهو فسَّرَ أنَّ الشَّقْوَ مُتعلِّقةٌ بِكَيْفِيَّةِ الدَّعْوَةِ لا بِكَيْفِيَّةِ العبادة، ونجدُه أرجح، يُؤكِّدُ ذلك النَّصُّ القرآني نفسه، فالشَّواهد والمُعطياتُ الَّتِي تُؤكِّدُها السُّورة هي إنَّما تصبُّ في معنى واحدٍ وإن كان الاختلافُ في ذلك طفيفًا لأنَّ العبادة والدَّعْوَةَ شيئانِ ينصبَّانِ في مصبٍّ واحدٍ وهو أداءُ الأمانةِ والرَّسالةِ والوفاءِ لها.

¹الواحدي، أسباب نزول الآيات، ص ٢٠٥.

خصائص السورة:

سورة طه "مكيّة كلّها على قول الجمهور وفي الإتيان أنّه استثنى منها آية "فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها" واستظهر في الإتيان أن يستثنى منها قوله تعالى " ولا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا" لما أخرج أبو يعلى والبخاري عن أبي رافع قال: أضاف النّبي - صلى الله عليه وسلّم - ضيفاً فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب فقال: لا، إلّا برهن، فأتيته النّبي فأخبرته فقال: أما والله إنني لأمين في السّماء أمين في الأرض. فلم أخرج من عنده من عنده حتّى نزلت "ولا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا"^١

وقد ردّ ابن عاشور على حديث أبي رافع بقوله: "وعندي أنّه إن صحّ حديث أبي رافع فهو من اشتباه التّلاوة بالنّزول فلعلّ النّبي - صلى الله عليه وسلّم - قرأها متذكّراً فظنّها أبو رافع نازلة ساعته ولم يكن سمعها قبل، أو أطلق النّزول على التّلاوة"^٢، فكما يظهر من تعليق ابن عاشور أنّ الآية من محفوظات النّبيّ فقرأها متذكّراً فظنّ أبو رافع أنّه وقت نزولها وهذا ما التبس، وعليه فإنّ السّورة مكيّة كلّها، ويردّ إبراهيم عوض على موقف حزن الرّسول - صلى الله عليه وآله وسلّم - عند اشتراط الرّهن من اليهودي عليه حين أراد أن يُقرضه في قوله: "وبعيداً أن يحزن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام لهذا الأمر الثّاقف، وبخاصّة أنّ القرآن نفسه يحضّ المسلمين إذا ما اقترض بعضهم من بعض ولم يكن ثمّ كاتب يسجل الدّين أن يُعطى المقرض للمقرض رهناً: " وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة" "^٣

ويمكننا أن نُضيف "بالنسبة لقوله تعالى "فاصبر على ما يقولون..." فإنّ الّلافت للانتباه هو أن هذا التّعبير قد تكرّر في النّصوص المكيّة (مبدوءاً بالفاء أو الواو) ثلاث مرّات، ولم يأت في أيّ نصّ مدني"^٤ وعلى هذا فالسّورة مكيّة كلّها.

والسّور المكيّة هي ما نزلت على النّبيّ قبل الهجرة، وقد نزلت "في ثلاثة عشر عامّاً، وتعدّت أكثر من ثمانين سورة وفي مناسبات متعدّدة"^٥ و لهذه السّورة أهدافٌ متعدّدة تلتقي فيها مع السّور المكيّة أبرزها

^١ الطّاهر بن عاشور، التّحريض والتّوير، ج ١٦، ص ١٨٠.

^٢ نفسه، ص ١٨٠.

^٣ سورة طه، دراسة لغويّة أسلوبيّة، ص ٩.

^٤ نفسه، ص ١٠.

^٥ الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللّغة النّصّي بين النّظريّة والتّطبيق، دراسة على السّور المكيّة، ج ١، ص ١٧٣.

هُوَ إبراز جانب العقيدة وترسيخها وقد ذكر محمود الحسن الأهداف التي تلتقي فيها سورة طه مع عموم السُّور المكيّة: ^١

١. التّركيز على توحيد الله -عزّ وجل-.
٢. عرض مقام النبوة واختيار موسى ومُؤازرته بأخيه لتبليغ الدّعوة.
٣. إبراز بعض مشاهد يوم القيامة للتأثير في المتلقّي.
٤. عرض تصوير ليوم الحشر، وجزاء العمل.

^١الحسن، محمود عبدالكريم، تفسير سورة طه تفسيرًا موضوعيًا، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٤، ص ٣.

وسائل الانسجام:

أولاً: العنوان:

يدرسُ العنوان بوصفه البوابة التي بها يدخلُ المتلقي إلى النصِّ، ويفترض ذلك أن يكون العنوان معبراً عن المحتوى أو عن جزء منه على الأقل، أمّا عنوان النصِّ فقد حملَ اسماً من حرفين "طه"، و "هذه التسمية مروية عن النبي-صلى الله عليه وسلم-"^١ وقد وردت تفسيرات عديدة مُحتملة ندرسها بشيءٍ من التفصيل:

أولها أنَّ الرَّمْخِشِيَّ احتمل أن يكونَ لفظُ "طه" لغَةً عَكِّ وأصله يا هذا قلبت الياء طاءً وخُذفت ذا تخفيفاً فصارت طاها^٢

والثَّاني أنَّ "طه اسمٌ من أسماء النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم كما ورد في روايات أُخَرَى أن يس من أسمائه و رُوِيَ الاسمان معاً في الدر المنثور عن ابن مردويه عن أبي جعفر"^٣ ونقله أبو حيان الأندلسيُّ ونقل مثل هذا القول الطاهر بن عاشور قال: "وقيل هي اسم سمى الله به نبيه-صلى الله عليه وسلم- وأنه على معنى النداء"^٤

والثَّالثُ أنَّه من الحُرُوفِ الْمُقَطَّعةِ في أوائلِ السُّورِ، يقولُ الشَّنْقِيطِيُّ: "وأظهر الأقوال فيه عندي: أنه من الحروف المقطعة في أوائل السور، ويدل ذلك أن الطاء والهاء المذكورتين في فاتحة هذه السور، جاءتا في مواضع آخر لا نزاع فيها في أنهما من الحروف المقطعة"^٥

^١التحرير والتتوير، ج١٦، ص١٧٩، أورد ابن عاشور نقلاً عن تفسير القرطبي عن مسند الدرامي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: "إنَّ الله تبارك وتعالى قرأ (طاها)(ياسين) قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا: طوبى لأمة ينزل هذا عليها" الحديث. قال ابنُ ثُورِك: معناه أنَّ الله أظهر كلامه وأسمعه من أراد من الملائكة، فتكون هذه التسمية مروية عن النبي -صلى الله عليه وسلم-".

^٢الرمخشري، الكشاف، تحقيق خليل مأمون، ط٣ دار المعرفة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩، ص٦٥٠.

^٣الميزان في تفسير القرآن، ج١٤، ص١٢٧.

^٤البحر المحیط، ج٦، ص٢١٢.

^٥التحرير والتتوير، ج١٦، ص١٨٣.

^٦الشَّنْقِيطِيُّ، محمَّد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عالم الفوائد، ط١، ج٤، ص٣٩٩.

والرابع: "أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى فأنزل الله تعالى: ﴿طه﴾ يعني طأ الأرض يا محمد"^١ ومنه أيضًا ما نقله ابن أبي شيبة عن الصَّحَّاحِ قال: ﴿طه﴾ يا رجل بالنبطية^٢ وقول آخر أنها بالسريانية^٣، وقيل حبشية^٤، وقيل لغة يمنية في عك وقد رجَّح الطبري هذا القول: "والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه قول من قال: معناه: يا رجل لأنها كلمة معروفة في عك وأن معناه فيهم: يا رجل. وأنشد لمُتمم ابن نُويرة:

هتفتُ بَطه في القتالِ فلم يُجب فخِفتُ عليه أن يكونَ مؤثلاً.

وقول آخر:

إنَّ السَّفاهةَ طه من خلائِكم لا بارك الله في القومِ الملاعِين"^٥

ولمناقشة هذه الدلالات نقف عند كلِّ دلالةٍ بشيءٍ من التفصيل، أمَّا ما أشار إليه الرَّمْخَرِي من أنَّ معنى طه هو "يا هذا" فقلبت للفظ يا طأ وخُذفت ذا، فهذا تأويلٌ بعيد لأنَّ فيه تكلفًا ظاهرًا، وكذلك لأنَّه من المُستبعد أن يكون عنوان السُّورة "يا رجل"، لأنَّ جُملة سُور القرآن تحمل دلالة الأسماء، ووجود النِّداء والمُنَادَى وإن حمل معنى، يبعدُ هذا التأويل عن الكفَّة الرَّاجحة، ومن المُستبعد أن يُنادي الله نبيَّه بقوله يا رجل وآياته نزلت في مقام الرَّحمة.

وأما ما أشارت إليه الدَّلالةُ الثَّانِيَّةُ وهي أنَّ النَّبِيَّ قد تعب من كثرة العبادة فأنزل الله عزَّ وجلَّ "طه" بمعنى طأها أي طأ قدمك، وخُففت فصارَتْ طه، فهذا احتمالٌ بعيدٌ أيضًا، فلو كان التَّأويلُ مُختصًّا بِالآيةِ الأولى لما كان هناك خلاف، ولكنَّ لأنَّ السُّورة تحمل ذات الاسم "طه" فهل يُمكن أن يكون اسم السُّورة فعلًا؟ بمعنى "طأها"؟ وهذا غير وارد في كُلِّ سُورِ القرآن، أن يكون اسمُ السُّورة فعلًا، وفي ذلك يُورد إبراهيم عوض رأيه الَّذِي نتفقُ معه حول هذه الدَّلالةِ وذلك في قوله: "فأما أنَّها كانت "طأها" ثم سُهِّلَت الهمزة، فإننا نتساءل: فلماذا لم تكتب هكذا: "طاها"؟ ولماذا لم تحتفظ إحدى القراءات الأخرى بالنطق

^١ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٥، ص ٣٤٠.

^٢ الميزان، ج ١٤، ص ١٢٧.

^٣ الطبري، أبو جعفر، تفسير الطبري، ت: عبد الله عبد المحسن، هجر للطباعة، القاهرة، ٢٠٠١، ج ١٦، ص ٧.

^٤ الميزان، ج ١٤، ص ١٢٧.

^٥ الأندلسي، أبو حيان، البحر المُحيط، ج ٦، ص ٢١٢.

^٦ تفسير الطبري، ج ١٦، ص ٨.

الأصلي المهموز؟ ثم علام يعود الضمير فيها؟ سيقال: هو عائد على الأرض. ولكن أين تلك الأرض التي يعود عليها الضمير؟ وهل هناك سورة أخرى في القرآن افتتحت بضمير ليس له عائد؟ الجواب: كلا. إن الذين يرون هذا التفسير يقولون إن الرسول عليه السلام كان يصلي في البداية حتى تكلّ قدماه فكان يرفع رجلاً بعد أخرى مراوحة بينهما. ومعنى ذلك أنه عليه السلام كان يطأ الأرض دائماً وهو يصلي ولكن يقدم واحدة في بعض الأحيان، فكيف يقال له: "طأ الأرض" وقد كان واطئاً لها؟^١، وقد وجدنا في تحليله سبباً منطقياً يتفق مع رؤيتنا، كما أنه قد سبقنا في مناقشة فكرة الشقاء، فهل كثرة العبادة والوقوف بين يدي الله هي سبيلٌ لشقاء الإنسان؟ والله يحث على العبادة وكثرة الوقوف بين يديه، فلا يمكن أن يأمر الدين الإسلامي باتخاذ الصلاة وسيلةً لطمأنينة المرء ثم يصفها بالشقاء، و"الشقاء حالة نفسية نربأ بالرسول عليه السلام أن يشعر بها وهو يناجي مولاه، إن مناجاته لربه لهي الكفيلة بإزالة هذا الشعور بالشقاء في حالة وجوده"^٢، ولو قلنا إن الشقاء ليس في عموم الصلاة وإنما في الحالة التي اتخذها الرسول من رفع قدم وإنزال أخرى، فإن الرد على ذلك قد سبق.

أمّا ما أشارت إليه الدلالة الثالثة وهي أن "طه" حرفٌ من الحُرُوفِ الْمُقَطَّعةِ فهذا أمرٌ مُحتمَلٌ، فيكون لفظ "طه" لفظٌ أخفى الله معناه، ونجد أن سياق السورة يتناسب مع هذا الاحتمال وهذا ممكنٌ مقارنةً مع السور التي افتتحت بالحروف المقطعة وإذا ما رجعنا إلى هذه السور نجد أن ذكر القرآن يتلوها، وهذا ما يؤكده الرمخشي: "واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن"^٣، وقد تلاها جميعاً ذكر القرآن عدا ثلاث سور هي الروم والقلم والعنكبوت، وقد أدرج الرركشي سورة طه من السور التي تُستفتح بحروف التهجّي فيها "استفتاح بحروف التهجّي نحو الم، المر، كهيعص، طه، طس، ..." وذلك في تسع وعشرين سورة^٤، وإذا تفحصنا السور التي بدأت بحرفين فهي: الحواميم و طه والنمل و يس، وهي جميعاً متبوعة بذكر القرآن، فأما الحواميم فيجيء بعدها ذكر القرآن بلفظ "الكتاب" باستثناء فصلت فهي لم تذكر لفظ الكتاب ولكنها تُشير إلى أنه تنزيلٌ من الله، و أمّا السور الثلاث الباقية فهي طه والنمل و يس، فجميعها بدأت بذكر القرآن بلفظ "القرآن".

^١ عوض، إبراهيم، سورة طه، دراسة لغوية أسلوبية، ص ٦٢.

^٢ نفسه، ص ٦٤.

^٣ البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٧٠.

^٤ نفسه، ج ١، ص ١٦٥.

وتبقى الدلالة الأخيرة وهي أنَّ طه هو اسمٌ من أسماءِ النَّبيِّ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- ، وهي الدلالة الرَّاجحة من وجهة نظرِ نصِّيَّة، لارتباطِ العنوان مع سياق السُّورة ومضمونها، حيثُ إنَّ هذه السُّورة تبدأ وتختتم في بيانِ وظيفة الرُّسول وتكاليفه وأنها ليست شقاءً أو عناءً، ففيه جانبٌ من التَّسليَّة لقلبِ النَّبيِّ، ويتناسب ذلك مع ما ذهب إليه الطَّبَّاطبائي من سبب النَّزول^١، كما أنَّ الشعراوي يرجِّح أن يكون طه اسم من أسماء النَّبيِّ، وعلته في ذلك "نطق الطاء والهاء بدون همزة مع أنَّها حروفٌ مقطعة مثل ألف لام ميم، لكن لم ينطق الحرف كاملاً لأنهم كانوا يستقلون الهمز فيخفِّفونها ، كما في ذنب فيقولون: ذيب وفي بئر، فيقولون: بير. وهذا النطق يُرَجِّح القول بأنَّها اسم من أسماء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"^٢ كما يظهر جانب اللين والمواساة والمؤازرة والحبِّ في النَّصِّ الموجَّه للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وابتداء الآية الأولى به قد يكون لإعطاء النَّبيِّ الطُّمأنينة ومن هُنا نجد ارتباط اسم السُّورة بمضمونها، فهو مفتاحها الأوَّل والعتبة الأولى لدخول النَّصِّ.

^١أذكر في القسم المتعلِّق بأسباب النَّزول أنَّ الطَّبَّاطبائي يذهب إلى أنَّ السُّورة نزلت لبيان أنَّ الشُّقوة متعلِّقة بكيفيَّة الدَّعوة لا بكيفيَّة العبادة، أي لا تُشَق نفسك في دعوة النَّاس، ص ١٣٩.

^٢تفسير الشعراوي، ج ١٥، ص ٩٢١٠.

"... إنَّ السُّورَةَ مهما تعدَّدت قضاياها فهي كلامٌ واحدٌ
يتعلَّقُ آخره بأوَّلِهِ وأوَّلُهُ بآخره ويتراعى بجمليهِ إلى غرضٍ واحدٍ
كما تتعلَّقُ الجُمْلُ بعضها ببعض في القضية الواحدة"
شوقي البوعناني.

ثانيًا: موضوع النّص:

يُشكِّلُ النّصَّ القرآني وحدة نصيّة تقوم على موضوع واحدٍ، فتتظافرُ البُنى فيه ويتَّصل بعضها ببعض من خلال المعنى، فكلُّ جزءٍ في السُّورة مُرتبطٌ بآخر في انسجامٍ بيّنٍ واضحٍ، فقضاياها متَّصلةٌ يجمعُها غرضٌ دلاليٌّ واحد وقضيّةٌ كُبرى، وفي هذا يقول ابن عاشور "السُّورة من القرآن بمنزل خطبة الخطيب وقصيدة الشاعر لا يحكم لها بالتفوق إلّا باعتبار مجموعها بعد اعتبار أجزائها"، ويُدرس موضوع النّص من خلال دراسة أجزاء النّص وفهم مجموعها.

ولدراسة موضوع النّص، نجزّئ النّص إلى أجزاء، أو إلى وحدات نصيّة موضوعيّة صُغرى مُقسّمة وفق ما تحمله من دلالات، نبدأ بدراسة كلّ وحدة، ثمّ ندرس مجموع هذه الوحدات النصيّة، والبحث عن خيوط الوصل الدلاليّة بينها، والإشارات الخفيّة لإدراك فهم معانيها، وقد قسّمت السُّورة إلى بُنى متعدّدة، سادّسُ كلّ بنيةٍ منها، ثمّ سادّسُ الوحدة الموضوعيّة للنّص كلّهُ، فأما بُنى السُّورة فقد رأيت أنّها أربعة:

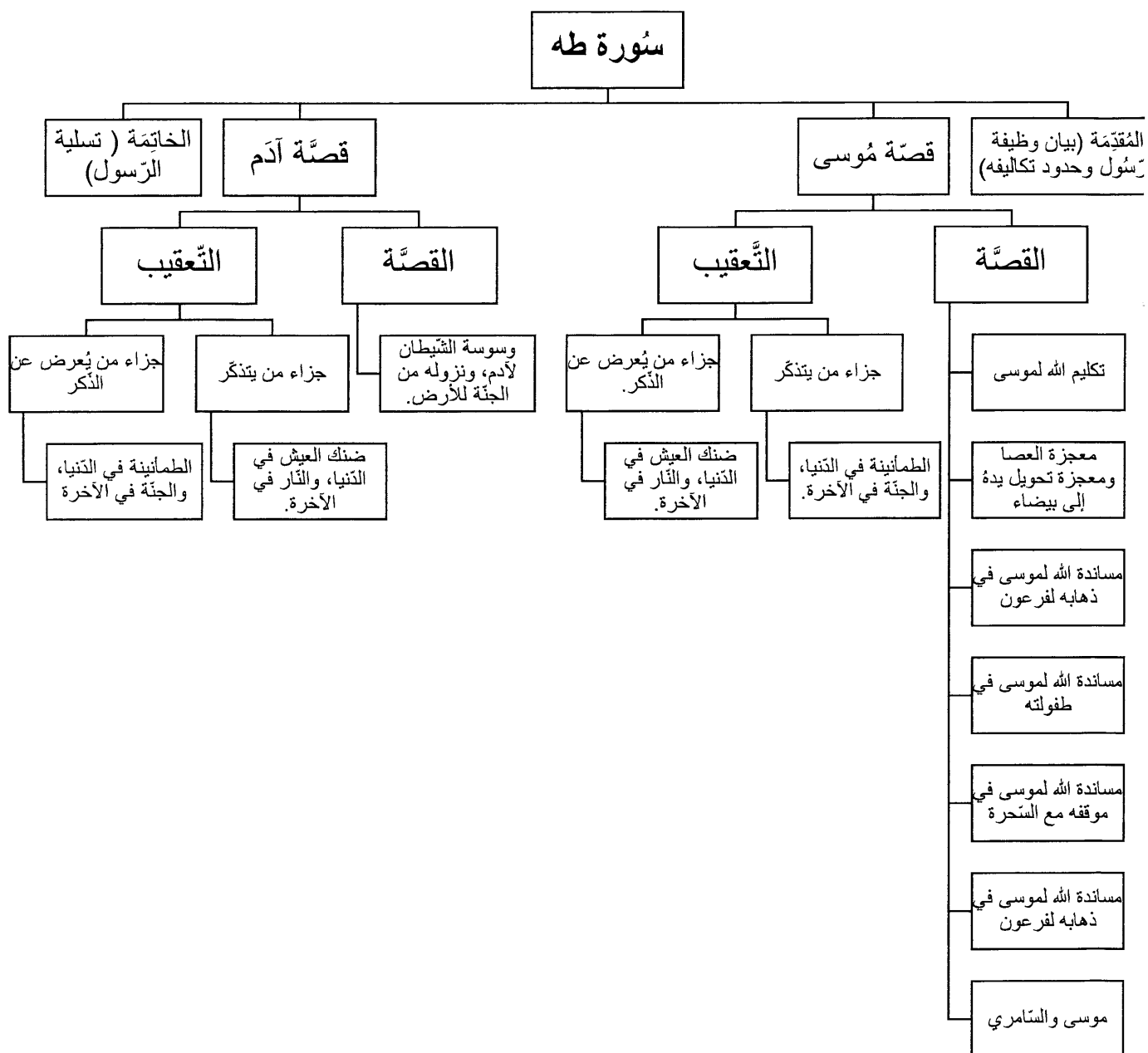
البنية النصيّة الأولى: المُقدّمة: بيانُ وظيفة الرّسول وحدود تكاليفه. (١ - ٨)

البنية النصيّة الثانية: رعاية الله لموسى والتّعقيب على ذلك. (٩ - ١١٤)

البنية النصيّة الثالثة: قصّة آدم والتّعقيب على ذلك. (١١٥ - ١٣٠)

البنية النصيّة الرابعة: الخاتمة: تسليّة الرّسول. (١٣٠ - ١٣٥)

^١ ابن عاشور، التّحرير والتّوير، ج ١، ص ٣٣٧.



أولاً: البنية الأولى: من الآية (١ - ٨)

تمثل البنية الأولى بؤابة النص القرآني، فهي تضم في طياتها خلاصة الأفكار التي يؤكد عليها النص القرآني، ولعل ما ورد في النص من قصص وأفكار إنما جاءت كشاهد على ما تنطوي عليه هذه البنية من أفكار و "يرى علماء المناسبات أن القرآن يستجيب للمعايير التي ضبطها علماء البلاغة لبراعة الاستهلال ولعل أهم تلك المعايير اشتمال الاستهلال على الغرض الذي سيق له الكلام"^١ فنجد أن الغرض الذي سبقت له هذه السورة يرتكز في البنية الأولى.

- بين آية الكرسي والبنية الأولى سورة طه

نالت آية الكرسي منزلة عظيمة وسميت بـ "سيّدة الآيات"^٢ ويرجع السبب في ذلك إلى أن جملة المعاني من التوحيد والتّقدّيس وشرح الصفات العلى مجموعة في آية واحدة منها ولذلك قال عنها النّبّي (ص): " سيّدة آي القرآن"^٣، وإذا وقفنا عند البنية الأولى من سورة طه والتي تمثل خلاصة الأفكار الواردة في السورة أو لنقل الأصول التي تؤكد عليها السورة وجدنا أنها تحمل ذات الأصول التي تؤكد عليها آية الكرسي:

ففي قوله تعالى: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِشِقَاقٍ﴾ [طه:٢] ﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه:٣]، إشارة إلى الذات الإلهية ومنزلة القرآن والغاية من إنزاله، وفي قوله ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه:٤] بيان مصدر القرآن، وفي قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] بيان عظمة ملكه "أنه استوى على العرش على الوجه الذي قاله، بالمعنى الذي أراده، استواءً منزهاً عن المماسّة والاستقرار، والتمكّن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته"^٤ ويدلّ العرش على القوة والملك، وبيان كمال قدرته، "فهو ذو الملك والملوك والعزة والجبروت، له السلطان والخلق والأمر"^٥ ولفظ الرحمن يدلّ على الحكم بالرحمة، وفي قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه:٦] أن كلّ شيء من الله ومرجعه إلى الله، هو "فوق كل شيء، إلى تخوم الثرى، فوقية لا يزيده قرباً إلى العرش والسماء بل هو رفيع الدرجات عن الثرى،

^١ البوعناني، شوقي، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني، ص ٨٤.

^٢ الغزالي، أبو حامد، جواهر القرآن، ص ٧٣.

^٣ الغزالي، أبو حامد، جواهر القرآن، ص ٧٥.

^٤ الغزالي، أبو حامد، جواهر القرآن، ص ١٧١.

^٥ الغزالي، جواهر القرآن، ص ١٧٢.

وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد^١ وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧] بيان صفة العلم "فهو عالم بجميع المعلومات، ومحيط بما يجري من تخوم الأرض إلى أعلى السموات، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، يعلم دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذر في جواء الهواء ويعلم السر وأخفى^٢ وفي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه:٨] "أنه في ذاته واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، صمد لا ضد له، متوحد لا ند له"^٣، فنجد أن هذه الأفكار الوارد في الاستهلال، أو البنية الأولى، هي أفكار مطابقة لما ورد في آية الكرسي التي نالت مكانتها من كونها جمعت الأفكار جميعاً في آية واحدة، وتفرقت بقية الأفكار في سائر القرآن.

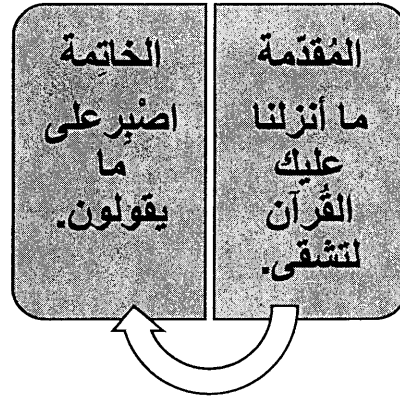
وقد اختصت البنية الأولى بإبراز بعض الأفكار دلاليًا وتعميق حضورها و منها: بيان أن نزول القرآن على النبي وتحميله هذه الأمانة من أجل أن يذكر بها الناس، لا لتكون شقاء له، فلا يحمل نفسه الشقاء بل يكفي أن يذكر الناس بهذه الرسالة، وفي هذا القول جانب من الرقي والرحمة، فالله يسلي نبيه، وقد تناولت البنية محاور أساسية هي:

١. بيان أن الله لا يترك ولا يشقي حملة رسالته، إنما مهمة النبي هي التنكير فلا يحمل نفسه شقاء ولا يذهب نفسه حسرة عليهم فالهداية بيد الله.
٢. بيان أن مصدر القرآن إلهي.
٣. بيان أن الله قادر، وآية قدرته خلق الأرض والسماء.
٤. بيان أن الله رحمن يرحم عباده وهو عليهم قدير.
٥. بيان عظمة ملك الله وكمال قدرته.
٦. بيان أن كل شيء من الله ومرجعه إلى الله.
٧. بيان أن علم الله لا حدود له ويعلم ما يخفيه الرسول في صدره.
٨. بيان وحدانية الله.

هذه البنية هي البؤرة المركزية التي ينبثق النصب كله أو بمعنى آخر فإن النص جاء ليدعم الأفكار الموجودة في هذه البنية، والتي تلتقي بشكل خاص مع الخاتمة الموجودة في المقطع الأخير، حيث

^١ الغزالي، أبو حامد، جواهر القرآن، ص ١٧١.
^٢ الغزالي، أبو حامد، جواهر القرآن، ص ١٧٢.
^٣ نفسه، ص ١٦٩.

أنّ ما يحمله النَّبِيُّ في قلبه هو نتاج لما يقوله المشركون، لذلك ورد في الخاتمة تسليّة النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآله، وما بين المُقَدِّمة والخاتمة من قصصٍ جاءت لتدعم ما ورد من أفكارٍ.



ثانيًا: البنية الثانية: (٩ - ٩٨)

تتناول هذه البنية قصة نبي الله موسى، ولكنها لا تتناولها بالترتيب الزمني لحدوثها، وإنما تخضع لترتيب آخر مختص بالمعنى المراد إيصاله، أما القسم الأخير فيتناول تعقيباً على هذه القصة.

أولاً: سنقسم هذه البنية إلى سبعة أقسام دلاليًا متنوعة بالتعقيب:

١. القسم الأول: (٩ - ١٥) تكليم الله لموسى.
٢. القسم الثاني: (١٦ - ٢٣) معجزة العصا وتحويل يده إلى يد بيضاء.
٣. القسم الثالث: (٢٤ - ٣٦) مساندة الله لموسى في ذهابه لفرعون.
٤. القسم الرابع: (٣٧ - ٤١) مساندة الله لموسى في طفولته، ونجاته من الغم.
٥. القسم الخامس: (٤٢ - ٥٦) قصة موسى مع السحرة وانتصار موسى.
٦. القسم السادس: (٥٧ - ٧٦) مساندة الله لموسى في ذهابه لفرعون.
٧. القسم السابع: (٧٧ - ٨٢) انتصار موسى وهلاك فرعون.

ثانيًا: التعقيب: (٩٩ - ١١٤) التعقيب على قصة موسى.

تدور أحداث هذه البنية على مساندة الله لموسى في كل موقف من مواقف حياته، ونلاحظ أن هذه البنية من أعمق بنى النص تأثيراً في النفس لما فيها من المشاهد العميقة والمؤثرة، وإذا توقفنا عند الخيط الدلالي الذي يربط بين هذه الأقسام في البنية فسنجد:

١. شخصية موسى هي الشخصية المركزية في كل الأقسام.
٢. شخصية موسى هي الشخصية التي تحظى بعناية الله.
٣. خصوصية موسى عند الله، فقد نال شرف تكليمه، وجمعه مع عدوه في بيت واحد، ونجاه من فرعون وجنوده، وحول عصاه إلى حية بقدرته، ونجاه من الغم.

وسنعرض فكرة مفصلة عن كل قسم:

القسم الأول: (٩ - ١٦):

حين خرج نبي الله موسى عليه السلام يبحث عن نار، فوجئ بالنداء السماوي: ﴿إني أنا ربك فأخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ [طه: ١٢]، عظمه القائل وهيبته القول وقُدسيّة المكان، هكذا تنزّلت الأمانة، ووقع الاختيار فتنزّل الوحي ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣]، وما أعظم هذا النداء،

وهذا التكليم الَّذِي خُصَّ بِهِ مُوسَى دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنْ كُنَّا نَجْهَلُ حَيْثِيَّاتِ التَّكْلِيمِ وَتَفَاصِيلِهِ وَلَكُنَّا نُوْمُنُ بِعَظَمَتِهِ، فَنجِدُ أَنَّ هَذَا الْمَوْقِفَ مِنْ تَكْلِيمِ اللَّهِ لِمُوسَى مَوْقِفٌ إِنْ دَلَّ فَعَلَى مَكَانَتِهِ فَهُوَ يَتَنَاسَبُ مَعَ مَقَامِ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

القسم الثاني (١٦ - ٢٢)

الموقف الآخر هُوَ مُعْجَزَةُ تَحْوِيلِ الْعَصَا إِلَى حَيَّةٍ تَسْعَى، نَظَرَ مُوسَى لِعَصَاهُ نَظْرَةً إِبْدَاعِيَّةً، فَهِيَ وَسِيلَتُهُ لِلاتِّكَاءِ، وَ وَسِيلَتُهُ لِهَشِّ الشَّجَرِ عَلَى الْغَنَمِ، كَمَا أَنَّهَا لَا تَقْتَصِرُ عَلَى ذَلِكَ فَلَهُ فِيهَا مَآرِبٌ غَيْرُ مَا ذَكَرَ، وَهَذَا إِنْ دَلَّ عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى مَقْدَرَةِ مُوسَى وَحَالَةِ الْإِبْدَاعِ عِنْدَهُ، وَلَكِنْ عَظَمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَتَجَاوَرُ مَا يَمْتَلِكُ مُوسَى مِنْ مَقْدَرَةٍ وَإِبْدَاعٍ، فَقَدْ حَوَّلَ اللَّهُ عَصَاهُ مَحْدُودَةَ الْقُدْرَةِ، إِلَى حَيَّةٍ تَسْعَى، فَصَارَتْ مُعْجَزَتُهُ الْكُبْرَى، وَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ مُوسَى عَمَّا فِي يَدِهِ لَغَايَةً، فَاللَّهُ عَالِمٌ بِمَا فِي يَدِ مُوسَى وَلَكِنْ فِي السُّؤَالِ مَقْصِدًا، وَفِي إِجَابَةِ مُوسَى إِدْرَاكًا، حَيْثُ أَجَابَ مُوسَى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفِي بِهَا عَلَى عَظْمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨]، قَبْلَ أَنْ يَحْوِلَهَا اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ إِلَى حَيَّةٍ، لِيَسْتَيْقِنَ مُوسَى بِالتَّحْوِيلِ الْوَاقِعِ مِنْ عَصَا جَامِدَةٍ إِلَى حَيَّةٍ تَسْعَى، كَمَا أَنَّ فِي طَرِيقَةِ السَّرْدِ مَهْمَةً لِلْمُتَلَقِّي الْأَوَّلِ وَهُوَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَلَكُلِّ مَنْ بَعْدَهُ فِي إِبْرَازِ مَا هِيَ الشَّيْءُ الْمَوْجُودُ فِي يَدِ مُوسَى، وَإِبْرَازُ مَا كَانَ وَمَا هُوَ إِلَيْهِ صَائِرٌ، فَأُظْهِرَ اللَّهُ مُعْجَزَةَ مُوسَى أَمَامَ قَوْمِهِ لِإثْبَاتِ نَبَوَّتِهِ، ثُمَّ تَبَعَهَا بِمُعْجَزَةٍ أُخْرَى وَ هِيَ تَحْوِيلُ يَدِهِ إِلَى يَدٍ بَيْضَاءٍ، كَمُعْجَزَةٍ أُخْرَى وَشَاهِدٍ آخَرَ عَلَى نَبَوَّتِهِ، وَالشَّاهِدُ أَنَّهُ مَا تَرَكَهُ وَإِنَّمَا أَعْطَاهُ وَأَفَاضَ عَلَيْهِ مِنْ قُدْرَتِهِ مَا يُوَاجِهُهُ بِهِ قَوْمُهُ، مِنْ دَلَائِلٍ وَاضِحَةٍ عَلَى صِدْقِ نَبَوَّتِهِ.

القسم الثالث: (٢٤ - ٣٦)

إِنَّ مَوَاجِهَةَ طَاغِيَةِ مِثْلِ فِرْعَوْنَ الَّذِي قَالَ عَنْ نَفْسِهِ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [التَّارِغَاتِ: ٢٤]، لَهَا مَوَاجِهَةٌ تَتَطَلَّبُ الْقُوَّةَ وَالْفَصَاحَةَ وَالشَّجَاعَةَ، لِذَلِكَ تَهَيَّبَ مُوسَى مِنْ لِقَائِهِ، دَلَالَةً ذَلِكَ هُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه: ٤٥]، طَلَبَ مُوسَى مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَشَدَّ عَضْدَهُ بِأَخِيهِ، لِيَكُونَ لَهُ قُوَّةٌ وَسِنْدًا، وَقَدْ حَقَّقَ لَهُ اللَّهُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَتْرَكْهُ لِيُوَاجِهْ فِرْعَوْنَ بِضَعْفٍ، بَلْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦]

القسم الرابع: (٣٧ - ٤١)

مُسَانَدَةُ اللَّهِ لِمُوسَى فِي مَهْدِهِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَمَرَ فِرْعَوْنَ بِقَتْلِ كُلِّ غُلَامٍ يُوَلَدُ، كَفَلَ فِرْعَوْنَ مُوسَى فِي قَصْرِهِ فِي حَادِثَةٍ عَجِيبَةٍ فَرِيدَةٍ مِنْ نَوْعِهَا تَكْشِفُ حَالَةَ التَّنَاقُضِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي آلَ إِلَيْهَا حَالُ فِرْعَوْنَ، فَقَدْ

أخذ موسى ورباه في قصره، بعد أن أوحى الله إلى أمه فقذفته في اليم، وتحرك اليم بأمر الله حتى أوصل موسى لقصر فرعون، وبذات المشيئة والقدرة الإلهية منعه من قبول المراضح حتى أعاده إلى أمه، ولا شك أن لهذه المواقف أثرها العظيم في نفس النبي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يتلقى هذه السورة، فالله حفظ موسى طفلاً رضيعاً أفلا يحفظ محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم -؟ القصة خير شاهد على أن الله لا يضيع حملة رسالته، فقد بلغت قدرة الله أن يجعل نبيه عند أكثر الناس ظمناً فلم يمسه ظلمه! إنها الآية الكبرى والدليل العظيم على مساندة الله لأحبته، أما الأمر الآخر فهو أن الله عز وجل نجى موسى من الغم ولم يتركه في حزنه وغمه وكمده حين قتل نفسه، وفي هذا يذكر سيد قطب تفاصيل الحادثة مع ما تتطوي عليه من حكمة إلهية أن موسى وجد رجلين يقتتلان فوكل رجلاً من غير عمد فخر صريعاً ولم يكن ينوي قتله فأصابه الغم لذلك ولكن الله هداه للاستغفار وشرح صدره، ولكنه امتحنه بالخوف فاعترب وفارق أهله وفي الوقت المقدّر حين نضج وتهيأت الظروف من حوله أعاده الله إلى أهل مدين^١ وبعبارة ذات بُعد دلالي عميق يخاطب الله موسى في قوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١] وفي ذلك يقول "أرنولد توينبي في نظريته باسم أصل الهجرة والرجعة والتي يذهب فيها إلى أن الشخصيات الكبرى في تاريخ البشرية - الذين بنوا الحضارات والأديان والمجتمعات - تركت في بدء المرحلة الأولى من حياتها ديارها وخرجت من محيطها الاجتماعي وأرضها، وبعد أيام الغيبة التي أعدت نفسها فيها لأداء رسالتها الخطيرة عادت إلى محيطها وقومها، وبدأت نشاطها، فهذه الرجعة الخارقة والعظيمة سبقتها في الواقع هجرة هادئة وصامتة، كان لها دور أساس في بناء روح وعبرية تلك الشخصيات، فقد كان لإبراهيم وموسى، زرادشت، بوذا، ونبي الإسلام مثل هذه الهجرة"^٢

القسم الخامس: (٤٢ - ٥٦)

مساندة الله لموسى عليه السلام، جلية واضحة في قضية فرعون، لما أمر الله عز وجل موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون بالقول اللين، وهذه رسالة واضحة وصريحة في القرآن لمواجهة الطغاة بالقول اللين ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه: ٤٥]، ولم يجر الأمر بأسلوب التخويف والتهديد والوعيد، وإنما بما يتناسب مع المقام، وهو شعورهما بالخوف، فهما أمام طاغية متجبر، وكانت الإجابة من الله بالقول اللين فكان الرد الإلهي رداً رحيماً: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، فأراد الله أن يجعلهما مطمئنين، فقله في الآية

^١ في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٣٣٥.

^٢ شريعتي، علي، محمد خاتم النبيين من الهجرة حتى الوفاة، ط ١، دار الأمير، ٢٠٠٣، ص ٤٥.

السَّابِقَةُ ﴿لَا تَخَافَا﴾ قَوْلٌ تَتَجَلَّى فِيهِ الرَّحْمَةُ الإِلَهِيَّةُ، وَبَثَّ رُوحَ الطَّمَأْنِينَةِ، يُعَزِّزُ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ نَفْسِهَا: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، فِي قَوْلِهِ إِنِّي مَعَكُمْ خَلَقَ حَالَةَ مِنَ الْاطْمَئِنَّانِ وَالِاسْتِقْرَارِ النَّفْسِيِّ وَانْجِلَاءِ الْخَوْفِ، وَتَأْكِيدَ ذَلِكَ بِالْقَوْلِ: "أَسْمَعُ وَأَرَى" فِيهِ تَأْكِيدٌ عَلَى إِحَاطَةِ اللَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ يَسْمَعُ مَا يُقَالُ، وَيَرَى مَا يَحْدُثُ أَوْ بِمَعْنَى آخَرٍ: "إِنِّي حَافِظُكُمْ سَامِعًا وَمُبْصِرًا، وَالْحَافِظُ إِذَا كَانَ قَادِرًا سَمِيعًا بِصِيرًا تَمَ الْحِفْظُ"¹ وَهَذَا كَافٍ لِتَبْيِيدِ كُلِّ الْخَوْفِ، مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ كُلًّا مِنْ مُوسَى وَهَارُونَ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِأَنَّ اللَّهَ مُوجُودٌ يُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنْ فِي مَوْقِفِ الْخَوْفِ مِنَ الطَّاعِيَةِ يُؤَكِّدُ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ لِخَلْقِ حَالَةٍ يَقِينِيَّةٍ فِي قَلْبَيْهِمَا، بِأَنَّهُ مُوجُودٌ يُسَانِدُهُمَا، فَأَرَادَ أَنْ يَجْعَلَهُمَا مَطْمَئِنِّينَ، وَهَذَا كُلُّهُ شَاهِدٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَتْرُكُ حَمَلَةَ رِسَالَتِهِ، لِأَنَّ اللَّهَ مَعَهُمَا اسْتَطَاعَا أَنْ يُوَاجِهَا فِرْعَوْنَ، وَيَبْلُغَا الرِّسَالََةَ.

القسم السادس: (٥٧ - ٧٦)

يَتَنَاوَلُ الْقِسْمُ السَّادِسُ قِصَّةَ مُوسَى مَعَ السَّحَرَةِ، حِينَ وَاجَهُهُمْ وَانْتَصَرَ عَلَيْهِمْ وَذَلِكَ حِينَ سَانَدَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨]، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لَهُ لَا تَخَفْ، ثُمَّ طَمَأْنَنَهُ بِالنِّهَايَةِ الْحَتْمِيَّةِ الْيَقِينِيَّةِ الْمُؤَكَّدَةِ بِإِنَّ وَالضَّمِيرِ، الْوَاردَ ذِكْرَهَا فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ، بِأَنَّ مُوسَى هُوَ الْأَعْلَى، فَهُوَ الْمُنْتَصِرُ، فَأَمِنَ السَّحَرَةُ وَبَلَغَ بِهِمُ الْإِيمَانَ حَدَّ قَوْلِهِمْ: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢] وَلَمْ يَكُنْ إِيْمَانًا هَسًّا بَلْ هُوَ إِيْمَانٌ جَعَلَهُمْ يُوَاجِهُونَ فِرْعَوْنَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢] دُونَ اكْتِرَافٍ أَوْ خَشْيَةٍ مِنْهُ.

القسم السابع: (٧٧ - ٩٨)

تَنْتَهِي قِصَّةُ مُوسَى، بِذِكْرِ مَوْقِفِ مُوسَى مَعَ السَّامِرِيِّ، فَبَعْدَ انْتِصَارِ مُوسَى وَهَلَاكِ فِرْعَوْنَ، عَادَ قَوْمُهُ لِمِثْلِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ فَارَقَهُمْ مُوسَى ذَاهِبًا إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَهُنَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُظْهِرَ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ مُوسَى -عليه السلام- مَعَ كُلِّ مَا قَامَ بِهِ، وَرَغْمَ كُلِّ الْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ الْعَيْنِيَّةِ الْوَاضِحَةِ، فَإِنَّ قَوْمَهُ ارْتَدُّوا أَمَامَ عَجْلِ السَّامِرِيِّ، وَتَرَكَوا عِبَادَةَ رَبِّ مُوسَى، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى مُوسَى إِلَّا أَنْ يَقُومَ بِرِسَالَتِهِ وَمَا أَمَرَهُ رَبُّهُ.

¹ البيضاوي، ناصر الدين، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج ٤، ص ٢٨.

التّعقيب: (٩٩ - ١١٤)

يرتبط التّعقيب بالبنية التي تسبقه، فبعد ذكر قصة موسى -عليه السلام- نجد ذكر أهمية القرآن وما فيه من قصص السابقين ومن هذا المنطلق يجب ألا نعرض عنه فجزاء المعرضين عقاب شديد يوم القيامة كما تسهب الآيات في ذكر جزاء المعرضين.

ومع ذكر جزاء المعرضين نجد وصفاً دقيقاً لما يُثير في أنفس المتلقي رهبةً وخوفاً من مشهد نفخ الصور وذُهور المجرمين ودهشتهم وحيرتهم عن مدة مكثهم في القبور فتعارض الأصوات، كما تعرض وصفاً لمشهد استواء الجبال بالأرض، فتصف مشهد نفس الجبال فهي على ضخامتها وعلوها وثباتها نحال قاعاً تستوي والأرض، هذه المشاهد تحدث رهبةً في نفس الإنسان فالله القادر على نفس الجبال وبعث من في القبور قادر على أن يُعذب المعرض عن ذكره فلا تنفعه يومئذ شفاعة أحد إلا من أذن له الله، وفي المقابل تعرض الآيات جزاء من يعمل الصالحات ويتذكر بذكر الله.

ويرتبط هذا التّعقيب بالقصة التي سبقت من جهة وبالقصة التي لحقت من جهة أخرى، أما اتصالة بالقصة التي سبقتها وهي قصة موسى فيكون ذلك من جهات عدة:

أولاً: بيان مآل المعرضين، ففرعون وجنوده نالهم العقاب نتيجة إعراضهم فأغرقهم الله، ومثله السامري أعرض وناله العقاب، والتّعقيب أيضاً يُصور مآل المعرضين يوم القيامة، وهذا إن دلّ فعلى حتمية وقوع هذا العذاب، كما يذكر ما للقرآن من أهمية فيه ذكر الوعيد ليكون وسيلة لتذكيرهم وتقواهم ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]

ثانياً: بيان رحمانية الله -عز وجل- وتتجلى في كثير من مشاهد حياة موسى -عليه السلام- كما وردت في التّعقيب على أنها تتجلى في قضية الشفاعة ولذلك ارتبطت بلفظ الرحمن ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] فوجود قضية الشفاعة دليل على رحمانية الله، ولكنها مشروطة برضا الله عز وجل المرتبط بالقاعدة الواردة في النص ذلك أن من يتذكر بذكر الله فله الأمن ومن يُعرض فله ضنك العيش وعذاب الآخرة.

ثالثاً: ارتباط حادثة عجلة النبي -صلى الله عليه وآله- بعجلة موسى -عليه السلام-، فجاءت صيغة النهي عن العجلة بالقرآن قبل انقضاء الوحي، مع وجود حادثة عجلة موسى في ذهابه إلى ميقات ربه وما ترتب على هذه العجلة من تمكّن السامري في إضلال القوم، وما فيها من عبرة وموعظة وتذكير ونهي مباشر عن العجلة.

كما يرتبط التعقيب بالقصة التي لحقته -قصة آدم- ويكون ذلك من جهات عدة:

أولاً: جاءت قصة آدم في بيان أن حالة النسيان حالة راسخة في القدم منذ عصر نبينا آدم -عليه السلام- ولذلك عطف هذه القصة على "وصرفنا فيه من الوعيد" في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

ثانياً: حتمية القانون الإلهي ذلك أن من يتذكر بذكر الله فله الحياة الهائلة ومن يعرض فله ضنك العيش، ولذلك فآدم نزل من جنّته إلى الأرض لأنه عصى ولكنه تاب إلى الله فقبل توبته.

ثالثاً: رحمة الله -عز وجل-، فتاب على نبيه آدم -عليه السلام- ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢].

ثالثاً: البنية الثالثة: (١١٥ - ١٢٩)

تنقسم هذه البنية لقسمين:

➤ القسم الأول وفيه قصة آدم: [النسيان - العاقبة - التوبة]

ثمّل قصة آدم حالة من الضعف البشري، فآدم الذي عهد الله إليه بأن لا يأكل من الشجرة ونبّهه من إبليس وعداوته وذلك في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، ونبّهه من عدوه، فلم يكن لآدم عزم فأغواه إبليس و وقع في فخّه وأكل من الشجرة: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفَحَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١] وهذه الحالة من الضعف صفة راسخة في بني آدم، يُعبّر عن تلك الحالة البيضاوي فيقول: "عطف الله سبحانه وتعالى قصة آدم على قوله (وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون)"، والمعنى وأقسم قسماً لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة، وتوعدناه بالدخول في جملة الظالمين إن قربها، وذلك من قبل وجودهم، ومن قبل أن نتوعدهم، فخالف إلى ما نهى عنه، وتوعد في ارتكابه مخالفتهم، ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون، كأنه يقول: إن أساس بني آدم على ذلك، وعرقهم راسخ فيه^١ وهذا ليس من إصرار ولكنه النسيان كما يُعبّر عنه النص القرآني ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥] فالنسيان،

^١ البيضاوي، ناصر الدين، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج ٤، ص ٤٠.

وعدم التَّصميم على الشيء، وعدم التصبّر، والمعنى: "لقد وصينا آدم من قبل فترك الوصية ولم نجد له قصداً جازماً إلى حفظها أو صبراً عليها"^١

وُثِّير إلى أنَّ آدم -عليه السَّلام- ، حين نهاه الله عزَّ وجلَّ عن أكل الشَّجرة لم ينتهِ كما ذكرنا سابقاً بل عصى، ولعلَّ ما يتبادر إلى الذَّهن هو كيف يعصي آدم ربَّه وهو نبيّ، والحقيقة أنَّ السُّورة ذاتها تبين أنَّ آدم لم يكن نبياً حين عصى، فقول الله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١] دليلٌ قاطع على حدوث المعصية، فالغواية تحققت، وعصى آدم أمر ربَّه ، كما تُؤكِّد الآية التَّالية أنَّ آدم قد اصطفاه الله للنُّبوة بعد أن تاب عليه وهداه، وذلك في الآية: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢] ، وقد أورد ذلك الشَّعراوي في تفسيره قائلاً: "كما أنَّ آدم -عليه السَّلام- مرَّ بهذه التجربة قبل أن يُنبأ، ومرَّ بها بعد أن نُبي، بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١] : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢] فكان الاجتباء والعصمة بعد التجريب، ثم لما أهبط آدم وعدوه إلى الأرض خاطبه ربه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] وهكذا بدأت مرحلة جديدة في حياة آدم عليه السَّلام، ومثَّل آدم الدَّورين: دور العصمة والنُّبوة بعدما اجتباه ربَّه، ودور البشر العادي غير المعصوم والمعرَّض للنسيان وللمخالفة كأَيِّ إنسان"^٢

ومثله ما أورده البحراني في تفسيره البُرهان: "قال: حدثنا تميم بن عبد الله بن تميم القرشي رضي الله عنه، قال: حدثني أبي، عن حمدان بن سليمان، عن علي بن محمد الجهم، قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى، فقال له المأمون: يا ابن رسول الله أليس من قولك إن الأنبياء معصومون؟ فقال: بلى، قال: فما معنى قول الله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾؟ إلى أن يقول فأكلا منها، ثقة بيمينه بالله. وكان ذلك من آدم قبل النُّبوة، ولم يكن ذلك بذنب كبير استحق به دخول النار، وإنما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم، فلما اجتباه الله تعالى وجعله نبياً كان معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة، وقال الله عز وجل: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]"^٣

^١الميزان، ج ١٤، ص ٢١٩.

^٢الشَّعراوي، محمَّد متولِّي، تفسير الشَّعراوي، ج ١٥، ص ٩٤٢٤.

^٣البُرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ١٩٣-١٩٤.

كما وردت في بيان حالة نزول آدم للأرض، ففي حال نزوله، يُثبت الله حقيقة لا مفرّ منها، وهي أنّ الإنسان عدوّ الإنسان، منذ نزول آدم إلى الأرض، تنزّلت العداوة، ولم تنزّل بغير معصية ظلماً من الله حاشاه، ولكنّها بمعصية نبيّنا آدم -عليه السّلام-، فكان العقاب الإلهي أن يهبط آدم من جنّته ﴿قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] فمع نزول العداوة أرسل الله أنبياءه مُحَمِّلِينَ بِذِكْرِهِ فَرَحْمَةً اللَّهِ وَاسِعَةً، وما على الأقوام إلّا اتّباع أنبيائهم، فجاءت قصّة آدم دلالة على تنزّل العداوة وحاجة الأقوام إلى من يُذكّرهم، فمن يتّبّع هدى الله فلا يضلّ، ولهذا وردت قصّة آدم، حاملةً هذه الدلالات الثلاث.

➤ القسم الثّاني وفيه التّعقيب -جزاء الطّائعين لله وجزاء العصاة:-

يرتبط التّعقيب بقصّة آدم من محاور عدّة:

أولاً: إرسال الرّسل من قِبَلِ اللَّهِ لِلتَّذْكِيرِ فمن يتّبّع رُسلَ الله فلن يضلّ ولا يخشى، هذا ما ورد في التّعقيب وقد ارتبط بقصّة آدم لوجود دلالة حتميّة على العداوة الموجودة لا مفرّ، فبعد نزول آدم إلى الأرض تحقّق أمر وهو العداوة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣]، ومهمّة الرّسل هي التّذكير، فالرّابط إذاً بين القصّة والتّعقيب هو أنّ القصّة تُشير لتنزّل العداوة والتّعقيب يُشير إلى وجود الرّسل لمهمّة التّذكير حتّى لا تغلب العداوة، فعلى الإنسان أن يتفكّر فيما مضى من القرون الأولى فلا أثر لهم اليوم بعد أن أهلكهم الله، وهو القادر على إهلاك كلّ من يعصي وينسى ذكره ولكنّه أجلّ ذلك ليومٍ آخر.

ثانياً: حتميّة القانون الإلهي، فأدم -عليه السّلام- نسي ولم يكن له عزم حين أمره الله فكان مصير ذلك خروجه من الجنّة.

ثالثاً: توبة الله على آدم هي من رحمته به، وفيها دلالة على رحمة الله التي تشمل عباده التّائبين.

رابعاً: البنية الرّابعة: (١٣٠ - ١٣٥)

في البنية الأخيرة اختتم الله هذه السّورة بما يتناسب مع البداية ويتّصل معه وذلك في نواحٍ عدّة: أولاً: يذكّر الله في البنية الأولى أنّه يُحيط بما يسره النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلّم- في صدره وما هو أخفى من ذلك ﴿وَإِنْ تَجَهَّزْ بِالنُّفُولِ فَإِنَّهُ يَعْلمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] فنمّة ما هو خفي في أعماق النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلّم- ولعلّه ما أشرنا إليه في أسباب النزول من كلام بعض المُشركين، فيأمره الله في المقطع الأخير المتّصل بالبداية، بالصّبر على ما يقولون وذلك في قوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا

يَقُولُونَ ﴿طه: ١٣٠﴾ وظاهر القول أَنَّ هُنَاكَ مَا أَثَّرَ فِي النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَاللَّهُ عَالِمٌ وَ مُحِيطٌ بِهِ، وَهَذِهِ حَلَقَةٌ وَصَلَّ بَيْنَ الْبَنِيَّةِ الْأُولَى وَالْبَنِيَّةِ الْآخِرَةِ تُحَقِّقُ انْسِجَامًا يَمْتَدُّ مِنَ الْبَنِيَّةِ الْأُولَى وَحَتَّى الْبَنِيَّةِ الْآخِرَةِ.

البنية	الأولى	الآخيرة
رقم الآية	٧	١٣٠
الرباط الدلالي	﴿وَإِنْ تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]	﴿فَاضْبُرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٣٠]
وجه الربط	معرفة الله عزَّ وجلَّ بما يُخْفِيهِ النَّبِيُّ فِي صَدْرِهِ وَهَذَا مَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْبَنِيَّةِ الْأُولَى، فَيُصَبِّرُهُ اللَّهُ فِي الْبَنِيَّةِ الْآخِرَةِ بَعْدَ إِبْرَادِ كُلِّ هَذِهِ الشَّوَاهِدِ لِتَطْمِينِ قَلْبِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، بِأَنَّهُ مَعَهُ كَمَا كَانَ مَعَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، وَمَعَ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حِينَ هَدَاهُ وَتَابَ عَلَيْهِ.	

ثَانِيًا: نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ لِمُسَانَدَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُهُ حَسَرَاتٍ عَلَى قَوْمِهِ، وَأَوَّلُ مَا بَدَأَتْ بِهِ هُوَ ذِكْرُ الْقُرْآنِ، ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ٢] فِي بَيَانِ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ وَسِيلَةٌ تَذَكِيرٌ لِلنَّاسِ، وَوُضِئَتْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - هِيَ تَذَكِيرُ النَّاسِ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] وَيَكُونُ هَذَا التَّنْكِيرُ بِوَسَائِلٍ عَدَّةٍ مِنْهَا سَرْدُ قِصَصِ الْمَاضِينَ، وَلِذَلِكَ قِيلَ إِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ فِيهِ شَرَائِعٌ وَأَحْكَامٌ وَأَخْبَارٌ وَرَدَتْ فِي الصُّحُفِ الْأُولَى، وَهِيَ كُتُبُ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - الَّذِينَ سَبَقُوا النَّبِيَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -، وَبِئَنِّي النَّصَّ مِنْ حَيْثُ بَدَأَ بِأَهَمِّيَّةِ الْقُرْآنِ كَتَذَكُّرٍ، فِيهِ مَا يَدُلُّ وَمَا يُبْرِهِنُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ عَلِيمٍ مُحِيطٍ بِكُلِّ الْأَحْدَاثِ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه: ١٣٣].

الخلاصة:

نَخْلُصُ إِلَى نَتَائِجِ أَبْرَزِهَا: أَنَّ الْقِصَصَ الْوَارِدَةَ فِي السُّورَةِ لَمْ تُذَكَّرْ إِلَّا لَغَرَضٍ يَخْدِمُ السِّيَاقَ وَالْفِكْرَةَ الَّتِي تَنَزَّلَتْ مِنْ أَجْلِهَا السُّورَةُ، فَكُلُّ سُورَةٍ هِيَ نَصٌّ كَامِلٌ بِذَاتِهِ، وَالْقُرْآنُ نَصٌّ أَكْبَرُ يَحْمِلُ مَجْمُوعَةً مِنَ النُّصُوصِ، فَالْقِصَصُ الْوَارِدُ فِيهِ وَإِنْ بَدَأَ لِلْمَتَلَقِّي أَنَّهُا مُكَرَّرَةٌ، فَهِيَ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ شَوَاهِدٌ عَلَى فِكْرَةٍ

يحملها كُلّ نصّ، ولذا وردت قصّة موسى في سورٍ مُتفرّقة في القرآن غير أنّها في كُلّ سورة تُضيء جانباً لا تُبرّزه في سورٍ أخرى، أو تُكتَف في مَفْصَلٍ من مَفَاصِلِ القِصّة بحيث تذكّر مفصلاً آخر بشكلٍ عَرَضِيٍّ، كما حدث مع قصّة الرّجل الذي قتله موسى، فعرضته السّورة في جزءٍ من الآية، هو قوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِئْتَ سَنِينَ ۚ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠] لأنّ المراد ليس حادثة القتل، ولا القتل ذاته ولا أحداثه والمُلابسات الواقعة فيه، وإنّما مُساندة الله لموسى في نجاته من الغمّ حين قتل نفساً، في حين في سورٍ أخرى يُفَصِّلُ الله في أحداثٍ واقعة القتل كما في سورة القصص^١، لأنّ التّفصيل هناك يتفق مع سياق سورة القصص، في حين استولت قصّة موسى مع فرعون والسّحرة في أجزاء كبيرة من النصّ لإبراز مظاهر مُساندة الله لموسى وبالأدلة والتّفصيل المُقنع لأنّ هذا الجانب من قصّة موسى يُناسِبُ السّياق ويخدم الدّلالة الّتي يُبنى عليها النصّ.

انطلقت السّورة من العام إلى الخاصّ، من فكرة عامّة أوّلَى وردت في البنية الأولى، وجاءت قصّة موسى تحمل مضموناً يتناسب والفكرة الموجودة في البنية الأولى، كما أنّنا نخلُص إلى أنّ ورود قصّة آدم قد جاء لتدعيم الفكرة، وما شقاء بني آدم إلّا بالمعاصي والإعراض عن ذكر الله، تلك الحكمة البالغة الّتي يُؤكّدها النصّ القرآني، ومن هنا نرى أنّ وجود القصص جاء مثلاً لتثبيت الفكرة، وهذا هو منهج القرآن في التّمثيل بالقصص للتّفكير والتدبّر وأخذ العبرة ﴿وَإِن كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

^١ يُنظر سورة القصص، من الآية ١٤، حتّى الآية ١٩، حيثُ تفصيل واضح لحادثة القتل وسببها وأطرافها.

ثالثاً: ترتيب النص:

أ. ترتيب بنى النص:

ذكرنا سابقاً أنَّ ترتيب النص هام في انسجامه و وصول الفكرة وسلامتها، فالفكرة لكي تصل بشكل واضح تنتظم بنظام محدد بتقديم وتأخير في الأحداث والموضوعات، فالتقديم والتأخير على مستوى النص يؤدي دوراً هاماً في بنائه، أمّا قصص القرآن فتنتظم بطريقة تتناسب مع الموضوع، هذه القصص يكون بينها رابطاً معنوي و"نوع من المناسبة يكون بين قصتين متتاليتين داخل السورة، والمقصود بالقصة مجموعة متضامنة من الجمل يجمعها غرض واحد من أغراض الكلام"¹، ونلاحظ في سورة طه أنَّ الأحداث والقصص قد انتظمت وترجت بطريقة معينة بحيث تؤدي انسجاماً وتماسكاً معنوياً، فبدأ النص بالمقدمة، متبوعاً بقصة موسى ثم قصة آدم، ثم الخاتمة.

وسأقف في تحليلي لترتيب النص على السبب في تقديم فكرة أو تقديم قصة وتأخير أخرى، ووفقاً لذلك نطرح سؤالاً: كيف ترتبت الأحداث وترجت في سورة طه؟ وللإجابة عن هذا السؤال نشير أولاً إلى الفكرة العامة للنص وهي مؤازرة الله لمن يأتمر بأمره ويتذكر بذكره، وأهمية الذكر، والقانون الإلهي فمن يتبع الذكر له الحياة المطمئنة، ومن يعرض عنه فله ضنك العيش في الدنيا والآخرة، وقد ذكر الله - عز وجل - اسم نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم -² تقريباً إليه وجاء النص مملوءاً بجو الرحمة ومشاهدها، تآزرت الألفاظ مع الدلالة، دعماً للسياق الذي نزلت فيه السورة تخفيفاً على نبيه، و"بيان وظيفته وحدود تكاليفه"³، ووفقاً للمخطط نعرض ترتيب النص، كما سندرس أسباب ورود البنى وفق نظامها الحالي، وأسباب تقديم قصة موسى، وتأخير قصة آدم، والربط بين البنية الأولى التي تمثل المقدمة، والبنية الرابعة التي تمثل الخاتمة.



¹ البوعناني، شوقي، مبدأ الانسجام في تحليل الخطاب القرآني من خلال علم المناسبات، ص75.

² ثمة خلاف بين المفسرين حول "طه" ذكرناه سابقاً ورجحنا أن يكون طه هو اسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

³ في ظلال القرآن، ج16، ص 2326.

سبب تقديم قصة موسى على قصة آدم:

تقدّمت قصة موسى شاهداً أوّل وقد قدّمت على قصة آدم، ولا شك أنّ القرآن يسير وفق نظامٍ فلا بدّ من وجود سببٍ لهذا التّقديم، فقد جاء بمقدّمةٍ حول مهمّة الأنبياء وأنها تقتصر على تذكير النّاس وتنبيههم ودعوتهم لطريق الله، وقد بيّن الله - عزّ وجل - ذلك لنبيّه، فإن أعرض القوم فذلك ليس تقصيراً منه وإنّما بما فعلت أيديهم وبما تجني أنفسهم، وقد عبّر القرآن عن هذه الحالة في مواضع كثيرةٍ مؤساةً لأنبيائه وتصبيراً لهم، ومن ذلك قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: 8]، وقوله تعالى في سورة القصص: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: 56]، وقد بدأ الله بعد مقدّمته بقصة موسى، وذلك لأسبابٍ عدّة:

أولها، وجود مواقف كثيرة في حياة موسى تدعم الفكرة التي نزلت من أجلها السّورة، وإذا تتبعنا حياة موسى وجدناها زاخرةً بهذه المواقف، بدءاً من طفولته ونشأته في بيت عدوّه فرعون حيث المفاصلة العظمى في اجتماع النبيّ موسى وعدوّه في بيت واحد، وحتى خروجه إلى الصّحراء بحثاً عن قبسٍ من النّار وتكليم الله عزّ وجلّ إيّاه في تلك الأرض، وكذلك استجابة الله له حين كان بحاجةٍ مؤازرةٍ هارون له، وحين شعر بالخوف وهبه الله الطمأنينة وحفّه بها مخبراً إيّاه بأنّه يسمع ويرى، وهو الذي نجّاه من الغم بعد أن قتل نفساً، وحين بقي مع السّحرة مُحاصراً أنجاه الله وأغرق فرعون وجنوده فكل هذه الشّواهد في قصة موسى تدعم الفكرة التي نزلت من أجلها السّورة وهي مؤساة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم.

ثانيها، تفرد موسى بما لم ينله نبيّ غيره، وفي ذلك خصائص عدّة تُبرزها مع بيان أنّ أحدها أو جميعها سبب في تقديم قصّته:

أولاً هو الكليم، فقد كلمه الله حين خرج يبحث عن قبسٍ، وهذا ممّا ورد في السّورة في مشهد تكليم الله لموسى، كما أنّ الله قد بيّن في كتابه أنّ تكليمه لموسى هو من باب التّفضيل وذلك في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: 253]، فهذا التّكليم لم يكن مُصادفةً وإنّما بما فضله الله به نبيّه موسى عن غيره، وهذا المشهد -تكليم الله لنبيّه- فيه ما يُحدث في النّفس رهبةً وخشوعاً، ويُضفي جواً من الرّحمة والقرب، وهذا ما يتناسب مع السّياق، وما نطمئنّ إليه أنّ البدء بقصة موسى وبهذا المشهد تحديداً لأنّه يُحدث في النّفس حالةً من السّكينة

والطمأنينة، ليُطمئن قلب مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ-، أولاً بوصفه المتلقّي الأول، ثُمَّ كُلِّ من يمكن أن يتلقّى النصّ بعد ذلك وهو في حالة مشابهة.

ثانيًا، أَنَّ مُوسَى - عليه السّلام - كان من أولي العزم، فقد أُوذِيَ من قومه فقد كانوا قومًا متخاذلين، وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصّف:5]، فهو قد نال الصّعابِ وأُوذِيَ من قومه وصبرَ عليهم فلم يستجيبوا له، واتبَعُوا الهوى ولكنّه استطاع التغلّب على كلّ ذلك بمؤازرة الله له، وفي هذا الجانب ما يخدم السّياق حيثُ تُظهرُ لنا السّورة وجود شيء أسره النّبيّ محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم في نفسه، فالله يعلم بما في نفسِ رسولِهِ، ﴿وَإِنْ تَجَهَّزْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:7]، ونعرفُ من السّياق أنّ هذا الأمر ممّا لم تقبلهُ نفس النّبي، وهو يستوجب الصّبر، دلالة ذلك في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه:130] فقد أُوذِيَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم كما أُوذِيَ مُوسَى من قبلهِ، وفي ذكرِ قصّته تسليةً لنفسِهِ وتصبيرًا له وتذكيرًا له بأنّه معه وأنّه هو من اختاره فلا يحزن لأنّ الله مع أوليائه فلا يتركهم، والذي جعل موسى في مأمنٍ عند عدوّه قادرٌ على كلّ شيء.

ثالثًا: قدّم موسى لبني إسرائيل المُعجزات والآيات، وخلصهم من طغيانِ فرعون وفساده، فقد عاشوا ظلماً واضطهادًا وعذابًا وذلّةً، وحين آمنوا بما شاهدوه من مُعجزات وتيقنوا من صدقِ دعواه سجدوا وآمنوا غير أنّ ذلك لم يردعهم عن العودة لمثل ما كانوا عليه، فاتخذوا العجلَ آلهة فلم يردعهم عن ذلك ما رأوه بأبصارِهِم من إعجازٍ وما استيقنته أنفسهم ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه:72]، وقد اجتهدَ موسى في الدّعوة ومثله مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ-، فموسى -عليه السّلام- عادَ غضبانَ أسفًا بعد أن وجدَ قومه عاكفين على عبادةِ عجلٍ تاركين عبادة الله ربّ العالمين، والمرادُ هنا، أنّ الله يُخاطبُ نبيّه فيذكرُ له قصصَ نبيّ سبّقه بالدّعوة واجتهدَ فيها ولكن قومه عادوا لما كانوا عليه، فلا يُشقي نفسه ولا تذهبُ نفسه على قومه حسرات، فما مهمّتهُ إلّا التّذكير.

رابعًا: المشاهدُ والصُّورُ المُعَبِّرةُ في قصَّةِ مُوسَى والتي أُضِيَّتْ دُون سواها، لها وقعٌ في النَّفسِ يتناسبُ مع المقام، فالتَّصوِيرُ يُحِيطُ بِالْمَشْهَدِ كُلِّهِ وَيَنْقُلُهُ بِتَأْثِيرَاتِهِ وَإِحْسَاسِهِ، وَيُضِيءُ أَعْمَقَ الْجَوَانِبِ النَّفْسِيَّةِ الْمُؤَثِّرَةِ فِيهِ، وَهَذِهِ الْمَشَاهِدُ هِيَ الَّتِي تُعْطِي هَذِهِ السُّورَةَ خُصُوصِيَّتَهَا.

جُو الرِّحْمَةِ فِيهَا ظَاهِرٌ، وَالْأَلْفَاظُ تَتَسَجَّمُ مَعَ هَذَا الْجَوِّ، فَتُظْهِرُ أَصْدَاءَ الرِّحْمَةِ فِي قِصَّةِ مُوسَى فِي كُلِّ مَفَاصِلِهَا، هَذَا التَّصَوِيرُ وَانْسِجَامُهُ الْأَلْفَاظِ وَالْعِبَارَاتِ يَتَنَزَّلُ فِي قَلْبِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- فَيَحْمِلُهُ عَلَى التَّصَبُّرِ مَهْمَا أُوذِيَ، وَمِنْ ذَلِكَ مَشْهَدُ تَكْلِيمِ اللَّهِ لِمُوسَى، هَذَا الْحَدَثُ الَّذِي قَدَّمَهُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ الْمَشَاهِدِ، فَلَمْ تَسِرِ الْأَحْدَاثُ بِشَكْلِ خَطِّي زَمَنِي تَسْلِسِلِي، وَإِنَّمَا سَارَتْ وَفَقًا لِقُوَّةِ تَأْثِيرِهَا، فَبَدَأَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَشْهَدِ التَّكْلِيمِ، فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَعَ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ أَلَمٍ، يَجِدُ أَمَامَهُ مَشْهَدَ مُوسَى وَهُوَ فِي الصَّحْرَاءِ يَبْحَثُ عَنْ جَذْوَةِ نَارٍ وَإِذَا بِهِ يُصْبِحُ فِي ذَلِكَ الْفَقْرِ الْمُوحِشِ كَلِيمًا لِلَّهِ، وَيَأْتِيهِ النَّدَاءُ: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه:12]، وَاللَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، الْعَظِيمُ يَقُولُ: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ [طه:13]، وَقَعَ الْاِخْتِيَارُ عَلَى مُوسَى نَبِيًّا لِيَحْمِلَ الْأَمَانَةَ، فَيُحَدِّثُ هَذَا الْقَوْلُ فِي قَلْبِ الْمُتَلَقِّي هَزَّةً وَرَهْبَةً.

كَمَا وَرَدَتْ الْكَثِيرُ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْعِبَارَاتِ الَّتِي تَسْتَرِيحُ لَهَا النَّفْسُ، وَتُضْفِي إِحْسَاسًا بِالطَّمَأْنِينَةِ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه:40] فَلَفِظَ (لَا تَحْزَنَ) وَلَفِظَ (كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا)، فِيهِمَا دَلَالَةٌ عَلَى حَالَةٍ مِنَ الرِّحْمَةِ، فَأَمَّ مُوسَى الَّتِي امْتَلَتْ لِلْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ، تَكْفُلُ اللَّهُ بِإِعَادَةِ ابْنِهَا إِلَيْهَا، وَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ، وَقَوْلُهُ لَا تَحْزَنَ دَلَالَةٌ عَلَى مَدَى أَهْمِيَّةِ شُغُورِ أُمِّ مُوسَى، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعَادَهُ لِنَقَرِّ عَيْنَ أُمِّهِ وَلِيَنْتَهِيَ حُزْنُهَا، هَذَا الْمَشْهَدُ بِمَا يَحْمِلُهُ مِنْ دَلَالَةٍ وَحَالَةٍ طَمَأْنِينَةٍ بَعْدَ رَجُوعِهِ إِلَى أُمِّهِ وَتَكْفُلُ اللَّهُ بِذَلِكَ يَهْبُ الْمَتَلَقِّي شُعُورًا بِعَظَمَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا يَتَنَاسَبُ وَالسِّيَاقَ.

وَكَذَلِكَ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَاخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:39]، فَوُجُودُ مُوسَى مَعَ عَدُوِّهِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ مَشْهَدٌ آخَرٌ دَالٌّ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَفِي الْقِصَّةِ أَلْفَاظٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:36]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:41]، وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى﴾ [طه:46]، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه:68]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ [طه:13]، هِيَ أَلْفَاظٌ فِيهَا مِنَ الْعَظَمَةِ وَالرِّحْمَةِ مَا يَصْبِرُ بِهِ قَلْبُ نَبِيِّهِ.

خامساً: موسى لم يكن كاملاً، بل اعترف بضعفه وحاجته وخوفه وغضبه وفي القرآن ما يؤكد ذلك، فموسى هو الذي قتل نفساً فأرهبه الغم، وهو الذي احتاج بضعفه المؤازرة من أخيه، وهو الخائف من مواجهة عدوه، وهو الخائف من إلقاء عصاه، وهو الذي طغى عليه الشعور بالغضب فعاد غضبان أسفاً، فهو الإنسان الذي يذنب فيأخذ الغم، والإنسان الذي يحتاج لمن يكون معه قوة، وهو الذي يملكه الشعور الإنساني فيغضب بل وتسيطر عليه الحالة الغضبية لدينه، فهو الإنسان في ضعفه وحاجته وهمه وخوفه وغضبه، هو الإنسان في حالاته، وهو الذي أمده الله بالقوة، فهذه الحالات الشعورية وما عاشه موسى عليه السلام من حالات إنسانية، هي الوسيلة لإمداد النبي محمد صلى الله عليه وآله بالقوة.

سبب تأخير قصة نبي الله آدم:

تمثل قصة آدم حالة الضعف البشري كما ذكرنا سابقاً، وقد أخرجت هذه القصة لأسباب عدة:

أولها: أن آدم عليه السلام قد عصى الله حين أغواه إبليس، فأكل من الشجرة، ونال بذلك عاقبة عمليه، فهناك قانون إلهي أن من يعرض عن ذكر الله له ضنك العيش، وهذا دليل على حتمية هذا القانون، فجاءت القصة بعد قصة موسى التي عرضت مظاهر الرحمة واللين، كما عرضت كل ما قدمه موسى لقومه، ومع ذلك فإنهم أعرضوا عن ذكره، وانتهت القصة بذكر بيان عاقبة المعرضين، فجاءت الشورة شاهداً على أن المعرض سينال جزاءه، فقد نال آدم الجزاء فنزل من الجنة إلى الأرض، فقد "مثل آدم الدورين: دور العصمة والنبوة بعدما اجتباه ربه، ودور البشر العادي غير المعصوم والمعرض للنسيان وللمخالفة كأبي إنسان"¹، فقد خالف وعوقب، وفي ذلك دلالة على حتمية هذا القانون.

ثانيها: أن رحمة الله وسعت كل شيء، فالله عز وجل مع معصية نبينا آدم -عليه السلام- تاب عليه، وهداة، فالتائب ينال مغفرة الله ورحمته، فلا يقنط الإنسان من رحمة الله.

ثالثها: أن الإنسان هو عدو الإنسان، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه:123]، فحين أنزل الله آدم إلى الأرض بعد توبته نزلت معه العداوة لأن معصية آدم استلزمت العقوبة، ولذلك فإن الله يرسل أنبيائه ليدعون إلى دين الله ولبيان القانون الإلهي فجاءت هذه القصة دلالة على وجود العداوة وحاجة الأقسام لمن يذكرهم بالطريق الصحيح.

¹ الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، ج15، ص9424.

سبب تكرار أهمية الذكر بعد القصتين:

بعد عرض القصص يبين الله أهمية الذكر ويؤكد ويسبغ في ذكر النعيم المترتب على الذكر والعقاب المترتب على الإعراض عنه، لأن السبب الحقيقي وراء حزن النبي هو أنه يذكر قومه بالقرآن فلا يتذكرون، فبعد كل قصة نبي يذكر الله في بنية متكاملة ترغيباً في الذكر وترهيباً عن الإعراض عنه، ففي مطلع السورة يذكر لنا أهمية الذكر واتباعه فاستشهد بقصة موسى، وتبعها بأهمية الذكر، واستشهد بقصة آدم وما يليها من أهمية الذكر، وبهذا يحقق وجود هذه القصة انسجاماً بين مقاطع النص.

سبب ورود آية العجلة في التعقيب على قصة موسى:

قد يبدو لوهلة أن وجود آية: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:114] غريباً إذ جاءت في معرض الحديث عن الذكر والإعراض عنه متبوعة ببنية قصة موسى -عليه السلام-، والسؤال لماذا ترد هذه الآية في هذا الموقع؟ وما الرابط بينها وبين ما ورد في قصة موسى؟ وما شأن عجلة النبي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- بكل ما ورد في قصة موسى؟ وإذا افترضنا أنها وجدت لغاية الذكر فما شأن العجلة؟ ولا شك أن لوجودها ارتباطاً وثيقاً بما قبلها، فلا يكون وجودها عبثياً، أما العجلة فتشكل رابطاً لطيفاً في النص، فكأن الله -عز وجل- يقول: إذا كنت تتعجل في القرآن فقد تعجل للقائي قبلك نبي من أولي العزم وهو موسى -عليه السلام-، فجاء تاركاً قومه على أثره متشوقاً للقاء ففتنا قومه ففتنوا واتخذوا العجل معبوداً بعد أن أضلهم السامري، فلا تتعجل بالقرآن، فما بين عجلة موسى -عليه السلام- عن قومه، وعجلة محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- بالقرآن، رابط لطيف نقف عنده بشيء من التفصيل من خلال دراسة الحادثتين:

نبي الله موسى:

ورد نبأ استعجال موسى في الآيتين: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:83] ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه:84] وقد استعجل موسى لقاء ربه، وما أشوق لقاء المحبوب إلى حبيبته، فسبق السبعين رجلاً¹ تاركاً إياهم على أثره، طالباً بذلك رضا ربه، فخرج ساعياً إلى "ميعاد

¹ ورد في الآيات القرآنية لفظ (القوم) والمراد بالقوم كما ذهب المفسرين: هم السبعون رجلاً الذي اختارهم موسى أنظر سورة الأعراف الآية 155، ومثله: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص155، في تحديده للقوم: "أراد بالقوم السبعين الذين اختارهم، وكان موسى لما قرب من الطور سبقهم شوقاً إلى سماع كلام الله"

الطور الذي نزلت عليه فيه التوراة"¹ ، لقد واعد الله موسى -عليه السلام- على الجبل ميعاداً ضربيه له ليلقاه بعد أربعين يوماً لتلقي التكليف، صعد موسى إلى الجبل تاركاً قومه أسفله، وترك عليهم هارون نائباً عنه، وقد غلبه الشوق لمناجاة الله، مُتَعَجِّلاً للقاء²، عاش موسى قبل ذلك حادثة التكليم حين آنس النَّارَ، فلهفته وعجلته للقاء الله عجلة من ذاق حلاوة القرب طالباً الاستزادة، "فسار موسى لحضور الميقات مع قوم مخصوصين وهم السبعون الذي اختارهم موسى من بين قومه ليذهبوا معه إلى جبل الطور ليأخذوا التوراة، عجل من بينهم شوقاً إلى كلام ربه وتتجز ما وعد به بناء على اجتهاده وخلفهم وراءه"³

القوم الذين ذكروا في الآية:

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَنِيَعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: 155]، ولعل المراد بالقوم في سورة طه: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: 83] هُم السبعون رجلاً الذين اختارهم موسى وذلك لعلتين:

الأولى: لا يمكن بأي حال أن يحضر بنو إسرائيل كلهم الطور، وهو حين عاد إليهم خاطبهم بقوله: "أفطال عليكم العهد" أي أنهم استبطأوا موسى عليه السلام فطال عليهم الزمن الذي عاهدهم عليه. الثانية: أن موسى قد خلف هارون على بني إسرائيل، فإذا كانوا جميعاً في الطور فلم خلفه؟

زمن الميقات:

كان للميقات زمنٌ محدّد، وقد أخبر موسى -عليه السلام- عموم قومه بهذا الزمن، فقد "وعد الله موسى في البداية ثلاثين يوماً ثم مدّده عشرة أيام أخرى، اختبأً لبني إسرائيل كي يُعرف المنافقون من صفوف بني إسرائيل"⁴ فلما تأخّر عشرة أيام انقلب القوم على أعقابهم، وتأثّر حالهم وأضلّهم السامري ففتنوا به.

¹ الطَّبَّاطِبَائِي، الميزان، ج14، ص190.

² سيد قطب، في ظلال القرآن، ص2346.

³ درويش، محيي الدين، إعراب القرآن وبيانه، ج6، ص229.

⁴ الشيرازي، ناصر مكارم، قصص القرآن، ص257.

عجلة موسى سبب في ردة القوم:

ورد الاستفهام عن سبب عجلة موسى -عليه السلام-، ﴿وَمَا أَغْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:83] و هو "سؤال عن سبب العجلة يتضمن إنكارها من حيث إنها نقيصة في نفسها انضم إليها إغفال القوم وإيهام التعظم عليهم"¹ وعلل موسى عجلته بطلب رضا الله عز وجل وذلك في قوله "لترضى"، ويُفيد ذلك وجود لام التعليل المسبوقه بأن المفسرة أورد ذلك محيي الدين درويش في قوله: "ترضى فعل مضارع منصوب بأن مفسرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بعجلت أيضا كأنه تعليل لعجلته"²، فموسى طلب رضا الله -عز وجل- فتعجل الذهاب، ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه:84].

وقد ورد الاستفهام في الآية، عن سبب العجلة وعليه نُشير إلى أن "الاستفهام من الله تعالى لا يقع لاستدعاء المعرفة ولكنه يخرج عن معناه الأصلي لأغراض أخر تدرك في سياق الكلام"³، فالله عالم بما في نفس موسى وبكل ما يحيط به ولكنه ورد لأغراض عدة أبرزها محيي الدين درويش وهي في مجملها:

تنبئ المسئول وتنبهه إلى خلل ما جاء به من ترك القوم وإفساح المجال للسامري كي يضلهم لأنه مغرق في الضلالة وماهر في الإضلال، وتعليمه آداب السفر فينبغي على رئيس القوم أن يتأخر عنهم في المسير ليكون نظره محيطاً بهم، وقاطعاً الطريق على كل فتنة قد تتسرب لصفوفهم، على أن موسى أغفل هذه الأمور، ولعله بها عالم ولكنه الشوق إلى لقاء الله⁴.

لذلك كانت العجلة سبباً نتج عنه إضلال السامري لقومه، إن أنفسهم أنفس ضعيفة لم يكن منها إلا الوقوع في الذنب مع كثرة الآيات، وهذا الاستفهام ورد في الآية للإشارة إلى الخلل الذي قام به موسى وإنكاره عليه، وثق موسى بقومه، وبقائهم على أثره على أحسن حال، ولكن الله -عز وجل- أثبت أنهم أمام فتنة السامري ضلوا وكان المراد بذلك: "لا تكن واثقا على ما خلفتهم فيه فإننا قد فتناهم فضلوا"⁵، لذلك كان استعجال موسى في غير محله.

¹ البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ج4، ص35.

² درويش، محيي الدين، إعراب القرآن وبيانه، ج6، ص230.

³ نفسه، ص230-231.

⁴ نفسه، ص231.

⁵ الطباطبائي، الميزان، ج14، ص191.

نبي الله محمد:

وردَ نبأ عجلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114]، وردَ في كُتُبِ التفسير أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إذا نزلَ عليه جبريلٌ كُلَّمَا قَالَ آيَةً استعجلَ النبي في قولها من شدة حرصه، فكان "القلق من ناحية القرآن الذي ينزل عليه، فلا يجعل في ترديده خوف أن ينساه، ولا يشقى بذلك فالله ميسره وحافظه، إنما يطلب من ربه أن يزيده علماً"¹

وقد وردَ لفظ "لا تعجل" وهو نهْيٌ مُباشِرٌ وصريحٌ "عن الاستعجال في تلقي الوحي من جبريل عليه السلام ومساوقته في القراءة حتى يتم وحيه بعد ذكر الإنزال"² والنهي عن الاستعجال قبل انقضاء الوحي، ويُشير القرآن إلى البديل عن هذه العجلة، ووردَ ذلك بصيغة الأمر للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، "فأرشده الله في هذه الآية إلى ما ينبغي"³ وهو أن يدعُو الله بأن يزيده في علمه وذلك بقول: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114] فنهاه عن العجلة بقراءة القرآن، بل أمره أن يُنصِتَ لقراءة جبريل حتى ينتهي، فبعد أن أورد القرآن ما حدثَ مع قوم موسى حين تعجلَ للقاءِ رَبِّه، ينهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن العجلة، فكأنَّ المعنى هو: تعجل من قبلك نبيٌّ وانظر لما حلَّ به فانتبه عما نهيتُك، واستبدل عجلتك بالدعاء، ونص الدعاء: "قل رب زدني علماً".

ولعلَّ هناك رابطاً دقيقاً بين المشهدين: وهو أنَّ كُلًّا من نبي الله موسى -عليه السلام-، ونبي الله محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-، لم يتعجلاً على سبيل سرعة أداء المهمة، وإنما كان دافعُهُما في العجلة الحب والحرص ولعلهُ الشوق واللَّهفة، تعجلَ موسى -عليه السلام- في الطريق إلى جبل الطور حيثُ مواعده لتكليم الله لتنتزلَ عليه التَّوراة، وتعجلَ محمدٌ -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو يساق جبريل في تلقِّي آيات القرآن، إنَّ القرآن يبيِّن لنا شعور الأنبياء وحرصهم الشديد ولهفتهم للتلقِّي، وعلى الرغم من دافعهم الجيّد إلا أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- نَبَّهَ موسى عليه السلام إلى الخلل الذي جاء به في ترك القوم، وجاء النهي صريحاً مع نبي الله محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- والأمرُ باستبدال العجلة بالدعاء، وكأنَّما جاءت قصَّة موسى والسَّامريِّ لبيان مآل العجلة.

¹ في ظلال القرآن، ج16، ص2351.

² البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ج4، ص40.

³ الشنقيطي، أضواء البيان، ج4، ص646.

ب. ترتيب إحدى النُنى الداخليَّة:

ترتيب قصَّة موسى -البنية الثَّانية- وسنرتَّب البنية الداخلية لهذه القصَّة، والسؤال لماذا لم يذكر الله قصَّة موسى وفق ترتيبها الزَّمني من نِجاة موسى وهو طفل؟ بل جاءت مُرتبة بترتيب آخر.

فكرة القسم	الترتيب	سبب وروده في هذا الترتيب
تكليم الله لموسى	1	بدأ بهذا المقطع لما له من تأثير في قلب مُحَمَّد -صلى الله عليه وآله وسلم- إذ يُحدث هذا المشهد العظيم من تكليم الله لموسى أثرًا في نفس المتلقِّي، وكذلك فإنَّ الله كلَّم موسى واصطفاه وقَرَّبه.
مُعجزة العصا ومُعجزة اليد	2	تدعيمًا للفكرة الأولى من مُساندة الله لأُنبياؤه إذ يخصِّهم بالمُعجزات، فتتالى ذكر مُعجزتين من مُعجزات موسى.
تأييد الله لموسى وحفظه في ذهابه لفرعون	3	الله لا يأمر نبيّه بفعل ويتركه يخوض المعارك وحده بل يُسانده، الله لم يجعل نبيّه يواجه طاغيةً مثل فرعون بيدٍ عارية بل أمدّه وقوّاه بكلِّ ما طلب، وأعطاه الأمان والاطمئنان النفسي، وشدَّ عضده بأخيه.
تذكير موسى بطفولته ونجاته من فرعون + نجاته من الغمّ	4	نشأ موسى في بيت فرعون دون أن يمسه سوء، وعادَ لأُمّه لتقرّ عينها ولا تحزن، ذكر الله موسى بما حدث في طفولته، وذكره بواقعة القتل وكيف نجّاه من الغمّ، فالله القادر على أن يجمع العدوين في دارٍ واحدة، والقادر على بثّ الطمأنينة في قلب الإنسان، يجب أن يكون مُطمئنًا وهو يواجه طاغيةً مثل فرعون لأنّه يجب أن يثق بأنَّ الله معه، فجاء بهذه الشّواهد ليُزيل أيّ خوفٍ من قلب موسى أولًا، وهو ذاهب لمواجهة فرعون، وكذلك ليطمئنَّ قلب مُحَمَّد -صلى الله عليه وآله وسلم- حين يتلقّى النصّ وحيا ليطمئنَّ قلبه، ، لو جاءت الفكرة في المُقدِّمة لما كان لها هذا الوقع فهي بمنزلة بثّ الطمأنينة "كما حفظتك يا موسى في طفولتك

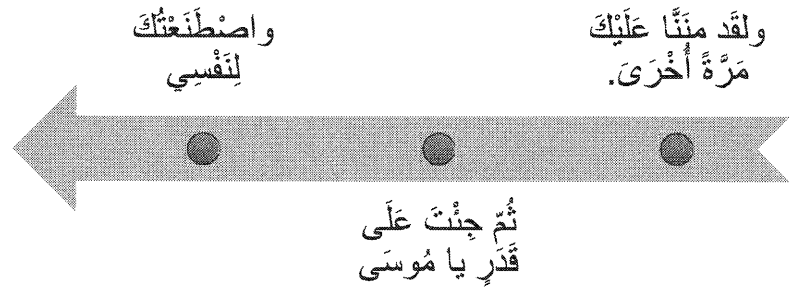
		فأنا معك الآن".
طمأن الله موسى وهارون لذهابهما لفرعون	5	مع كُل ما ذكر من شواهد وأمثلة على رعايته لموسى الطِّفل، وموسى الَّذي قتل نفسًا، إلَّا أَنَّهُ يطمئن قلب موسى مُجدِّدًا ويقول لنفسِ كُلِّ من موسى وهارون لا تخف، واطمئنَّ، وهذا يدلُّ على حالة الرَّهبة والخوف في نفسي موسى وهارون.
موسى والسَّحرة وانتصار موسى	6	تسلسل طبيعي يعقب ذهاب موسى لفرعون وانتصاره على السحرة
انتصار موسى وهلاك فرعون	7	غلبة موسى وهلاك فرعون، فموسى مؤيِّدٌ بنصرِ الله، فهو معهُ يسمع ويرى، وقد ضمنَ له النَّصر.
موسى وقومه وعجل السَّامريِّ	8	رغم كُلِّ ما قدَّمه موسى لقومه عبدوا عجلَ السَّامريِّ، ممَّا أثار غضب موسى فرجع غضبان أسفا لحال قومه، وهذه خاتمةُ القصة.

تتوالى الأحداثُ ويقوِّي بعضها بعضًا ولو جاءت على غيرِ هذا التَّرتيب لما بلغت هذا الانسجام،
فقوَّة هذه البنيةِ أساسها ابتداؤها بمشهدِ تكليم موسى -عليه السَّلام- لما يُحدثه من هزَّةٍ وتأثيرٍ عظيمٍ في
نفسِ المتلقِّي، ومرورًا بكُلِّ المشاهد التي يؤيِّدُ الله بها نبيُّه موسى، من طفولته حين أُلقي في اليمِّ وحُفِظَ
ونشأ في بيتِ فرعون وأعيدَ لأُمِّه، ثُمَّ هزيمته لفرعون وكذا إيمان السَّحرة، وانتهى المقطعُ بمشهدٍ مؤلمٍ تمثَّل
في رجوعِ موسى حزينًا لعبادةِ قومه عجلَ السَّامريِّ على الرَّغم من كُلِّ ما رآوه من مُعجزاتٍ، انسجمَ المقطعُ
وفقًا لوجودِ هذه الأحداثِ وفي ترتيبٍ غيرِ خطِّيٍّ، فلا أهميَّةَ لزمنيَّةِ الأحداثِ أمامَ الابتداءِ بما هو أكثرُ
تأثيرًا، وانتهاءً بالأمر الَّذي يُفضي إلى المقطعِ الثَّاني، فجاء التَّرتيبُ دقيقًا منظَّمًا، فقصةُ موسى تُعبِّرُ عن
حزنِ موسى، وعن حقيقةٍ أخرى وهي إعراض قومه عن الذِّكر، وقد جاءت قصةُ آدم بعد ذلك شاهدًا على
الجزء الَّذي يناله من يُعرض عن الذِّكر، فنجدُ انسجامًا وترتيبًا في صياغةِ الأحداثِ وترتيبها.

ج. ترتيب إحدى البنى النصية.

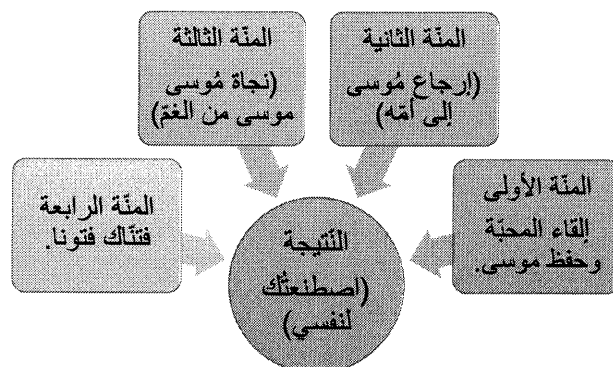
القرآن بناء تام مكتمل، كل نص فيه مكتمل، وكل بنية من كل نص مكتملة، وكل وحدة من كل بنية مكتملة، تتصل بعضها ببعض، ذلك أن كلمات القرآن كلمات منفردة بذاتها وبخصائصها لا تستطيع أن تغير كلمة أو تبدل عبارة أو تقدم جملة، فكل كلمة تمسك بالأخرى مثل الذرات في مجال مغناطيسي مُحكم¹ ومثال ذلك ما ورد في ذكر المِنِّ حَتَّى الاصطفاء فما أجملته السورة في آيات خمس، تبدأ بآية المنة وتنتهي بآية الاصطفاء فيه بُرهان متين على إحكام البناء، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه:37] ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ [طه:38] ﴿أَنِ افْذِفْهِ فِي التَّابُوتِ فَافْذِفْهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه:39] ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ [طه:40] ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:41]



¹ محمود، مصطفى، القرآن كائن حي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص14.

أَوَّلًا: المِنَّةُ



المِنَّةُ الأولى: موسى الطفل يتقلَّب في اليمِّ بعد أن تركته أمُّه، يصلُ لقصرِ فرعون يعيشُ مع عدوِّه في بيتٍ واحدٍ دون أن يمسه أذى من ألدِّ أعدائه، لأنَّ الله ألقى عليه محبةً منه هذه المحبة هي التي كفلت نجاته من الذبح كبقية الأطفال، فعاش في قصورِ فرعون ردحاً من الزمن.

المِنَّةُ الثانية: المشيئة الإلهية تجعله يعود إلى أمِّه لتقرَّ به عينها، فحفظه من القتل، ورضع من لبنِ أمِّه، وفي عودته حكمةً بالغة، ومثل ذلك ما حدث مع النَّبيِّ محمَّد - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم - ، فتحرَّكت الأحداث لتكون مرضعته حليلة السَّعدية عوضاً عن ثوية، فعودة موسى وإن كان فيها اطمئنان لقلب أمِّه وقرَّة لعينها، تحضنه ويتغذى بحنانها وإيمانها، فهي التي ألقت ابنها في اليمِّ امتثالاً لأمرِ الله.

المِنَّةُ الثالثة: نجاته من الغمِّ، وقد سُئل علي بن أبي طالب -عليه السَّلام- عن أشدَّ خلق الله فقال: "إنَّ أشدَّ خلق الله عشرة: الجبال الرواسي، والحديد تنحت به الجبال، والنار تأكل الحديد، والماء يطفئ النار، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء، والريح تقل السحاب، والانسان يغلب الريح يتقيها بيديه ويذهب لحاجته، والسكر يغلب الانسان، والنوم يغلب السكر، والهَم يغلب النوم، فأشدَّ خلق ربك الهَم"¹

لَمَّا كَانَ الْهَمُّ أَشَدَّ خَلَقَ اللهُ، وَالْغَمُّ أَشَدَّ دَرَجَةً مِنْهُ، قَالَ الْمَنَاوِي: "وَقِيلَ: الْهَمُّ وَالْغَمُّ وَالْحُزْنُ مِنْ وَادٍ وَاحِدٍ، وَهِيَ مَا يَصِيبُ الْقَلْبَ مِنَ الْأَلَمِ مِنْ فَوَاتِ مُحَبُّوبٍ، إِلَّا أَنَّ الْغَمَّ أَشَدُّهُمَا، وَالْحُزْنَ أَسْهَلُهُمَا"² عرفنا أنَّ

¹ الحكيمي، محمَّد رضا، سلوني قبل أن تفقدوني، ط7، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان، ج1، ص358، متفق عليه.

² المناوي، محمَّد عبدالرزؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصَّغير، ط2، دار المعرفة، بيروت، 1972، ج5، ص148.

ما أصاب موسى هو أعلى درجات ما يضيق به الصدر، وجاء الغم في القرآن بمعنى الحزن يحصل للقلب بسبب ما ويُطلق عليه "الغم"، لأن الصدر يضيق به، ولا يتبين صاحبه لأمره مصدرًا يصدُرُه¹.

وإذا استحضرنا سبب هذا الغم الذي أصاب موسى، وجدنا أنه حدث بسبب قتل موسى للقبطي من آل فرعون خطأ بوكزة أحدثها موسى بيده لا متقصداً القتل وإنما أراد أن يصلح بين القبطي والإسرائيلي لما وجدتهما على خلاف، وفسر الطباطبائي النجاة من الغم: "هو ما كان يخافه أن يقتله المَلَأ من آل فرعون فأخرجه الله إلى أرض مدين فلما أحضره شعيب وورد عليه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين"² أما القرطبي فالنجاة من الغم عنده هي الأمن من الخوف والقتل والحبس³.

نقول ولما ضاق صدر موسى خوفاً من فتك جنود فرعون به وقتلهم إياه، أو خوفاً من الخطأ الذي وقع وهو خطأ القتل، فالذنب يُوقِع صاحبه في همٍّ وغمٍّ، والنجاة ليست نجاةً من أيدي جنود فرعون وحسب، بل هي تخلص الله له من شعوره بالذنب والألم والخوف الناتج عن القتل، فالله الذي يخلق الغم في صدر الإنسان هو وحده القادر على إزالته، فهو أشد خلقه وهو الذي يفتك بصاحبه، وهنا تكون المنة وهي تخلص موسى منه، فأرسل له الله رجلاً يسعى يُخبره بأن جنود فرعون يبحثون عنه ليقتلوه، ففر لمدين هارباً حاملاً غمه في قلبه، فنجاه الله مِمَّا أغمه من أيدي الظالمين ومِمَّا اقترفت من خطأ.

ثانياً: جئت على قدر.

لنا أن نعرف أن هذه المنة هي التي استخلصت موسى للنبوّة، وهي التي جعلته على قدرٍ من تحمّل المسؤولية التي تُوكَل، و هيأتُهُ لاستقبال الصّوت الإلهي، وتحمل مشقة الوحي ومواجهة الظالمين، "والقدر هو المقدّر وهو ما حصله من العلم والعمل عن الابتلاءات الواردة عليه في نجاته من الغم بالخروج من مصر ولبثه في أهل مدين"⁴ فقد أعدّه الله لذلك وهيأ نفسه، ووطّن روحه، فهذا الخط من ولادته وحتى نشأته في بيت فرعون بين القصور، ثم قتله للرجل القبطي وفراره من مصر نحو مدين، انتقل من حياة القصور إلى حياة الرّيف يرعى الأغنام، فعاش الحياة بتناقضاتها، من القصور والتّعيم عند طاغية هو فرعون يملك ما يملك من جاه ومال، إلى بيت شعيب النّبي بين الحقول ورعي الغنم.

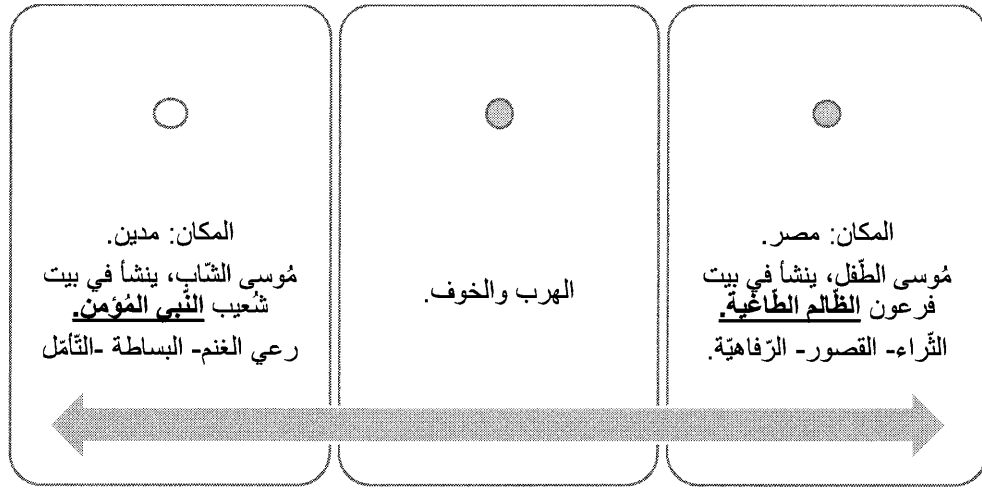
¹ الطبري، جامع البيان تفسیر الطبري، ج12، ص233.

² الميزان، ج14، ص152.

³ الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص132.

⁴ الطباطبائي، الميزان، ج14، ص152.

هذه الأحداث جميعاً، الانتقال من مرحلة إلى أخرى، كانت أسباباً ليكونَ موسى مُهيئاً، "من أجل مهمة تلقي الوحي الصعبة، ومن أجل قبول الرسالة، ومن أجل هداية العباد وإرشادهم ربّيتك واختبرتكَ في الحوادث الصعبة ومشاقّها"¹ حتّى كان الاصطفاء حين هُيئَ موسى له، "قوّيتك وعلمتك لتبلّغ عبادي أمري ونهي"²، لذلك وجود هذه الأحداث وفق هذا الترتيب والتنظيم له حكمة، فنجد في سورٍ أخرى، يُورّد الله جوانب أخرى من حياة موسى بعد هربه وهي وجوده مع بنات شُعيب النّبي، يسقي لهما، ويتزوّج صافورا ابنة شُعيب، والحجج العشر التي اشترطها شُعيب مهراً لابنته، هذه الأحداث كانت بمعزلٍ في هذه السّورة والسّبب هو إبراز جوانب مُحدّدة لأنّ الغاية ليست سرد قصّة موسى تفاصيل حياته كلّها وإنّما إضاءة ما يلزم وما يدعم الفكرة الواردة في السّياق، والمراد هنا أنّ موسى عاش فترتين متناقضتين وما بينهما كان الهرب والخوف، حين عاش في مصر بين القصور وتحت سلطة الظّالم حمّاه الله، وحين عاش في مدين في بيت نبيّ الله، هيّا الله روحه "كان من الضروري أن يقطع موسى عليه السلام مرحلة عشر سنين من عمره في الغربة إلى جانب النّبي العظيم شُعيب، وأن يكون راعياً لغنمه، ليغسل نفسه ممّا تطبّعت عليه من قبل أو ما قد أثرت عليه حياة القصر من خلق وسجّية، كان على موسى عليه السلام أن يعيش إلى جوار سكّنة الأكواخ فترةً ليعرف همومهم وآلامهم وأن يتهيأ لمواجهة سكّنة القصور، ومن جهة أخرى كان موسى بحاجة إلى زمن طويل ليفكر في أسرار الخلق وعالم الوجود وبناء شخصيته"³



¹ الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل، ج9، ص358.

² القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص133.

³ الشيرازي، ناصر مكارم، قصص القرآن، دار جواد الأئمة، بيروت، لبنان، ص205 - 206.

ثالثاً: اصطفتك لنفسي.

وتمّت كلمة الله، فجعل موسى خالصاً له، فكلّ النعم كانت سبيل موسى ليصطفيه ربه، فتهيّأت روحه وبُنيت شخصيته، وتهيّأ لحمل الأمانة، وهكذا اصطفاه ربه نبياً بعد أن تهيّأ واستعدّ، وبهذا يكون المعنى "جعلتك خالصاً لنفسي فيما عندك من النعم فالجميع مني وإحساني ولا يشاركني فيك غيري، فأنت لي مخلصاً وينطبق ذلك على قوله: "واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصاً" مريم: 51¹.

ومن هنا نجد أنّ هذه الآيات الخمس تتسجّم معانيها وفقاً لترتيب الألفاظ في نظام مُحدّد، ممّا يكشف عن ثراء هذه الوحدة النصّية، "هذا هو القرآن بنياناً مُحكمًا من الألفاظ لا تستطيع أن ترفع فيه كلمة أو تبدلها أو تؤخرها أو تقدمها، تتكرّر كلماته بحساب ولحكمة وهدف لكي تكشف عن مكنونها وتبوح بأسرارها وثرائها"²

¹ الطباطبائي، الميزان، ج14، ص153.

² محمود، مصطفى، القرآن كائن حي، ص18.

"آيَاتُ الْقُرْآنِ خَزَائِنُ الْعِلْمِ، فَكُلَّمَا فَتَحْتَ خَزَانَةً،
فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِيهَا"
علي بن الحسين.

٤ . التماسك الدلالي في الآية الواحدة.

كما أنّ الوحدات النصية الكبرى متماسكة، فالوحدات النصية الصغرى كذلك، فإذا ظهر اختلال في الوحدة الصغرى فذلك لا شك يترك تأثيره على البنى الكبرى للنص، وبناءً على ذلك، نقف عند آية واحدة في النص، لنبحث في تماسكها:

قال تعالى: ﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاجِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:39]

ولكي نحلل هذه الآية نحتاج أن نقسمها إلى مقاطع:



ترتبط أجزاء الآية الواحدة بعضها ببعض دلاليًا، بدءًا من الوحي الإلهي إلى أم موسى وحتى تعهد الله بحفظ موسى بعينه، أما ما ورد من الوحي إلى أم موسى فقد "جاء السياق سريعًا متلاحقًا يناسب سرعة التنفيذ"¹ متصلًا بأفعال ثلاثة "اقدفيه"، "اقدفيه"، "اقدفيه"، أما القذف في المرتين فهو من أم موسى وأما أمر الإلقاء فهو للنهر، فنقذ الأمر على وجه السرعة، وحلّت المنة، فأخذ الطفل عدو الله وعدوه، وهنا ترتبط الآية بما بعدها من خلال سؤال، كيف يأخذ العدو ولا يُصاب بشيء؟ تُجيب الآية بأن ذلك بسبب المحبة الملقاة على موسى، "أحبته أسية امرأة فرعون لما رآته، وأحبه فرعون لما رآه، وهذه محبة من الله لا سبب للمحبة (...). وإثباتًا لإرادة الله التي طوّعت فرعون لمحبة موسى، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: 24] وهكذا حوّل الله قلب فرعون، وأدخل فيه محبة موسى، ليمرّر هذه المسألة على هذا المغفل الكبير"² والحقيقة أنّ فرعون لم يكن مغفلًا فهو لم تأخذه الغفلة وحسب، ولكن المحبة هي التي استطاعت أن تسلبه عقله، فكما ورد عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- : " إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره، سلب ذوي العقول عقولهم حتى ينفذ فيهم قضاؤه وقدره، فإذا مضى أمره، رد إليهم عقولهم ووقعت الندامة. عن أنس وعلي"³

لذلك نرى أنّ السببية تربط بين الألفاظ بشكلٍ خفيّ، فلولا المحبة لاستحال اجتماع موسى وفرعون دون أن يقتله، فقد أدخل الله في قلبه حبّ موسى، وسلبه عقله فلو نظر أيّ شاهدٍ على اجتماعهما لعرف أنّ موسى تنطبق عليه النبوة بقتل فرعون، وأنه الذي قُتل لأجله كلّ من يُولد من الذكور، ولكن التدخل الإلهي والقدر هما من جعل غير الممكن وفقًا للمعطيات ممكنًا، ولذلك تأتي الآية الأخيرة لنُنتهي هذا المقطع بفصل القول ليكون الله حاميًا وحافظًا لموسى فهو في عينه، فإله تكفل بصناعاته وحفظه، ونخلص إلى أنّ وجود انسجام بين مفاصل الآية الواحدة التي هي جزء من هذا النصّ الكبير.

¹ الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، ج15، ص9267.

² نفسه، ص9270.

³ السُّيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، الجامع الصغير للسيوطي، ب.ط، ب.ت، ص41.

الانسجام بين ألفاظ السورة عامة:

غلب على السورة طابع الرحمة والحنو، فالله بأياديهِ يُسبِّغُ على أنبيائه بالمنن، ويتكفل بحفظهم، فورود القصص جاء على نحوٍ مُغايرٍ عن ورودها في بقية القرآن، اختلفت العبارات فاختلفت بناءً لها طرائف المعاني، فما بين العبارة الواردة في سورة طه والعبارات الواردة في سورة أخرى تباينٌ، وسبب ذلك تناغم العبارات مع السياق، ساقف عند قصّة موسى الواردة في نصّ سورة طه، وقصّة موسى الواردة في نصّ سورة القصص ونقارن بين بعض العبارات، لنرى كيف تنسجم العبارة مع السياق، أمّا اختياري لسورة القصص فلأنّ بناء السورة ودعامته الأساسية هي سورة موسى.

ونقف عند السياق الذي وردت فيه هذه القصّة، لنرى أنّ المراد من إيراد قصّة موسى في سورة طه هو بيان أنّ الله يُسانِدُ أنبياءه فيقف الإيمان في وجه الطغيان وأنّ مهمّة الرُّسل هي تأدية هذه الأمانة والوقوف في وجه الظالمين، أمّا المراد من إيراد قصّة موسى في سورة القصص فهو بيان أنّ يد القدرة تأخذ بيد المُستضعفين المُعتدى عليهم فتتقدّم وتستنقذ عناصر الخير فيهم وتربّهم وتجعلهم أئمة، وتجعلهم الوارثين¹.

أولاً: مشهدُ تكليم الله لموسى:

❖ سورة طه:

جاء الخطاب القرآني لموسى بصيغة "إني أنا ربك فاخلع نعليك" في قوله تعالى: ﴿إني أنا ربك فاخلع نعليك إني أنا ربك فاخلع نعليك إني أنا ربك فاخلع نعليك﴾ [طه:12]، ولأنّ المقام مقام عطفٍ ورحمةٍ وقربٍ، فنجد أنّ التعريف جاء بضمير المُخاطب الكاف العائد على موسى، فنُسب الربّ لموسى دون تسميته، واستخدام هذه الصيغة ينسجم مع السياق.

❖ سورة القصص:

جاء الخطاب في سورة القصص مُغايراً، فسردت القصّة على نحوٍ آخر يتناسب والمقام، قال تعالى: ﴿فلما أتاهما نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾ [القصص:30] فجاء النداء، "إني أنا الله رب العالمين"، نجدُ اختلافاً في قصّ القصّة، فمرة يُعرّف الله بلفظ الجلالة الله، ومرة أخرى كما حدث في سورة طه، يُعرّف بعبارة: "ربك"، وذكرنا سابقاً أنّ

¹ سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج5، ص2677.

المقام في سورة طه ينسجم مع تلك العبارة، أمّا في سورة القصص، فلأنّ السورة تعرض قُدرة الله عزّ وجلّ فهو الذي يجعل من المُستضعفين أئمةً فيرثون الأرض، فالمقامُ يتطلّب تعريف الله بلفظ الجلالة "الله" وإضافة "ربّ العالمين" لبيان أنّ هذه القُدرة تشمل كلّ شيء.

ثانيًا: مشهد موسى الطفل:

❖ سورة طه

1. ﴿أَنِ افْذِفْهِ فِي التَّابُوتِ فَافْذِفْهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:39]

وجُود صيغ الرّحمة واللّين والحِفْظ:

أ. وأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي.

ب. لَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي.

مشهدُ الطّفل المُلقى في اليمّ متناغمًا مع السّياق في سورة طه القائمة على حفظِ الله لأنبيائه ومساندته لهم، لذلك نجدُ الأمرَ الإلهيّ "القذف في التّابوت والإلقاء في اليمّ" ونتيجةً الامتثال للأمر الإلهيّ "يأخذه عدوّ لي وعدوّ له" مضافًا إلى ما يدلّ على حفظِ الله ومُساندته وهي العبارات التي تنسجم مع السّياق "وأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي"، "ولِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي"، فهذه العبارات الواردة تُمثّل خصوصيّة تنسجم مع سياق النّصّ، ففيها بيان جانب الرّحمة واللّين.

❖ سورة القصص

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:7] في هذا النّصّ، وفقًا للسّياق الأنف ذكره، نجدُ أنّ التّركيز الأوّل يكون على قصّة موسى الطّفل، لبيان أنّ يد القُدرة تأخذ بيد المعتدى عليهم، لذلك تفصّل السّورة في ذكر كيف أنّ موسى الذي كان طفلًا عاجزًا وُلد والقتل كان مقرّرًا أن يكون مصيره لأنّه ذكر، وتبيّن لنا الآيات خوف أمّه وحيرتها وبيان المفارقة العظمي "يا للقُدرة يا أمّ موسى أرضعيه، فإذا خفت عليه وهو في حضنك وهو في رعايتك، إذا خفت عليه وفي فمه ثديك وهو تحت عينيك. فألقيه في اليم!! ولا تخافي ولا تحزني إنّهُ هنا، في اليمّ، في رعاية اليد التي لا أمن إلاّ في جوارها، اليد التي لا

خوف معها¹ فالقدرة الإلهية أخذت بيد المستضعفين، فأخذت موسى من حضن أمّه التي لولا فرعون لكان حضنها أمناً واطمئنناً، ولكن لوجود التجبر والطغيان، صار وجود موسى في حضن أمّه يثير الخوف، لذلك جاء الأمر الإلهي مشروطاً وهذا ما لم نجد في سورة طه بل عملية رضاعة الطفل كلّها لم تذكر، لأنّ السياق في سورة القصص غيره في سورة طه، ففي سورة القصص يتطلب بيان ما عاشوه من استضعاف وخوف فالسيف الواقع على أعناق الذكور جعل رضاعة الطفل أمراً خطيراً!

ثالثاً: مشهد انقلاب العصا.

ألقيت العصا، وتحولت بإذن الله إلى "حية"، وقد عبّر عنها القرآن في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه:20]، أمّا في سورة القصص، فقد وردّ المشهد بطريقة مغايرة ولفظ مختلف، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَلْقِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص:31]، وقد أورد الزمخشري الفرق بين الحية والجان، فأما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى، والصغير والكبير، وأما الجان فهو الدقيق من الحيات، ولعلّ المراد هو سرعة حركة الجان²

وإذا نظرنا إلى السياق الذي وردت فيه العبارة، نجد أنّ الحية التي هي اسم جنس وردت في سورة طه، ومقامها مساندة الله لأنبيائه، فليس المراد وصف دقة المشهد، وإنّما ذكر المشهد بشكل عام، فلعلّ ذكر الحية دون سواها لأنّ المراد عموم الشيء، فالعصا انقلبت حية وهذه هي المنّة، ولم يفصل في وصف شعور موسى إلا بإشارة موجزة لوجود حالة الخوف وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه:21] فلما انقلبت العصا حية خاف موسى ولكن الله نهاه عن الخوف فهي ستستعيد هيئتها.

أمّا في سورة القصص فالأمر مختلف، فالعبارة جاءت منسجمة مع السياق فالمراد هو التركيز على جانب قدرة الله عزّ وجلّ، لذلك نجد قوله تعالى: ﴿أَنْ أَلْقِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص:31]، فيه وصف لمشهد تحول العصا، فقد اهتزت، وكأنّ اهتزازها جانّ، ولعلّ المراد من ذلك أنّ حركة الاهتزاز حركة سريعة خاطفة كحركة

¹ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج5، ص2679.

² الزمخشري، الكشاف، ص654.

الجان، وقيل أنَّ "الجان الدقيق من الحيات"¹ غير أنَّ وجود لفظ "كأن" في الآية، يجعل الأقرب للمعنى هو أن يكون اهتزاز الحية أشبه بالجان وليس المراد هو الدقيق من الحيات، وقد ركزت الآية في بيان حالة موسى النفسية فقد ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص:31]، لشدة خوفه ودهشته ورُبما جزعه، فوصف حالة موسى ذلك أنه فرَّ مُدْبِرًا تاركًا الحية خلفه دليلًا على عظم حالة الخوف التي عاشها موسى، لأنَّ القصة تأتي في سياق بيان قدرة الله، فبرز لنا جانب الخوف والرَّهبة، فعبارة ﴿كَأَنَّهَا جَانٌ﴾ [القصص:31]، وعبارة ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ [القصص:31]، و عبارة ﴿لَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص:31]، جميعها عبارات تتسجم مع سياق النص.

رابعًا: علّة ذكر "اقذفه" عوضًا عن "ألقيه".

ولنقف بشيء من التفصيل عند الفرق اللغوي بين اللَّفْظَيْن نعود لما ذكرته المعاجم في معنى القذف، فقد ورد في أساس البلاغة للزمخشري: قذف الحجر بالقذافة وقُذِفَ بِهِ وتقاذفوا بالحجارة، وجعل الله الشَّهاب قذيفة الشَّيطان، (...) مفاضة قذوف، قذَفَ: بعيدة، وسيَرَّ قذاف، وناقَة قذاف: يُراد السُّرعة² فنجد المعنى يدور حول البعد والسُّرعة.

قال تعالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاجِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:39]، وقد أمرها المولى -عزَّ وجل- بقذف موسى في التَّابُوتِ، وقذفه في اليمِّ، والقذفُ جاء هنا بمعنى الرَّمي بسرعة بعيدًا، فكانت أمُّ موسى على عجلة من أمرها، والأمر على نحوٍ سريع، فالأمر بالقذف فيه إحياء بالسُّرعة، وفي ذلك يقول ابن عاشور: "القذف أصله الرمي، وأطلق هنا على الوضع في التابوت، تمثيلًا لهيئة المخفي عمله، فهو يسرع وضعه في يده كهيئة من يقذف حجرًا ونحوه"³، و أمُّ موسى عاشت حالةً من الاستعجال نتيجةً لما تلاقيه من ظروف قد تُؤدِّي لفقدانها الأبدي لطفلها فيما لو باغتها جنود فرعون، فلمَّا جاء الأمر الإلهي، دلَّ على شدة الخطر، وحالة الخوف، فورد اللفظ مناسبًا للسياق في سورة طه، ففيها يكونُ الأمر في وقت التنفيذ ولذلك "جاء الأمر في عبارات سريعة متلاحقة"⁴ فتتالت الأفعال، وتتالي الأفعال يدلُّ على السُّرعة والحركة، وجاء لفظ

¹ الزمخشري، الكشاف، ص654.

² أساس البلاغة، ج2، ص62.

³ ابن عاشور، التحرير والتلويز، ج16، ص216.

⁴ الشعراوي، محمَّد متولِّي، تفسير الشعراوي، ج15، ص9267.

قذف الذي حمل أيضًا دلالة السرعة، مما يُكوّن تماسكًا بين الشكل المتمثل في المستوى التركيبي لتتالي أفعال الأمر، وبين المستوى الدلالي المتمثل في لفظ قذف الذي يدور معناه حول الحركة السريعة التي تُؤدّي للبُعد، "كأنّ الحق سبحانه أوحى إليها: أسرعِي إلى الأمر الذي سبق أن أوحيتُهُ إليك، هذا الكلام في الحبكة لهذه المسألة"¹

وفي ذلك يذكر سيّد قطب: "حركات كلها عنف وكلها خشونة، قذف في التابوت بالطفل، وقذف في اليم بالتأبوت، وإلقاء للتأبوت على السّاحل، ثمّ ماذا؟ أين يذهب التأبوت المقذوف فيه بالطفل المقذوف في اليم الملقى به على السّاحل"² فهذا القذف وهذه العجلة هي الوسيلة لحفظ الطفل، وأمّ موسى امتلكت الإيمان الذي دفعها لقذف الطفل في تابوته وقذفه في اليم، وتركه لقدره ومصيره، ولمكنّا أن نُضيف، القذف يكون للشّيء الذي يُجهل اتجاهه، ولمّا قذفت أمّ موسى طفلها لم تكن تعرف وجهته، إلّا أن يكون مصيره مُقرّرًا بأن يأخذه عدوُّ الله و له.

ويُعقّب سيّد قطب بقوله: " في المشهد مقابلة عجيبة في تصوير المشهد، مقابلة بين القوى الجبّارة الطّاغية التي تتربّص بالطفل الصّغير، والخشونة القاسية فيما يحيط به من ملابسات وظروف، والرّحمة اللّينة اللّطيفة التي تحرسه من المخاوف وتقيه من الشّدائد وتلقّاه من الخشونة، ممثلة في المحبة"³

أمّا في سورة القصص فجاء الأمر على نحوٍ مُغاير، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي النِّيمِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:7]، في هذه السّورة نجد حالة الخوف المتمثلة في خوف أمّ موسى فسباق السّورة هو الأخذ بيد المعتدى عليهم، ففصلت السّورة في ذكر حالة موسى الذي وُلد والقتل كان مُقرّرًا أن يكون مصيره، فتظهر السّورة حالة خوف أمّ موسى: "إِذَا خِفَتْ" وأيضًا من الألفاظ ما يدلّ على بثّ الطمأنينة في قلب أمّ موسى: ومنها قوله تعالى: "لا تخافي، لا تحزني، إنّنا رادّوه إليك"، ويذكر السّامري: "الله ربط على قلبها، وهذا يستدعي الهدوء في الإلقاء، هي تضعه في هدوء، والإرضاع يستدعي القرب وليس البُعد، في سورة طه لم يذكر هذه الأمور لا ربط على القلب ولا شيء ولا تطمين"⁴

¹ الشعراوي، محمّد متولّي، تفسير الشعراوي، ج15، ص9268.

² سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج16، ص2334.

³ سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج16، ص2335.

⁴ فاضل السّامري، <https://tadars.com/tdbr/eloquence/5886>، بالإضافة إلى مقطع يتحدّث فيه عن الموضوع نفسه: https://www.youtube.com/watch?v=xBNbsge5jEg&list=UUET_yD8OFwj8m4DptN1bMsQ&index=58

الانسجام بين ألفاظ واردة في السورة:

أولاً: القول اللين:

حين أمر الله نبيّه موسى عليه السّلام، بالذهاب إلى فرعون أمره بالقول اللين لأنّ طاعية يقول أنا ربكم الأعلى ما كان ليقبل خشونة القول ولا يؤمن له فجاء الأمر الإلهي: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:44] نجد انسجاماً بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه:48] موسى وهارون حين خاطباً فرعون خاطباه بالقول اللين كما أمرهم الله وصيغة القول تبين ذلك:

أولاً: أظهر مصدر القانون -العذاب على من كذب وتولى- أنّه وحي وليس من عندهما، مؤكّداً بمؤكّدين هما (إنّا وقد) لتخفيف حدة انفعال المتلقي، ذلك أنه لا يدّ لهما في هذا القانون وإنّما هو وحي أوحى إليهما ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾ [طه:48].

ثانياً: صيغة القانون صيغة عامّة، لا تشير إلى الشخص على نحو مباشر ولكنّها مُبطّنة، فهناك فرق بين أن يقول: إنّنا قد أوحى إلينا أنّ العذاب عليك! وهو التهديد المباشر، وبين قولهما اللين: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه:48] الذي يُفيد عموم من كذب وتولى وإن كان تهديداً مُبطّناً، فعليه أن يُطبّق هذا القانون الإلهي على نفسه، وينبغي الإشارة إلى أنّ فرعون يدخل في دائرة العموم "على من كذب وتولى" فكل من كذب وتولى سينال العذاب، وفرعون ممّن كذب وتولى، وهو يعلم بذلك، ولكن لأنّ الكلام لم يُوجّه إليه بشكل مباشر كان الكلام أخفّ وطأة، فلا يستطيع مُعاقبتُهما على جرم لا يمكن إثباته وإن كان تلميحا.

فرعون تلقى القول ولم تصدر منه ردّة فعلٍ لذا نجد أنّ الحوار تتابع على نحو يخلو من نبرة الغضب والحدة، فتتابع الأسئلة على شكل حوارٍ اعتيادي: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه:49]، ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه:51].

ولنا أن نفترض أنّ الخطاب جاء بصيغة: إنّنا قد أوحى إلينا أنّ العذاب عليك، لعلّ فرعون بطش وسفك دمائهم لو شعر أنّ التهديد مُختصّ به، ولذا كان الأمر الإلهي بالقول اللين لأنّه بالقول اللين تُرجى المنفعة وهي التذكّر أو الخشية.

ثانيًا: الصُّحُفِ الأولى:

ورد ذكرُ القرآنِ مِنْ بدايةِ النَّصِّ القرآنيِّ وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه:2] وتوزَّع ذكره في مقاطعٍ مُختلفةٍ، إِنَّ وجودَ أصداءٍ للقرآنِ يتَّفَقُ مع سببِ نزوله ومع الأهمية التي يوليها هذا النَّصُّ للقرآنِ والدَّعوة إليه، ولعلَّ هذا التَّركيز له دواعيه وأسبابه نذكرها بعد استعراض الآيات ودراسة ما تتَّفَقُ فيه:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الأولى﴾ [طه:133]، وهي آخرُ آيةٍ يأتي فيها ذكرُ القرآنِ في هذا النَّصِّ، وقد جاء ذكره بلفظِ بَيِّنَةٍ، "المراد بالبينة القرآن الكريم والمراد بالصُّحُفِ الأولى التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية وبما فيها العقائد الحقة وأصول الأحكام التي اجتمعت عليها كافة الرسل عليهم السلام ومعنى كونه بينة لذلك كونه شهد بحقيقته وفي إيرادها بهذا العنوان ما لا يخفى من التتويه بشأنه والانارة لبرهانه حيث أشار إلى امتيازهِ وغناه"¹ ويذهب الطَّبَّاطبائي إلى أنَّ هذا القول في حكاية قول مشركي مَكَّة وإنما قالوا هذا تعريضًا للقرآنِ أنَّه ليس بآيةٍ دالَّةٍ على النبوة فليأتنا بآيةٍ كما أرسل الأولون وفي قولهم تحضيضٌ بداعي إهانة القرآنِ والبينة على قولين: الأوَّل هو الشاهد المبيِّن أو البَيِّن والثَّاني هو البيان، وهما كالآتي:

القول الأوَّل - الشاهدُ البَيِّن -: أولم تأتِهم بينةٌ وشاهدٌ يشهدُ على ما في الصُّحُفِ الأولى -وهي التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية- من حقائق المعارفِ والشرائعِ ويبينها وهو القرآنُ وقد أتى بها رجلٌ لا علم له بها.

والقول الثاني - بيان ما في الصُّحُفِ -: ألم تأتِهم بيانٌ ما في الصُّحُفِ مِنْ أخبارِ الأممِ الماضيةِ الذين اقترحوا على أنبيائهم الآياتِ فأتوا بها فلم يأمنوا بها وكان ذلك سببًا لهلاكهم² ، والقولانِ لهما وجهة، ونرجِّحُ الأوَّلَ لأنَّه أوسعُ وأشملُ وأكثرُ انسجامًا مع النَّصِّ، فالقصصُ القرآنيَّةُ الواردة في هذا النَّصِّ لم تأتِ لتدعم فكرة طلب الأقبام للآياتِ وهلاكهم بعد الإعراض عنها، وإنَّما جاءت لتؤكد رحمة الله عزَّ وجلَّ، وأهمية الذكرِ واتِّباعه والنَّهي عن الإعراض عنه، وهذا ما يؤكِّده القولُ الأوَّلُ كما أنَّ أغلبَ المُفسِّرين ذهبوا هذا المذهب، يقول سيِّد قُطب في الآية: "وقرب ختام السورة يعود بالحديث إلى أولئك الكبراء المتعنتين

¹ الألوسي، تفسير روح المعاني، ج16، ص286.

² الميزان، ج14 ص240، يتَّفَقُ مع القول الثاني الَّذي ذكره الطَّبَّاطبائي ، الألوسي، أنظر روح المعاني، ج16، ص286.

المكذّبين، الذين يطلبون إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- بعدما جاءهم بهذا القرآن أن يأتيهم بآية من ربهم: هذا القرآن الذي يبين ويوضح ما جاءت به الرسالات قبله، "وقالوا : لولا يأتينا بآية من ربّه. أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى؟". فليس إلا التعنت وإلا المكابرة والرغبة في الاقتراح هي التي تملي مثل هذا الاقتراح وإلا فآية القرآن كافية. وهو يصل حاضر الرسالة بماضيها، ويوجّد طبيعتها واتجاهها، ويبين ويفصل ما أجمل في الصحف الأولى"¹.

نزل القرآن حاملاً معه سيرة القرون السابقة، شاهداً على رسالات الأنبياء وحملة الرسالة، ناقلاً ومُبيناً للكتب السابقة، مُشتملاً على ما فيها من عقائد وأحكام، كما أن هذا القرآن قد "سبق التبشير به وبإيحائي من الرسل به في الكتب الإلهية السابقة المنزلة على الرسل"² فقد بشرت الديانات السابقة بمجيء هذا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حاملاً القرآن آية كبرى، وينتهي النص القرآني بتوعد إلهي وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [طه:135]، أي انتظروا لتروا غداً من هم أصحاب الصراط الذين اهتدوا بهدى الله، وقد اقترن لفظ الهدى في عامّة السورة باتّباع الذكر فمن يتبع الذكر فهو المهتدي الذي له رغد العيش في مقابل المعرض.

وما بين الآية الواردة في أول النص، والآية الواردة في آخره، نجد جملة من الآيات الواردة بينهما تحمل دلالات القرآن نصاً أو معنى:

¹ سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج16، ص2357.

² الأندلسي، أبو حيان، تفسير البحر المحيط، ج6، ص270.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه:9]

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ
آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:99] ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ
فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ [طه:100]

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه:113]

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا
وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:124]
﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ
بَصِيرًا﴾ [طه:125] ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا
وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه:126]

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ
وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:127] ﴿أَلَمْ يَهْدِ
لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه:128]

﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ
بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه:133].

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه:9]

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ
وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:99]
﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وِزْرًا﴾ [طه:100]

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ
مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ
ذِكْرًا﴾ [طه:113]

﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ
نُنْسِي﴾ [طه:126]

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ
بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾
[طه:127]

نزلت هذه السورة لمساندة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فلا تذهب نفسه حسرات على قومه، وأول ما بدأت به هو ذكر القرآن، ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه:2] في بيان أن القرآن هو وسيلة تذكير للناس، ووظيفة النبي هي تذكير الناس بآيات القرآن قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية:21] ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية:22] ويكون هذا التذكير بوسائل عدة منها سرد قصص الماضين ولذلك قيل أن القرآن هو بيّنة ما في الصحف ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه:133]، ففيه شرائع وأحكام وأخبار وردت في الصحف الأولى وهي كتب الأنبياء -عليهم السلام- الذين سبّغوا النبي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-.

من جملة ما بيّنه القرآن ما ورد في التوراة من قصة موسى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه:9] مع إضافات تختص بالقرآن لتبين ما التبس وما دخل على التوراة من تحريف، وهذه القصص مع ما فيها من إضافات لا يمكن للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يأتي بها من عنده، مع كل ما ورد فيها من تفاصيل، كما أن القرآن يشير إلى أنه يستعرض قصص السابقين وأنبيائهم هذه الأنبياء التي ذكرها هو تبيان لما في الصحف الأولى، ثم التأكيد بقدر على قضية إتيان الذكر من الله عز وجل للنبي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:99] ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ [طه:100]

وكذلك يستعرض قصة نبي الله آدم في معرض القول عن الوعيد الذي ينال المعرضين وهذا الوعيد أيضًا هو من جملة ما نزل به القرآن، ليتذكر به من يتذكر ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه:113].

ويبرز قضية هامة هي قضية عجلة نبي الله محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- بالقرآن والنهي الصريح والمباشر عن العجلة بالقرآن، متبوعًا بقصة آدم -عليه السلام- وقد نهى آدم قبله عن الأكل من الشجرة ولكن لم يكن شديد العزم فلم ينته، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114].

كذلك من جملة ما ورد من إشارات للقرآن في النص قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:124] ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [طه:125] ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمِ تَنْسَى﴾ [طه:126]، فنسيان ذكر الله يجعل

الإنسان منسياً لا يُأبهُ بأمرِهِ ولا ينالُ إلا الظلام والعمى والنسيان وضنك العيش، وهذا هو القانون الإلهي، الإعراض عن القرآن له نتيجة حتمية ضنك عيش في الدنيا ومآل مؤلم في الآخرة.

ومع كُلِّ ما نزل من عظمة القرآن، وما فيه من قصص يطلبُ المشركون أن يأتيهم محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- بآية، فيأتي الرد الإلهي: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه:133]، فقد جاء القرآن مُحَمَّلاً بقصص السابقين وأحكامهم وشرائعهم، فالقرآن هو بَيِّنَةٌ ما ورد في كتب السابقين، ومع ذلك يتعنَّتون ويكابرون، وينتهي النص من حيث ابتدأ بأهمية القرآن كتذكُّرٍ، ففيه ما يدلُّ وما يُبرهن على أنه من عليم مُحيطٍ بِكُلِّ الأحداث.

ونجدُ صلةً وثيقةً بين هذه الآيات جميعاً المترابطة دلاليًا في أهمية القرآن الذي جاء ذكره في النص بلفظين: القرآن والذكر، كما نجد أن هذه الآيات جميعاً التي تحوي دلالة القرآن تبدأ بلفظ: "وكذلك"، وما بينهما آية البداية: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، وآية الختام: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه:133].

ثالثاً: الاختتام:

لا شكَّ أنَّ النَّصَّ الَّذِي يُتْرَكُ بلا خاتمةٍ يَكُونُ نصًّا ناقصاً مَبْتُوراً إذ تُؤدِّي الخاتمةُ دوراً بهِ يَكتُمُ النَّصُّ، وقد لاحظنا كيفَ ارتبطت البُنى بعضُها ببعضٍ في سورة طه، وجاءت الخاتمةُ تُؤيِّدُ كُلَّ ما ذُكر، وتربطُ كُلَّ ما سبق بخيطٍ رفيعٍ، فنجدُ حلقةَ الوصلِ بين الخاتمةِ والمُقدِّمةِ في مواضعٍ عدَّة:

أولها: في البنية الأولى ذكر الله علمه بالسِّرِّ وما يُخفيه النَّبيُّ - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم - في صدره: ﴿وَإِنْ تَجَهَّزْ بِالنَّصْلِ فَإِنَّهُ يَغْلُمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:7]، أمَّا في البنية الأخيرة فيتَّضح لنا معرفة ما هو خفيٌّ في أعماق النَّبيِّ - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم - غير ظاهر إلاَّ اللهُ عزَّ وجلَّ، فيقولُ له: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [طه:130]، وفي ذلك دلالة واضحة على أنَّ كُلَّ ما ذُكر من قصص لأنبياءٍ إنما ورد لغرض مواساة النَّبيِّ - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم - وإلهامه الصَّبْر والقوَّة، فالله عالمٌ بما في نفسه، مُحيطٌ بهِ، قادرٌ على إزالتهِ، وهو بهذه السُّورة القرآنيَّة يُلهمه الصَّبْر لمواجهة قومه، وتحملُ إعراضهم فلا يكلف نفسه فوق ما تستطيع، ولا يُشقي نفسه، فمهمته تذكير قومه، وأقدارهم مُعلَّقة بقرارتهم.

ثانيها: الله عزَّ وجلَّ في البنية الأولى يذكر بأنَّ هذا القرآن هدفه التذكير، لا شقاء حملته من الرُّسل، فعلى النَّبيِّ - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم - أن لا يُشقي نفسه، ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه:2]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه:3]، كما أنَّه عزَّ وجلَّ في البنية الأخيرة يصوِّر عاقبة هؤلاء الَّذي يُعرضون عن ذكرِ الله وعن الرُّسول صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه:133]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِّن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه:134]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [طه:135]، فلم يبق النَّصَّ مَبْتُوراً وإنما حملت الخاتمة نتائج ما ذُكر في المُقدِّمة، فكلُّ حصَّةٍ ما تجنيه يدها، وهذا ما يُحقِّق انسجاماً في النَّصِّ.

رابعاً: العلاقات:

تُشكِّلُ العلاقاتُ حلقةً هامةً للوصلِ بينَ الوحداتِ النصِّيةِ، فهي تُؤدِّي ما تُؤدِّيهِ أدواتُ الوصلِ ولكنَّها تعتمدُ على المعنى عوضاً عن اللفظ، ولهذا "قد لا يظهر الرّابطُ السياقي بين الجملتين، بل قد يغيب ويحل محله الرابط المعنوي، فتكون إحدى الجملتين تفسيراً للأخرى، أو تكون تفصيلاً لإجمال سبقه، أو تكون إحداهما تأكيداً للأخرى وقد يكون سببُ غيابِ الرابطِ السياقي بين الجملتين قوة الارتباط الدلالي أو المعنوي بينهما"¹، وسندرسُ بعض العلاقات الدلالية التي تحقّق الترابط بين أجزاء النصّ، وسنقفُ عند العلاقات في إطار البنية الواحدة، والعلاقات على مستوى النصّ كلّهُ، ونقفُ أولاً عند:

أ. العلاقات في إطار البنية الواحدة:

أولاً علاقةُ الإجمال والتّفصيل: لم تخلُ السّورةُ من علاقات الإجمال والتّفصيل، بل شكّلت حضوراً وتامياً فيها، ومن ذلك:

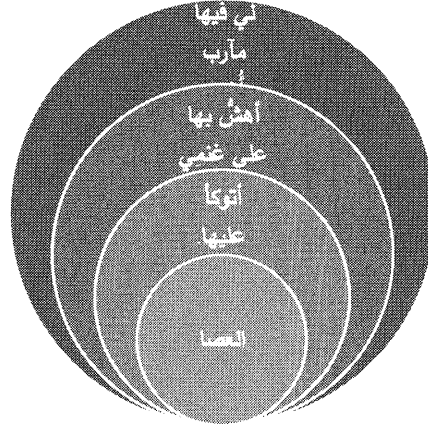
أ. ﴿هِيَ عَصَايَ أَنْوَكَا عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى﴾ [طه:18].

لفظ عصاي إجمالاً، ولكنّ موسى لم يكتفِ به بل فصّل في بيان استخداماته، فأبرزَ وظائف العصا مع أنّ السّؤال كان محدّداً في ماهية الشيء لا استخداماته، فلها وظيفة تتعلّق بموسى نفسه فعليها يتوكأ، ووظيفة تتعلّق بعمله فيها يهشّ على غنمه، وله فيها أيضاً مأرب أخرى لا يذكرها ويكتفي بهذا التّفصيل، والرّابط بين هذه المفصّلات رابطٌ لفظي هو واو العطف إضافة للعلاقة الدلالية الرابطة بين مفاصِل هذه الآية.

نجدُ أنّ المُجمل الوارد في لفظٍ واحدٍ هو العصا قد فُصِّلَ على بُعدين شخصي وعَملي، وفُتِحَ البُعد الأخير بأفقي غير مُحدّد عبّر عن ذلك اللفظ "أخرى" التي تفيد الإطلاق، كما أنّ لهذا التّفصيل بعداً جميلاً يتعلّق بحالة موسى في مقام العشق، وفي هذا يُشير مُحيي الدّين درويش إلى أنّ موسى كأنّما توهم سؤالاً آخر هو ماذا تصنع بالعصا؟ فأخذ يُعدّد منافعها، ولعلّه فعل ذلك لأُمور ثلاثة أولها بُغية شكر الله على

¹ يونس، أحمد عزّت، العلاقات النصّية في لغة القرآن الكريم، ص 232-233.

نعمة هذه العصا، والثاني أنّ المقام مقام خطاب حبيب فهو يقتضي البسط والإسهام، والثالث هو تعظيم مُساءلة ربه له فابتدأه بالجواب المُقدّر أدباً مع ربه¹



ب. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾

[طه:58]

دلّت الآية على وجود موعد، وفيه إجمال، فلا يظهر من خلال الآية تفاصيل هذا الموعد، ولكن جاءت الآية التي تليها تحمل تفاصيله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:59]، فالموعد يوم الزينة، وقد عرّف سيّد قطب هذا اليوم بقوله: هو يوم يجتمع فيه الناس جميعاً، وهو من الأعياد الجامعة التي يأخذ فيها الناس في مصر زينتهم ويجتمعون في الميادين والأمكنة المكشوفة، وأن يجتمع الناس ضحى ليكون المكان مكشوقاً والوقت في أوضح فترة من النهار، وأشدّها تجمّعاً، فاختر الوقت الذي يكون فيه كل شيء واضحاً فلا ظلام يمنع عن الرؤية، وفي يوم يجتمع فيه الناس ليضمن حضور أكبر قدر من الناس²

¹ إعراب القرآن وبيانه، ج6، ص177.

² سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص3340.

ت. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه:105]

دلّت الآية على أنّ مآل الجبال هو نسفها، تمّ ذلك من خلال اللفظين: "ينسفها" و "نسفا"، غير أنّ هذا الإجمال تفصّله الآيات التالية لهذه الآية، فبيّن أنها تتحوّل إلى قاعٍ صفصف، لا يوجد فيها أيّ انحناء ولا تعرجات، هذا التفصيل ورد في قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه:106]، وقوله: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه:107].

ث. ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه:115]

جاءت هذه الآية مُجملةً في بيان وجود عهدٍ قد عهده الله إلى آدم فلم يكن صاحب عزمٍ فَنَسِيَ ما عهده الله إليه، وتُفَصِّلُ الآيات التي تليها في بيان هذا العهد وما نسيه آدم، لقد عهّد إليه بأن لا يأكل من الشجرة ولكن الشيطان وسوس له فأخرجه من الجنة وقد ورد التفصيل في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه:117]، ﴿إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى﴾ [طه:118]، ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ [طه:119]، ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه:120] ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه:121].

ج. ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾

[طه:113]

ورد التفصيل متبوعاً بإجمالٍ في قوله تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ فأجمل في ذكر الوعيد، وقد ورد التفصيل في الآيات التي سبقت هذه الآية، مُفَصِّلاً في ما يكون من حال المعرضين يوم القيامة، وعن مظاهر هذا الوعيد:

حمل الوزر	﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾ 101
الخلود في النار.	﴿ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴾ 101
زُرْق العيون، دلالة على العمى.	﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ 102
إرهابهم وتخويفهم بتصوير مشهد نصف الجبال لبيان القدرة على كل شيء.	﴿: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا 105
الخيبة.	﴿: وَغَتَّتِ الْجُودُ لِلْحَيِّ الْقِيُومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ 111

وصرفنا فيه من الوعيد

ولا شك أنَّ ما يُحدثه التصوير، في نفس المتلقِّي من رهبة وخوفٍ، وهذا يدخل في باب الوعيد، فإله يتوعَّد المُعرِّض بحملِ الوزر والخلود في النار والعمى والخيبة، ويُرهبهم ويبثُّ في أنفسهم الخوف بإظهار مشهد نصف الجبال، وقد أضفى هذا التفصيل إحداث مشهدٍ تصويريٍّ مؤثِّرٍ له فُدرة على إحداثِ هزَّةٍ في نفسِ المتلقِّي، هذا المشهد له قُوَّة تأثيريَّة وجماليَّة وهذا التفصيل من المقومات المهمة لأنسجام النصِّ.

ثانيًا: العلاقات التفسيرية:

أ. ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه:37]

يسأل المتلقِّي ما هي هذه المنن؟ وتفسرها الآيات التي تليها بشيء من التفصيل والإسهاب "فأبهم الكلام وأتى به مجملًا ليتعلّق الذهن، ويتطلّع ما عسى أن يكون السؤال؟ وما هي المنّة الأخرى؟ وما عسى أن يردفها من مننٍ وآلاء؟ إنّه يتشوّق للمعرفة، ويحاول اكتنازه الحقيقة"¹ فكان الإبهام في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه:37]، ثم يأتي التفسير في الآيات التي تليها، وقد فسّرت المنن بشكلٍ

¹ الدرويش، محيي الدين، إعراب القرآن وبيانه، ج6، ص192.

تفصيلي فإنقاذهُ من الموت على يدِ فرعون منَّةً أولى، ونجاتهُ من الغم بعد قتله النفس منَّةً ثانية، ذهابه إلى أرضِ مدين وبقائه هناك وحفظه منهُ ثالثة، عودته إلى أرضِ مصر منَّةً رابعة.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ [طه:38]، ﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَالْقَيْثُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه:39] ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ [طه:40]

ب. ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ [طه:38]

يسأل المتلقي ما هو هذا الوحي الذي اختصرته الآية في قول: "ما يوحى" ، المتلقي يفهم وجود وحي، ولكنه لا يعرف ما هو، وتأتي الآيات التي تلي هذه الآية لتفسر هذا الوحي و ذلك في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [طه:39] إذا هذا الإبهام في قوله "ما يوحى" إبهام يجعل المتلقي في حيرة، وتجيء الآيات التالية لتزيل هذا الإبهام وتفسر القول فكأنه يقول: هذا هو الوحي الإلهي الذي أوحينا به إلى أم موسى، كما نجد تفصيلاً في ذكر ملابسات الحادثة وما حدث بعد عملية قذف الطفل، فالعلاقة بين الآيتين علاقة تفسيرية، إذ يسهم الإبهام في إثارة انتباه المتلقي لوجود وحي مجهول حيثياته وتفاصيله، و يأتي ما بعده ليفسر فيضيء جانب الوحي ذاته لا الكيفية التي تم بها.

ثالثاً: علاقة السبب بالمُسبَّب:

أ. قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:12]

ورد سببُ خلع النعل، أو الأمرُ بخلع النعل، لوجود نبي الله موسى في الوادي المقدس، فالرابطُ الدلاليُّ الواردُ في الآية الواحدة هو علاقة السبب بالمُسبَّب، وهي علاقة خلع النعل بالوجود في المكان الطاهر المقدس، و"ظاهر الآية أن موسى عليه السلام قد أمر بخلع نعليه احتراماً لتلك الأرض المقدسة، وأن يسير بكل خضوع وتواضع في ذلك الوادي ليسمع كلام الحق وأمر الرسالة"¹

¹ الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل، ج9، ص342.

ب. قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:46]

نهى الله موسى وهارون عن الخوف، وعلة النهي وسببه هو وجود الله معهما يسمع كل ما يجري ويرى، فهو محيط سمعاً ورؤيةً، والمعنى أنه سبحانه يظلهما بعنايته، ويلطف بهما بإعطائهما الأمان، "الحافظ إذا كان قادراً سمياً بصيراً تم الحفظ"¹، كما أن حفظ الله لهما كان سبباً في قدرتهما على مواجهة فرعون والانتصار عليه، فما كان من السحرة إلا أن خرّوا ساجدين، وآمنوا برب هارون وموسى كما نصّرح الآيات: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه:70] كذلك لم ينله أدنى من فرعون بالرغم من أن كل المسببات تشير إلى أن فرعون حفظاً لنفسه عليه أن يقتل موسى عليه السلام، ولكن كان للقول اللين أثر فامتثال موسى وهارون بأمر الله في القول اللين كان سبباً في حفظهما ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:44]

ت. ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:39]

في قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أمّا الصنع فهو: "مستعار للتربية والتمية، تشبيهاً لذلك بصنع شيء مصنوع، ومنه يقال لمن أنعم عليه أحد نعمة عظيمة: هو صنيعه فلان"² أمّا صنع موسى فقد تكفل به الله -عز وجل- وهو لا يختص بمرحلة دون أخرى بل صنعه وتربيته ونشأته في كل سنّي حياته، كيف حدث هذا الأمر؟ وكيف تكفل الله بذلك، في قوله -عز وجل- بيان ذلك، في قوله: ﴿عَلَى عَيْنِي﴾ فسبب صنع موسى هو أنه على عين الله أو بلفظ قرآني آخر ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:48]، ومعنى قوله إنه على عينه أنه "أراد بالعين المحبة أي على المحبة منّي لأن العين رائدها وسببها"³ أي لتربي وتنشأ على محبتي والمعنى بمحبتتي، ومن هنا فالمحبة هي سبب صنع موسى -عليه السلام-.

¹ البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ج4، ص28.

² ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص218.

³ الدرويش، محيي الدين، عراب القرآن وبيانه، ج6، ص194.

ث. ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه:120]،
وقوله: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ
رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه:121]

وسوس إبليس لآدم وزوجه فكان هو السبب في أكلهما من الشجرة، فالمُسبَّب هو أكلهما منها، فورد
سبب ذلك في الآية، ممَّا يُشكِّل ارتباطاً دلاليًا أساسه العلاقة بين المُسبَّب وسببه، ومثله أيضًا، الرِّبط
الدَّلالي بين سبب خروج آدم وزوجه من الجنة، وهو أكلهما من الشجرة!



ج. قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه:16]

اتباع الهوى هو السبب وراء الكفر بيوم القيامة، ذلك أنَّ الَّذي يجدُّ في نفسه ميلًا للأهواء، يبتعد
تدريجياً عن الإيمان، وقد يُوصله ذلك إلى الكفر باليوم الآخر أو بالقيامة.

ثالثاً: علاقة الشرط والجواب:

أولاً: أسماء الشرط، ومِمَّا وردَ من الشرط بأسمائه في السُّورة قوله تعالى:

أ. ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ [طه:100]

اسم الشرط: مَنْ، وفعله: أَعْرَضَ، وقد وقع جواب الشرط مُقترناً بالفاءِ مُؤكِّداً بآنَ: (فَإِنَّهُ يَحْمِلُ)،
وهذا الأسلوب الشرطي يربطُ مفاصِلَ الآياتِ ويُعَضِّدُ علاقتها ببقية النصِّ، فالإعراض عن ذِكْرِ الله هو
ممَّا تكرر فيه أسلوب الشرط لتأكيد وإبرازها حتمية العاقبة.

ب. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:124]

الآية الأولى أكدت عبْر أسلوب الشرط نتيجة الإعراض عن ذكر الله مُؤكِّداً بـ "إِنَّ"، فهو سيحمل الوزر يوم القيامة، أمّا الآية الثانية فهي تُؤكِّد ذلك أيضاً مُضيفَةً أنّ هذه العقابَةُ لا تختصّ بيوم القيامة وحسب، بل إنّ هذا العقاب مُتَّصِلٌ بالحياة الدُّنيا أيضاً فللمُعْرضِ ضَنْكُ العيشِ، وسوءُ العقابَةِ، فيُحْشَرُ أَعْمَى، وقد ورد الشرطُ في الآية بالاسم: مَنْ، وفعلُ الشرط: أَعْرَضَ، أمّا جُمْلَةُ جواب الشرط فهي: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، وهي جُمْلَةٌ معطوفةٌ، فالجوابُ يتحقَّقُ في أمرين أوْلاً ضَنْكُ العيش في الحياة الدُّنيا، وثانياً العمى في الآخرة

ولهذا نجدُ الصِّلةَ الدَّلاليَّةَ من خلال أمرين أوْلاً قُوَّةَ الرِّابطةِ الدَّلاليَّةِ في علاقة الشرط، بين أجزاء الجُمْلَةِ الشرطيَّةِ، ثانياً لازمة العلاقة الشرطيَّة التي تحمل دلالة الإعراض عن ذكر الله في تركيبها ومعناها فقد ورد الشرط باسم الشرط: "مَنْ" في الآيتين، وبفعل الشرط: أَعْرَضَ في الآيتين، وبالفاء المُقترنة بإِنَّ في الآيتين، مع الاختلاف في لفظ جواب الشرط وتشابه دلالته، فالشرط يقوِّي العلاقات الدَّلاليَّة ويشكِّل حالةً من الانسجام على مُستوى الجُمْلَةِ الشرطيَّة الواحدة في تكوينها وهيكلتها، وعلى مُستوى مجموع الجُمْلِ الشرطيَّة التي تحمل ذات الدلالة.

وممّا ورد من الشرط بأسمائه الآيات التي تحمل دلالة الشرط لعملِ الصّالحات، وقد ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:112]، وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:123]

وقد بُنيت الآيات التي تحمل هذه الدلالة وفق تركيبٍ واحدةٍ أيضاً، وفق نظامٍ، وقد وردَ في آيتين، فنجدُ أنّ كلتا الآيتين وردت باسم الشرط: مَنْ، مع اختلاف لفظِ فعلِ الشرط، ولكنّهما يُدوران في دائرة دلالةٍ واحدةٍ وفعلِ الشرط: يعمل من الصّالحات في الآية الأولى، و اتَّبَعَ هُدَايَ في الآية الثانية، كلاهما يدور في دلالة طاعة الله وامتثال أمره، فعمل الصّالحات ما هو إلّا امتثال لأمرِ الله وطاعته عزّ وجلّ، أمّا جواب الشرط فهو أيضاً يختلفُ في اللَّفْظِ ويتحقَّقُ في دائرة الدَّلالة وشكل التَّركيب، فنجدُ اتِّفَاقاً بين هيكل تركيبتي جواب الشرط: ففي الآية الأولى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:112] ، وفي الآية الثانية: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:123]، فجواب الشرط يقوم على تركيبية واحدة في الآيتين وهي: الفاء+لا+

الفعل+لا ، فجواب الشرط يقوم بناؤه على ثنائِيَّة واضحة في الآية الأولى: لا يخاف ظلماً ولا يخاف هضمًا، وفي الآية الثانية: لا يضلُّ و لا يخشى، كما يقوم على تكرار لا النافية مرتين، و وجود الواو الرابطة بينهما، و اقتران الفعل بفاء الشرط، وقد ورد هذا التَّماتل في التركيبتين.

وهذا التَّماتل في الجُمْل الشرطيَّة التي ذكرناها أساسه النظامُ القرآنيُّ، فهيكلة الآياتِ القائم بناؤها على الشرط والتي تحمل دلالة الإعراضِ عن الذِّكرِ أو اتِّباعِ الهدى تلتزمُ ببناءٍ واحدٍ، وهذا ما وجدناه في الشَّقِيَّينِ المُتَقَابِلِيْنَ في الدَّلالة: الأوَّل من يُعرض عن الذِّكرِ، والثَّاني من يتَّبِع الهدى.

ثانيًا: حروف الشرط، ومِمَّا وردَ من الشرط بحروفه قوله تعالى:

أ. ﴿وَإِنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:7]

(إن تجهر) فعل الشرط، وجواب الشرط (يعلم) المُقْتَرَنُ بالفاء والمُؤَكَّدُ بِإِنَّ، تأكيدًا على إحاطة علم الله بكلِّ شيء، ما يُسرّه الإنسان وما يخفيه.

ب. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه:129]

لولا: حرف الشرط، فعل الشرط: سبقت، وجُمْلَة جواب الشرط: لكان لزامًا.

ت. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه:133]

أمَّا فعل الشرط فهو (يأتينا) وحرفه (لولا)، وقد حُذِفَ جواب الشرط وتقديره فَنَتَّبِعُ آيَاتِكَ، وقد دلَّ على المحذوف ما ورد في الآية التي تليها وذلك في قوله: ﴿فَنَتَّبِعُ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْذِرَ وَنُخْزِيَ﴾ [طه:134].

ث. ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعُ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْذِرَ وَنُخْزِيَ﴾ [طه:134]

لو: حرف الشرط، أهلكناهم: فعل الشرط، وجُمْلَة جواب الشرط: لقالوا، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعُ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْذِرَ وَنُخْزِيَ﴾ [طه:134]، والمُلاحَظ أنَّ الآيتين الأخيرتين اعتمدتا بشكلٍ أساسيٍّ على الشرط في مفاصليهما، فهما أوَّلَا آيتان مُتتَابِعَتانِ، أمَّا الأولى فاحتوت على أسلوبٍ شرطٍ واحدٍ حُذِفَ فيه جواب الشرط وقد تعيَّن ذكره في الآية التي تلتها لاتصالهما في الدَّلالة، وأمَّا

الآية الثانية فقد احتوت على أسلوب شرط، يقوم أحدهما على الآخر: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْذِلَ وَنَخْزِيَ﴾ [طه:134]، وهما أسلوبان يعتمدان على حروف الشرط، الأول بحرف الشرط: لو، والثاني بحرف الشرط: لولا، وأما أسلوب الشرط الأول فيتعين بفعله أهلكناهم وأما ما يترتب عليه فهو جواب الشرط "لقالوا"، والمعنى: لو أهلك الله هؤلاء لقالوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً، وأما جملة مقول القول: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْذِلَ وَنَخْزِيَ﴾ فهي أيضاً جملة شرطية أخرى تدخل تحت دائرة الجملة الأكبر، لولا: حرف الشرط، أرسلت: فعل الشرط، فننتب، جملة جواب الشرط المقترن بالفاء.

رابعاً: علاقة السؤال بالجواب:

وردت في السورة الكثير من الآيات التي ترتبط بخيط سميكة أساسه علاقة السؤال والجواب، فهذه العلاقة من العلاقات التي تقوم بشد النص بعضه بعضاً مشكّلة حالة من الالتحام، فهي تشد المتلقي فتجعله في حالة ترقب وتأهب لمعرفة الإجابة، وقد تتشكل الإجابة في ذهن المتلقي أحياناً فور اصطدامه بالسؤال فيبحث عما يؤكد ما توصل إليه، فهذه العلاقات تبني الالتحام والانسجام في النص، بشكل أكثر بياناً ووضوحاً، وقد ورد ذلك في مواضع عدة:

أ. ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:17]

هذا السؤال يستدعي إجابة لا لجهل السائل فعلمه محيط بكل شيء ولكن للفت انتباه المسؤول والمتلقي للنص، لا سيما أن النص يحمل في بعض مفاصله نمط السرد الذي يحمل طابع التشويق، لذا فإن إجابة موسى ما هي إلا وسيلة لشد ذهن المتلقي إليه، ليعرف ويدرك ما في يمين موسى، وجاء بذكر اليمين للتفصيل ولفت الانتباه، "وفيها أيضاً التقرير وهو بالاستفهام فإنه سبحانه عالم بما بيمينه وإنما أراد أن يقر موسى ويعترف بكونها عصا ويزداد علمه بما يمنحه الله في عصاه فلا يعتريه شك إذا قلبها ثعباناً بل يعرف أن ذلك كائن بقدرة الله وأنه هين عليه سير"¹ وجاءت الإجابة بلسان موسى: ﴿قَالَ هِيَ غَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه:18].

ولذا نجد ارتباطاً بين هذه الآية والآية: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:69]، ولأن المراد من الاستفهام هو التقرير نجد الآية تأمر

¹ درويش، محيي الدين، إعراب القرآن وبيانه، ج6، ص178-179.

مُوسَى بِالْقَاءِ مَا فِي يَمِينِهِ، دُونَ إِيرَاد لَفْظ الْعَصَا، لِأَنَّهُ قَدْ أَقَرَّ سَابِقًا بِأَنَّ مَا فِي يَمِينِهِ عَصَا، لَتَقِيَنَّ نَفْسَهُ فِي لَحْظَةِ تَحَوُّلِهَا إِلَى مَا كَانَتْ إِلَيْهِ وَمَا هِيَ إِلَيْهِ صَائِرَةً.

ب. ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه:49]

وَرَدَ السُّؤَالُ بِلِسَانِ فِرْعَوْنَ، وَجَاءَتْهُ الْإِجَابَةُ مِنْ مُوسَى-عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:50]، "رَبُّنَا الَّذِي وَهَبَ الوجودَ لكل موجود في الصورة التي أوجده بها وفطره عليها. ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها، وأمده بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها"¹، هل انتهى الحوار بين سؤال وإجابته؟ لا وإنما جَرَّ السُّؤَالُ غَيْرُهُ، فَبَدَأَ فِرْعَوْنَ بِسْأَلِ مُوسَى-عَلَيْهِ السَّلَامُ- يُجِيبُ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه:51] وكان هذا سؤال فرعون، غير أن ما في القُرُونِ الْأُولَى يحجب الغيب فموسى-عليه السلام- أجابه بما يعلم قائلاً: ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه:52].

قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه:53] ونجدُ اختلافًا في الضمير، فقد تحوّل الضمير من ضمير الغائب في قوله: ﴿جَعَلَ﴾ و قوله: ﴿أَنْزَلَ﴾ إلى ضمير المتكلم في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾، وقيل: "عدل به عن لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى، تنبيهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة وإيذاناً بأنه مطاع تتقاد الأشياء المختلفة لمشيئته"² كما أن الطاهر بن عاشور يجد أن "العدول عن ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم في قوله "فأخرجنا" التفات، وحسنه هنا أنه بعد أن حجّ المشركين بحجة انفراده بخلق الأرض وتسخير السماء مما لا سبيل بهم إلى نكرانه ارتقى إلى صيغة المتكلم المطاع، فإن الذي خلق الأرض وسخر السماء حقيق بأن تطيعه القوى والعناصر، فهو يُخرج النّبات من الأرض بسبب ماء السماء، فكان تسخير النّبات أثراً لتسخير أصل تكوينه من ماء السماء وتراب الأرض"³

فَيُبَيِّنُ مُوسَى بِالْحِكَايَةِ عَنِ اللَّهِ قُدْرَتَهُ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَقَدْ بَيَّنَّ ذَلِكَ اسْتِطْرَادًا فِي إِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ فَهُوَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، "وللتذكير بالأرض هنا مناسبة في مشهد الحوار مع فرعون الطاغية المتكبر،

¹ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص2338.

² البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ج4، ص30.

³ التحرير والتوير، ج16، ص238.

الذي يتسامى إلى مقام الربوبية، وهو من هذه الأرض وإليها! وهو شيء من الأشياء التي خلقها الله في الأرض وهداها إلى وظيفتها .. "ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى" أريناه الآيات الكونية التي وجهه إليها موسى -عليه السلام- فيما حوله، وآيتي العصا واليد يجملهما هنا لأنهما بعض آيات الله، وما في الكون منها أكبر وأبقى، لذلك لا يفصل السياق هنا عرض هاتين الآيتين على فرعون، فهذا مفهوم ضمناً¹ وقد جاءت هذه الآية وما يليها: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:55]، في بيان مقدرة الله عز وجل وبيان نعمه وآياته، وهذه الآيات يعرضها في هذا المقام الذي يسأل فيه فرعون عن الله، فبنيت هذه التركيبة من استفهام وإجابته، ولما كانت الإجابة تحمل آيات الله أراد بها أن يلقي الحجة على فرعون فقد أراه آية الحية واليد، ثم صرح بذكر الآيات الكونية من تهيئة الأرض وبسط الرزق، وخلق النبات، ثم بيّن له أن هذه الأرض هي أساس نشأة الإنسان وإليها يعود ثم يُخرجها منها، ولذلك ذكر النبات لأن منشأه الأرض، ولأن فيه دلالة على قدرة الله -عز وجل- وعظمته، فأراد موسى أن يبلغ فرعون كل الدلائل والحجج.

ج. كثرة الاستفهام في الوحدة النصية المتعلقة بموسى والسامري:

وردت علاقة السؤال والجواب في الوحدة النصية المتعلقة بموسى والسامري بكثرة مشكلة جملة من التساؤلات التي عاد بها موسى وهو غضبان أسفاً مما فعله قومه فبعد أن انتشلهم من ذل العبودية لعز الحرية عادوا لما كانوا عليه متخذين من العجل إلهاً يبعدونه، مما أثار غضبه وتساؤلاته ولومه وعتبه واستنكاره، فحمل مجموعة تساؤلات وجهها لثلاث فئات، كان قد حملها مسؤولية ما حدث:

الفئة الأولى: قوم موسى.

الفئة الثانية: هارون.

الفئة الثالثة: السامري.

¹ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص2339.

أَوَّلًا: قوم موسى

أَمَّا ما وردَ من سُؤالِ قومِهِ، فلم يكتفِ بسؤالٍ واحدٍ، بل تكاثرت الاستفهامات ما يدلّ على حالة الاستنكار والرغبة في المعرفة واللوم وحالة الغضب، فسألهم: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه:86]، وقد وردت ثلاث استفهامات:

الأول حين استفهم عن الوعد الذي وعدهم الله بِهِ ﴿يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ "وقد وعدهم الله بالنصر ودخول الأرض المقدسة"¹ فالله عزّ وجلّ، قد وعدهم حديثًا بهذا الوعد، فيسألهم مُستنكرًا حالهم الذي هم فيه.

أعقب ذلك باستفهام ثانٍ وهو: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾، أي عهدكم مع الله، فهذا العهد حديث فيستفهم مُستنكرًا هل طال عليكم هذا العهد وهو حديث؟

ثمّ يتبعه باستفهام ثالثٍ أخير: ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ فهل أردتم أن يحلّ غضب الله عليكم ولذا أخلفتم الموعد؟ وهنا تعكس هذه الآيات حالة الاستنكار التي عاشها موسى وقتنّذ على قومِهِ، فوعدهم لم يكن منذ زمنٍ طويل وقد وعدهم الله بالنصر وهو يستنكر عليهم ما فعلوه ولا يجد سببًا لذلك إلاّ استعجالهم العقوبة.

ونجد أنّ تعاقب هذه الاستفهامات يُعطي انسجامًا للنصّ، فهي ترتبط جميعها في دائرة دلالية واحدة وهي استنكار موسى ما فعله قومه، كما أنّ الإجابة التي أوردها قومه تُسهّم في بناء النصّ دلاليًا بناءً سميكيًا، فتتصل الوحدات بعضها ببعض، فنجد قوم موسى يبررون فعلهم وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [طه:87]، ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه:88].

حادثة بسيطة غيّرت من واقع حال قومٍ، فمن بعد إيمانهم انقلبوا واهتزّوا أمام عجلٍ وقد برّروا لموسى موقفهم بأنهم لم يخلفوا الموعد بإرادتهم ولكنّ عجل السامريّ كان له خور، فظنّوا أنّه إله موسى! وهنا تحوّلوا من شدّة إيمانهم الذي جعلهم يواجهون به فرعون لينقلبوا في عبادة العجل، هكذا كان جوابهم،

¹ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص2347.

مما أسهم في ربط مفاسل النص، استفهام استنكاريٍّ أخير لم يترقب موسى بعده إجابة وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:89]، وقد جاء ختامًا للأسئلة التي طرحها موسى على قومه.

ثانيًا: هارون:

أما ما ورد في سؤال هارون، فقد ذهب موسى إلى أخيه مُعَاتِبًا بِسُؤَالَيْنِ: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ [طه:92]، ﴿أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه:93]، أما السؤال الأول فاستفهامه حول سبب وقوفه صامتًا أمام ما فعله قومه، وأما سؤاله الثاني فهو يستفهم مستنكرًا صمت أخيه هل كان عصيًّا لأمره؟ وقد وردت الإجابة لترابط الأجزاء، حين أجابه هارون: ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:94]، كانت إجابة هارون إجابةً بليغةً لمن يُحاول أن يمتصَّ الغضب وقد "خصَّ الأم استعطافاً وترقيقاً"¹ ومُحاولةً لتليينه وتهديته، وتُظهر الآية أنَّ هارون كان أهدأ وأقلَّ انفعالاً، ويُبين له سبب فعله فهو قد أرادَ الحفاظ على بني إسرائيل فقد فعل ما فعل امتثالاً لأمر أخيه من ناحية الحفاظ على بني إسرائيل لئلاَّ يتفرَّقوا، وقد خشي من شتاتهم.

ثالثًا: السامري:

ذهب موسى إلى السامري مُستفهمًا: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ [طه:95]، وقد كان استفهامًا يستدعي جوابًا مُفصَّلًا، عمَّا فعله السامري وكانت الإجابة: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه:96] وإلى هذا الحدِّ تنتهي كافة أسئلة موسى.

إنَّ النَّمَطَ السَّرْدِيَّ في هذه الوحدة النَّصِيَّةِ قد تطلَّب حوارًا، وحالة الحوار وغضب موسى قد تطلَّب استفهامًا، وقد أدَّت العلاقة بين ما ورد من استفهام وإجابته إلى ربط مفاسل النص بين الاستفهام والجواب من جهة، ومن جهة أخرى ربط كافة الاستفهامات والأجوبة في خلق فضاءٍ متكاملٍ للبنية الفاعلة ومسوغات فعلها وأسبابها ورؤاها، وهكذا أتاح لنا هذا الشكل الحواريّ القائم على علاقة الاستفهام والجواب،

¹ البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ج4، ص37.